إيزابيل أليندي

صورة عتيقة

رواية

الترجمة عن الإسبانية:
رفعت عطفة

الفهرس

القسم الأوّل (1862 ـ 1880)	9
القسم الثاني (1880 ـ 1896)	99
القسم الثالث (1896 ـ 1910)	213
خاتمة	313

إلى كارمن بالثليز ورامون هويدوبرو،
أسدين مولودين في يومٍ واحد، وحيين إلى الأبد.

لذا عليَّ أن أعود
إلى أماكن كثيرة قادمة
كي ألتقي بنفسي،
أتفحّصها دون توقّف،
دون ما شاهد غير القمر
أصفرُ بعدها فرحاً
وأنا أطأ حجارة وتراباً،
دون ما همّ غير العيش
ودون ما أسرة غير الطريق.

بابلو نيرودا
نهاية عالم (الريح)

القسم الأوّل

1862 ـ 1880

جئتُ إلى العالم ذات ثلاثاء من خريف 1880، تحت سقف جدّيَ لأميّ في سان فرانسيسكو. وبينما كانت أمّي تلهثُ في متاهة ذلك البيت الخشبيّ كمن يصعد جبلاً بقلب شجاعٍ جاهدةً كي تشقّ لي مخرجاً؛ كانت الحياة الوحشية للحي الصينّي تمور في الشارع بالرائحة التي لا تتبدّل لمطبخه الغريب، والسيل المدوّي للهجاته الصاخبة، وحشوده التي لا تنضب من النحل البشري في رواح وغدوّ سريعين. ولدتُ فجراً، لكنّ الساعات في تشاياناتاون (الحي الصيني) لا تخضع لقواعد، ففي هذه الساعة تبدأ حركة السوق ومرور العربات ونباح الكلاب الحزينة في أقفاصها بانتظار سكين الطبّاخ. جئت لأعرف تفاصيل ولادتي في زمنٍ متأخر من حياتي، ولكن الأسوأ من ذلك لو أنّني لم أكتشفها قط، فقد كان من الممكن أن تبقى طيّ النسيان. عند أسرتي من الأسرار ربما لن يكفيني الزمن لاستجلائها كلّها: فالحقيقة عابرة مغسولة بسيول من المطر. استقبلني جدّاي لأمّي متأثرين ـ رغم أنّني كنتُ حسب عدد من الشهود مخلوقاً مريعاً ـ ووضعاني على صدر أمي، حيث بقيتُ مستكينةً بضعَ دقائق، هي الدقائق الوحيدة التي تمكّنتُ فيها من البقاء معها. بعدها نفخ خالي «محظوظ» نَفَسَهُ في وجهي لينقلَ إليَّ حسنَ حظّه. كانت النيّةُ كريمةً والطريقةُ صائبةً، فهي على الأقل واتتني خلال هذه الثلاثين سنة الأولى من حياتي. لكن حذارِ، عليّ ألا أستبق الأمور. فهذه القصّة طويلة، وتبدأ قبل ولادتي بكثير، وتتطلّب روايتُها صبراً،

وسماعُها صبراً أكثر. وإذا ما ضاع الخيط في الطريق فلا يجب الوقوع في اليأس، فهو سوف يُستعاد بكلّ تأكيد بعد عدّة صفحات. وبما أنّ علينا أن نبدأ بتاريخ ما، فليكن في العام 1862 ، ولنقل بالمصادفة إنّ القصّة تبدأ بقطعة أثاث أبعادها غير معقولة.

سرير باولينا دِل بالْيِه أُوصي عليه إلى فلورنسا بعد عام من تتويج فيكتور إيمانويل حين كانت ما تزال تتردّد في مملكة إيطاليا الجديدة أصداءُ رصاص غاريبالدي؛ وعَبَرَ المحيطَ مُفكّكاً في عابرة محيطات جنوية، وأُنزِل في نيويورك وسط إضراب دام، ونُقِل إلى إحدى بواخِر شركة سفن أجدادي لأبي آل رودريغِث دِ سانتا كروث، التشيليين المقيمين في الولايات المتحدة. وكان من نصيب القبطان جون سومّرز استلام الصناديق المُعلَّمَة بالإيطالية، وبكلمة واحدة: *نايادِس*. ذلك البحّارُ الإنكليزيُّ القويُ، الذي لم يبق له أثرٌ غير صورة باهتة وصندوقٍ جلديٍّ متآكلٍ من كثرة ما عبر بحاراً، مليء بالمخطوطات الغريبة، هو جدّ أمّي، كما تحقّقتُ منذ زمنٍ قصير، حين بدأ ماضيَّ ينجلي أخيراً، بعد سنوات طويلة من الغموض. لم أعرف القبطان جون سومّرز، والد إليثا سومّرز، جدّتي لأمّي، لكنّني ورثت عنه نوعاً من النزوع نحو الصعلكة. وعلى كاهل رجلِ البحر هذا، الذي كان أفقاً وملحاً خالصين، وقعت مهمّةُ نقل السرير الفلورنسي في قاع سفينته حتى الطرف الآخر من القارّة الأمريكية . وكان عليه أن يتفادى الحصار اليانكي، وهجمات الكونفدراليين، ويصل إلى تخوم المحيط الأطلسي الجنوبية، يعبر مياه مضيق ماجلان الغدّارة، ويدخل إلى المحيط الهادي، ثمّ بعد توقّف قصير في عدة موانئ أمريكية جنوبية، يُوجّه مقدّمة سفينته نحو شمال كاليفورنيا، أرض الذهب القديمة. كانت لديه أوامر دقيقة بفتح الصناديق في ميناء سان فرانسيسكو، مراقبة النجار الموجود على متن السفينة، بينما يركّبُ هو الأجزاءَ وكأنّها أحجية، منتبهاً كيلا تُثلم النقوش المنحوتة، ولكي يضع فوقه الفرش وغطاء الدمقس الياقوتيّ، ويضعه في عربة ويرسله ببطء إلى مركز المدينة. وكان

على الحوذي أن يدور دورتين حول ساحة الوحدة، ودورتين أخريين وهو يقرع جلجلاً أمام شرفةٍ خليلةِ جدّي، قبل إنزاله في المكان المرسل إليه: بيت باولينا دِل بالْيِه. وكان عليه أن يقوم بهذه المأثرة في أوج الحرب الأهلية عندما كان اليانكيون والقوات الفدرالية يتذابحون في جنوبي البلاد، وما من أحد يملك مزاجاً للمزاح ولا للأفراح. وزّع جون سومّرز التعليمات ساخطاً، لأنّ هذا السرير صار خلال شهور الإبحار يرمز لأكثر ما يكره من عمله: نزوات ربّة عمله باولينا دِل بالْيِه. عندما رأى السرير على العربة، تنهّد وقرّرَ أن يكون آخر عملٍ يعمله لأجلها: فقد مضى على وجوده رهن أوامرها اثنا عشر عاماً، ووصل صبره إلى أقصى حالاته الممكنة. ما زال السرير موجوداً لم يُمسّ. إنّه ديناصور خشبي ثقيل متعدّد الألوان، على القطعة الرأسية يتقدّم نبتون محاطاً بالأمواج المرغية والمخلوقات البحرية السفلية محفورة حفراً غائراً، بينما تلعب عند القدمين الدلافين وعرائس البحر. بعد ساعات قليلة استطاع نصف سكّان مدينة سان فرانسيسكو أن يبدوا تقديرهم لذلك السرير الأولمبي. لكنّ جدّتي العزيزة التي كان المشهدُ مُهدىً إليها، اختبأت حين مرّت العربة وعادت لتمرّ بجلاجلها.

ـ لم يدم انتصاري طويلاً ـ اعترفت لي باولينا بعد سنواتٍ طويلة، حين كنتُ أصرّ على تصوير السرير، ومعرفة التفاصيل ـ انقلبت المزحة. ظننتهم يسخرون من فِليثيانو، لكنّهم كانوا يسخرون منّي. أسأتُ حكمي على الناس. من كان سيتصوّر كلّ هذا النفاق؟. كانت سان فرانسيسكو في تلك الأزمان عشَّ دبابير للسياسيين الفاسدين واللصوص والنساء سيّئات السيرة.

ـ لم يُعجبهم التحدّي ـ ارتأيتُ.

ـ لا. يُنتظر منّا نحن النساء أن نُعنى بسمعة الزوج مهما كان خسيساً.

ـ زوجك لم يكن خسيساً ـ دحضتها.

ـ لا، لكنّه كان يرتكب حماقات. في جميع الأحوال لست نادمة على السرير الشهير، فقد نمتُ عليه أربعين عاماً.

ـ ماذا فعل زوجك حين رأى أنّ أمره انكشف؟

ـ قال إنّه بينما البلد ينزف في الحرب الأهلية كنتُ أشتري أثاثاً من كاليغولا. طبعاً أنكرَ كلَّ شيء. ما من أحد لديه ذرّة عقلٍ يقبل الخيانة، حتى ولو أمسكوا به بين الملاحف.

ـ هل تقولين هذا عن تجربة شخصية؟

ـ حبّذا لو كان كذلك يا أَوْرورا! ـ ردّت باولينا دِل بالْيِه دون تردّد.

في الصورة الأولى التي التقطها لها، حين كنتُ في الثالثة عشرة من عمري، تظهر باولينا في سريرها الأسطوري، متكئةً على وسائد الساتان المطرّز. في قميص مزركشٍ وعليها نصف كيلوغرام من المجوهرات. هكذا رأيتُها مرّاتٍ كثيرةً، وهكذا وددتُ أن أسهر عليها حين ماتت، لكنّها أرادت أن تذهب إلى القبر بزيِّ الكرمليات الحزين، وأن يُقام القدّاسُ المغنّى لعددٍ من السنوات من أجل راحة نفسها. «لقد أثرت الكثير من الفضائح وآن الأوان كي أطأطئ رأسي» ذلك كان التفسير الذي قدّمته حين غرقت في حزن أيامها الأخيرة الشتوي. فحين رأت نفسها قريبة من النهاية خافت. أمرت بنفي السرير إلى القبو، ووضعت مكانه تختاً خشبياً مع فراش من شعر عرف الحصان، كي تموت دون ترف، بعد كلّ ذلك التبذير، فعسى يمحو القديسُ بطرس ما سبق، ويبدأ حساباً جديداً في كتاب خطاياها، كما قالت. لكن خوفها لم يسمح لها بالتخلّص من ممتلكاتٍ ماديّة أخرى، فقد بقيت حتى آخر نفسٍ ممسكةً بين يديها بزمام إمبراطوريتها المالية، التي كانت محدودة جدّاً بالنسبة إلى ذلك الوقت. لم يبق من صلف شبابها حتى النهاية إلا القليل، وحتى السخرية راحت تنضب، لكنّ جدّتي خلقت أسطورتها الخاصّة بها وما من فراشِ شعرِ عرف حصان، أو زيٍّ راهبة كرمليّة كان باستطاعته أن يُعكّر مزاجها. فقد شكّل السرير الفلورنسي، الذي

خطر لها أن تُنَزِّهه في أهمّ الشوارع لإزعاج زوجها، إحدى أكثر لحظاتها مجداً. كانت الأسرةُ في تلك المرحلة تعيش في سان فرانسيسكو، بِكنْية مستبدلة ـ كروس ـ؛ لأنّه ما من أمريكيّ كان باستطاعته أن يلفظ الاسم الرنان رودريغِث دِ سانتا كروث ودِل بالْيِه، وهذا أمر مؤسِف، لأنّ للكنية الأصلية الوقع القديم لمحاكم التفتيش. كانوا قد انتقلوا توّاً إلى حي نوب هيل، حيث بنوا بيتاً غير معقول، من أكثر بيوت المدينة بذخاً، جاء حصيلة هذيان عدد من مهندسي العمارة المتنافسين المتعاقد معهم والمطرودين كلّ اثنين من ثلاثة. لم تجمع الأسرة ثروتها من حمّى ذهب عام 1849 كما كان يزعم فِليثيانو، بل بفضل حدس زوجته التجاري الرائع، التي خطر لها أن تنقل منتجاتٍ طازجة من تشيلي إلى كاليفورنيا على حصير من ثلج قطبيّ. في ذلك العصر الصاخب كانت حبة الدراق تساوي أونصة ذهبية، وعرفت هي كيف تستفيد من هذه الظروف. ازدهرت المبادرة، ووصل بهم الأمر إلى أن ملكوا أسطولاً صغيراً من السفن المبحرة بين بالبارايسو وسان فرانسيسكو، وكانت تعود في العام الأول فارغةً، لكنّهم صاروا يشحنونها بعد ذلك بطحين كاليفورنيا؛ وهكذا أوقعوا بالإفلاس عدداً من المزارعين التشيليين بمن فيهم والد باولينا، أغوستين دِل بالْيِه المرهوب الجانب، الذي دَوّد قمحه في مخازنه لأنّه لم يستطع أن يُنافِسَ به طحين اليانكيين ناصعَ البياض. كما دَوّد كبده من الحنق. مع انتهاء حمّى الذهب، عاد آلاف وآلاف المغامرين إلى قراهم الأصلية، وهم أفقر حالاً مما كانوا حين خرجوا، بعد أن خسروا صحّتهم وروحهم، لاهثين خلف حلم، لكنّ باولينا وفِليثيانو بنيا ثروةً. واعتليا قمّة مجتمعِ سان فرانسيسكو، على الرغم من العائق الذي يصعب التغلب علَيه، ألا وهو النبرة الإسبانية. «الجميع في كاليفورنيا أثرياء جدد وأولاد حرام، بينما شجرتنا العائلية تعود إلى الحروب الصليبية» هكذا كانت تتمتم باولينا آنذاك قبل أن تُسلِّم بهزيمتها وتعود إلى تشيلي. ومع ذلك لم تكن ألقاب النبالة ولا الحسابات المصرفية وحدها من

فتح لهم الأبواب، بل ملاحة فِليثيانو، الذي أقام صداقاتٍ مع أقوى رجالات المدينة. بالمقابل كان من الصعب هضم زوجته، المتبجّحة، سيئّة الكلام، الصلفة والمتعسّفة. يجب أن نقولها: كانت باولينا توحي في البداية بمزيج من الإدهاش والرهبة التي يشعر بها المرء أمام عظاءة أمريكية؛ ولايُكتشف اندفاعها العاطفي إلاّ بالتعرف عليها جيّداً. في عام 1862 دفعت زوجها نحو الشركة التجارية المرتبطة بالسكك الحديدية القارّية التي جعلتهم أثرياء بشكلٍ نهائيّ. لا أعرف من أين جاءت هذه السيّدة بحدسها التجاري. فهي تتحدّر من أسرة من الملاكين التشيليين ضيّقي الأفق وفقراء الروح، وتربّت بين جدران بيت أبويها في بالبارايسو، وهي تصلي صلاة السبحة وتطرّز، لأنّ والدها كان يعتقد أنّ الجهل يضمن إذعانَ النساء والفقراء. لم تكن تُتقِنُ مبادئ الكتابة والحساب، فهي لم تقرأ كتاباً في حياتها، وكانت تجري عمليات الجمع بأصابعها ـ لم تُجْرِ عمليةَ طرحٍ قط ـ لكنّ كلّ ما كانت تلمسه يداها يتحوّل إلى ثروة. ولولا تبذير أبناؤها وأقرباؤها الطائشون لكانت ماتت ببهاء إمبراطورةٍ. في تلك المرحلة كانوا يبنون السكة الحديدية للربط بين شرقِ وغربِ الولايات المتحدة. وبينما كان الجميع يستثمرون في أسهم الشركتين، ويراهنون لأي القطارين سيمدَد الخطُ بسرعة أكبر، نشرت، هي اللامبالية بهذا السباق المحموم، خريطة على طاولة غرفة الطعام، ودرست بأناة الطبوغرافي خطّ القطار المستقبلي، والأماكن التي يتوافر فيها الماء. وقبل أن يدقّ العمّال الصينيون آخر مسمارٍ، رابطين خطوط القطار في بروموتوري، ويوتاه، وقبل أن تعبر أوّل قاطرة القارّةَ بقعقعة حديديها، وحزم دخانها البركانية، وصفيرها الصارخ كصفير السفن وهي تشرف على الغرق، أقنعت زوجهَا بأن يشتري أراضي في الأماكن المعلّمة على خريطتها بإشارات صليب حمراء.

ـ هناك سيؤسسون القرى لأنّه يوجد ماء، وسيكون لنا في كلّ واحدة منها مخزناً ـ وضّحتْ.

ـ هذا يحتاج إلى مالٍ كثير ـ هتف فِليثيانو مذعوراً.

ـ احصل عليه بالقروض، فلهذا وُجِدت البنوك. لماذا سنُجازف بأموالنا الخاصّة إذا كان باستطاعتنا أن نتصرّف بأموال الغير؟ ـ ردّت باولينا، كما كانت تتعلّل دائماً في مثل هذه الحالات.

كانا في هذا الأمر يتباحثان مع المصارف، ويشتريان الأراضي على امتداد نصف البلد، حين انفجرت قضيّة الخليلة. وهي ممثّلة تُدعى أماندا لويل، اسكتلندية تُؤكَل، حليبية اللحم، سبانخية العينين ودرّاقيّة الطعم، حسب ما كان يؤكّد الذين جرّبوها؛ تُغني وترقص بشكلٍ سيِّئ، لكن بهمّة؛ تُمثّل في كوميديات قليلة الاعتبار وتُحيي حفلات أعيانٍ. كان عندها أفعى ذات أصلٍ بنميّ، طويلة وغليظة ووديعة، لكنّها ذات مظهر مُرَوِّع، تلفّها حول جسمها أثناء الرقصات الغريبة، ولم تبدِ أيّ مزاجٍ سيّئ إلا في ليلة مشؤومة تقدّمت فيها بإكليل من الريش في تسريحتها، فخلط الحيوان بين التسريحة وببغاء غافل فأوشك أن يخنق صاحبته بإصراره على ابتلاعها. كانت لويل أبعد من أن تكون واحدة من آلاف «الحمامات المدنسات» في حياة كاليفورنيا الغرامية، فهي مومس أنوف، لا يمكن الوصول إلى معروفها بالمال فقط، بل وبالأخلاق الحسنة والسحر والتودد أيضاً. وكانت تعيش بفضل كرم حُمَاتها عيشةً حسنة، ويفيض عنها ما تساعد به شرذمة من الفنانات غير النبيهات. كان مكتوباً عليها أن تموت فقيرة، لأنّها تُنفِق عن بلدٍ بأسره، وتهدي الفائض. لطالما أربكت في زهرة شبابها السيرَ في الشارعِ بظرافة سلوكها وحمرةِ شعرها الأسدي، لكّن حبّها للفضيحة خرّب حظّها: ففي حالة هيجان واحدة تستطيع أن تُدمِّرَ اسماً وتقوض أسرةً. بدت المجازفة بالنسبة إلى فِليثيانو حافزاً إضافياً، فقد كانت له روح قرصان وأغوته فكرة اللعب بالنار كما أغواه وركا لويل الشامخان. أنزلها شقّةً في مركز المدينة تماماً، لكنّه لم يحدث أن حضر إليها علناً، لأنّه يعرف جِبلة زوجته أكثر من اللازم، فقد قطعت، في نوبة غيرةٍ، بالمقص سيقان وأكمام جميع بدلاته، ورمتها على باب مكتبه. وكان هذا بالنسبة لرجلٍ أنيقٍ يوصي على ثيابه خيّاط الأمير ألبيرت في لندن، ضربةً قاضية.

في سان فرانسيسكو، المدينة الذكورية، كانت الزوجةُ دائماً آخرَ من يعلم بالخيانة الزوجية. لكن هذه المرّة كانت لويل ذاتها من أذاعتها. فحاميها يكاد لايُدير ظهرَهُ حتى تُعلّم أرجلَ السرير بخطوطٍ، خطّ واحد عن كلّ عشيق تستقبله. كانت هاوية جمعٍ، لايهمّها الرجالُ لما فيهم من قيم خاصّة، بل عددُ الخطوط، فهي ترغب بتجاوز أسطورة لولا مونْتِتْ المذهلة، المومس الإيرلندية، التي مرّت بسان فرانسيسكو مثل نسمة عطر أيّام حمّى الذهب. راحت فضيحةُ خطوطِ لويل تنتقلُ من فم إلى فم، والفرسان يتشاجرون على زيارتها، لسحرِ الجميلةِ، التي كأن الكثيرون منهم يعرفونها بالمعنى التوراتي للكلمة، كما لتفضيلهم النوم مع صاحبةِ واحدٍ من أشراف المدينة. وصل الخبرُ إلى باولينا دِل باليه، بعد أن دار دورةً كاملة في كاليفورنيا:

ـ أكثر ما يهين هو أن تُركّب لك هذه القحبة قروناً، وأن يمضي الجميع معلقين أنّني متزوّجة من ديكٍ مخصي! ـ وبَّخت باولينا زوجَها معنّفة بلغةٍ اعتادت على استخدامها في مثل تلك المناسبات.

لم يكن فِليثيانو رودريغث دِ سانتا كروث يعلم شيئاً عن نشاطات هاوية الجميع، وكاد الانزعاج يقتله. لم يتصوّر قط أن أصدقاء ومعارف وآخرين مدينون له كثيراً؛ يمكن أن يسخروا منه بتلك الطريقة. بالمقابل لم يُلقِ باللوم على العشيقة، لأنّه كان يقبل مذعناً نزوات الجنس الآخر، المخلوقات الرائعة، لكنّ الخالية من البنية الأخلاقية، والجاهزات دائماً للإذعانِ للإغواء. فبينما هنّ ينتمين للتراب، الدُبَال، الدم والوظائف العضوية، كانوا هم منذورين للبطولة، والأفكار العظيمة، والقداسة، وإن لم تكن تلك حالته هو. في المواجهة مع زوجته حاول أن يُدافِع عن نفسِه قدر استطاعته، واستغلّ وِقفةَ ليرمي في وجهها القفلَ الذي توصد به بابَ غرفتها. هل كانت تريد من رجل مثله أن يعيش ممتنعاً عن النساء؟ الذنب كلّه ذنبها لأنّها صدّته، تعلّلَ. موضوع القفل كان صحيحاً، فباولينا رفضت الهياجات الشهوانية الجموحة، ليس لعدم وجود الرغبة، كما اعترفت لي بعد أربعين عاماً، بل حياءً. صارت تشمئز من النظر إلى نفسها في المرآة، واستنتجت أنّ كلّ رجلٍ سيشعر بالشيء ذاته حين

يراها عارية. إنها تتذكّر تماماً اللحظة التي وعت فيها أنّ جسدها راح يتحوّل إلى عدوٍّ لها. قبل سنواتٍ، عندما عادَ فِليثيانو من رحلة تجارية طويلة إلى تشيلي، أخذها من خصرها وأراد أن يرفعها عن الأرضِ، بمزاجه الحسن دائماً، ليحملها إلى السرير، لكنّه لم يستطع تحريكها.

ـ ويحك، يا باولينا! هل في سروالك حجارة؟ ـ ضحك.

ـ إنّه شحم ـ تنهّدت بحزن.

ـ أريد أن أراه!

ـ ولا بشكلٍ من الأشكال. ومن الآن فصاعداً لن تستطيع المجيء إلى غرفتي إلاّ ليلاً والمصباح مطفأ.

مارس هذان الزوجان، اللذان أحبّ بعضهما بعضاً بلا حياءٍ، الحبَّ زمناً في الظلمة. وبقيت باولينا منيعة أمام توسلات وغضب زوجها، الذي لم يقتنع قط بلقائها تحت كومةِ الملاءات في عتمة الغرفة، ولا بمعانقتها بسرعة المبشِّر بينما هي تُمسِك بيديه كيلا يلمس لحمها. وكان الشدّ والرخيُ يتركهما منهكين، مستنفدي الأعصاب. أخيراً وبذريعة الانتقال إلى البيت الجديد في نوب هيل وضعت باولينا زوجها في الطرف الآخر من البيت، وأوصدت بابَ غرفتها. كان انزعاجها من جسدها ذاته يفوق الرغبة التي تشعر بها تجاه زوجها. اختفى عنقها خلفَ غَبَبِها المضاعف، وصار صدرها وكرشها بطنَ أسقفٍ وجيه، قدماها لا تقويان على حملها إلاّ لدقائق قليلة، ولا تستطيع أن ترتدي ملابسها، أو تشدّ أبازيم حذائها بمفردها. لكنّها شكّلت بثيابها الحريرية ومجوهراتها الرائعة، كما تظهر دائماً، مشهداً عجيباً. كان انشغالها الأعظم هو العرق بين ثنيات لحمها، وعادة ما تسألني هامسةً ما إذا كانت تصدر عنها رائحة كريهة، لكنّني لم أشمّ عندها قط غير رائحة الغاردينيا ومسحوق التالك. وبخلاف ما كان شائعاً جدّاً في ذلك الوقت من أنّ الماء والصابون يُتلفان القصبات الهوائية، فإنها كانت تقضي ساعاتٍ طافيةً في حوض حمّامها المعدني المطلي بالمينا، فتشعر من جديد أنها تعود بنفسها خفيفةً كما في شبابها. عشقت فِليثيانو

حين كان شابّاً وسيماً، طموحاً ومالكاً لبعض مناجم الفضّة في شمال تشيلي. تحدّت لأجل هذا الحبِّ غضبَ والدها، أغوستين دِل بالْيِه، الذي يرد اسمه في كتب تاريخ تشيلي المدرسية كمؤسّس لحزب يميني متطرّف ضئيل وبائس، واختفى منذ أكثر من عقدين، لكنّه يعودُ ليظهر بين حين وآخر مثل طائر عنقاء منتوف الريش مثير للشفقة. حبّها لهذا الرجل بالذات هو الذي ساعدها حين قرّرت منعه من دخولِ غرفةِ نومها وهي في عمرٍ كانت تطالبها طبيعتها فيه بالضمّ أكثر من أيّ وقت مضى. وعلى العكس منها كان فِليثيانو ينضجُ بملاحةٍ. صار شعره رمادياً، لكنّه بقي الرجل الضخم المرح، المولع والطائش. كانت باولينا تُحبّ مزاجه السوقي، فكرة أن يكون هذا الفارس صاحب الكنتين المسيحيتين الصارختين من أصلٍ يهوديّ، وتحت قمصانه الحريرية يلمع وشم فاسق ناله في الميناء أثناء إحدى سكراته. كانت تتشوّق لسماع البذاءات التي كان يهمس لها بها في أذنها حين كانا ما يزالان يتقلبان في السرير والمصابيح مضاءة، وكانت تدفع أيّ شيء مقابل أن تضع رأسها على ذلك التنين الأزرق المحفورِ بالحبر الذي لا يمّحي على كتف زوجها. لم يخطر لها أنّه هو أيضاً يرغب بالشيء ذاته. فهي بالنسبة إلى فِليثيانو دائماً الخطيبة الجسورة التي هرب معها في شبابه، المرأة الوحيدة التي يُعجب بها ويخافها. يخطر لي أنّ هذين الزوجين لم يتخليا قط عن حبّهما لبعضهما بعضاً، على الرغم من المشاجرات العاصفة التي كانت تجعل كلّ من في البيت يرتعد. فالعناقات التي جعلتهما في الماضي سعيدين، انقلبت إلى معارك تُتَوَّج بهدنات طويلة الأمد، وانتقامات لا تنسى، مثل السرير الفلورنسي، ومع ذلك ما من إهانة هدمت علاقتهما، وبقيا حتى النهاية، عندما سقط هو جريحاً حتى الموت نتيجة داء السكري، متحدين بتواطئٍ وَغْدَين يُحسدان عليه.

ما إن تأكّد القبطان جون سومّرز من أنّ قطعة الأثاثِ الأسطوريَّة صارت في العربة، وأن الحوذيّ يفهم تعليماته، حتى انطلق سيراً على قدميه إلى تشاياناتاون، كما كان يفعل في كلّ زيارة

له إلى سان فرانسيسكو. لكنّ عزمه هذه المرّة لم يكفِه فاضطُرّ بعد كوادرتين أن يستدعي عربةَ أجرة. ركب بجهدٍ، دلّ الحوذيّ على العنوان واستلقى في المقعد وهو يلهث. منذ عام بدأت الأعراض تظهر، لكنّها تفاقمت في الأسابيع الأخيرة، فساقاه لا تكادان تحملانه، ورأسه يمتلئ بالضباب، وكان عليه أن يصارع بلا هوادة ضدّ إغواء الاستسلام للامبالاة الهفهافة التي راحت تغزو روحَهُ. أخته روز كانت أوّل من نبّهته إلى أنّ شيئاً ما غير طبيعي يجري، حين لم يكن يشعر بعد بالألم. كان يُفكّر بها مبتسماً: إنّها أقرب وأحب الأشخاص إليه، فهي بوصلة حياته الترحالية، أكثر واقعية في عاطفتها من ابنته إليثا، أو أيّ من النساء اللواتي عانقهنّ في ترحاله الطويل من ميناء إلى ميناء.

كانت روز سومّرز قد قضت شبابها في تشيلي، إلى جانب أخيها الأكبر جِرمي، لكنّها عند موته، عادت إلى إنكلترا، كي تشيخ في بلدها الأصلي. كانت تُقيم في لندن، في بيتٍ صغير على مسافة قليلة من المسارح والأوبرا، وهو حي أَفْقَرَ قليلاً، تستطيع أن تعيش فيه على هواها اللذيذ. ما عادت حاملة مفاتيح أخيها جِرمي المهذّبة، وصار باستطاعتها الآن أن تُطلِقَ العنانَ لمزاجها الغريب. اعتادت أن ترتدي ملابسَ ممثّلة مفجوعةٍ، كي تشرب الشاي في السافوي، أو ثيابَ كونتيسةٍ روسيّةٍ كي تُنَزِّه كلبَها. كانت صديقة الشحاذين وموسيقيي الشوارع الجوالين، وتُنفِق أموالها على الترهات والصدقات. «ما مِنْ مُحَرِّر مثل العمر» كانت تقول لنفسها وهي تَعدُّ تجاعيدَها بسعادة؛ فيردّ عليها جون سومّرز: «ليس العمرُ يا أختُ، بل الحالة الاقتصادية التي أشدتِها بريشتكِ». فقد كوَّنتْ هذه العازبة المحترمة ذات الشعر الأبيض ثروةً صغيرةً من كتابة القصص الخلاعية. أكثر ما يُثير السخرية، كان يُفكّر القبطان، هو أنّ روز حين صارت لا تحتاج للتخفيّ كما حدث حين كانت تعيش في ظلّ أخيها جِرمي، فقد كفّت عن كتابة القصص الخلاعية، وتفرّغت لكتابة الروايات الرومانسية بإيقاعٍ خانق وبنجاح غير معهود. ما من امرأة لغتها الأم هي الإنكليزية، بمن فيهنّ الملكة

فيكتوريا، لم تقرأ على الأقل واحدة من قصص *السيّدة* روز سومّرز. اللقب المميّز لم يفعل شيئاً آخر، غير أنه أضفى شرعية على حالة كانت روز قد اقتنصتها منذ سنواتٍ. لو أنّ الملكة فيكتوريا شكّت بأنّ كاتبتها المفضّلة، التي منحتها شخصياً لقب *سيّدة*، مسؤولةٌ عن مجموعة واسعة من الأعمال الأدبية الفاحِشة الموقعة باسم *سيّدة مجهولة*، لأصيبت بالإغماء. كان القبطان يرى أن الأدب الخلاعي لذيذ، لكنّ روايات الحبّ هذه زبالة. وقد أخذ على عاتقه نشر وتوزيع قصص روز الممنوعة من خلف ظهر أخيه الكبير، الذي مات وهو مقتنع بأنّها آنسة فاضلة لا مهمّة لها غير أن تجعل الحياة لطيفة. «اعتنِ بنفسك، يا جون، فكّر أنّك لا تستطيع أن تتركني وحيدةً في هذا العالَم. أنت تَنْحَل ولونك غريب» هذا ما كرَّرته روز يومياً حين زارها القبطان في لندن. ومنذ ذلك الحين راح تحوّلٌ لا يرحمُ يُحوّله إلى ضبٍّ.

كان تاو شيين قد انتهى من نزع إبره من أذني وذراعي أحد المرضى حين أعلمه مساعده أنّ حَميه وصل. وضع *الزهونغ ـ يي* الإبر الذهبية في الكحول الخالص بعناية، غسل يديه في حوض، ثم ارتدى سترته وخرج لاستقبال الزائر، مستغرباً أنّ إليثا لم تُبلغه بأن والدها سيصل في ذلك اليوم. كلّ زيارة من زيارات القبطان سومّرز كانت تُثيرُ الشجون. فالأسرة تنتظره بلهفة، وخاصّة الطفلان اللذان لا يتعبان من النظر إلى الهدايا الغريبة، ومن سماع حكايات مسوخ البحر والقراصنة المالاويين من ذلك الجدّ العملاق. وكان القبطان بالنتيجة رجلاً طويلاً، قويَّ البنية، مدبوغ الجلدِ بملحِ البحار، خشن اللحية ، له صوت رعدٍ قوي وعينا رضيعٍ زرقاوان وبريئتان، لكنّ الرجل الذي رآه تاو شيين جالساً على كرسيّ كبير في العيادة كان من الضمور بحيث أنّه لاقى صعوبة في التعرّف عليه. سلّم عليه باحترام، فهو لم يتخلّص من عادة الانحناء أمامه على الطريقة الصينية. كان قد عرف جون سومّرز في شبابه، حين كان يعملُ طاهياً في سفينته. «أنا تُناديني بالسيّد، مفهوم، أيها الصيني؟» هذا ماأمره به في المرّة الأولى التي كلّمه فيها. آنذاك كان شعرُ الاثنين

أسودَ، فكّر تاو شيين وهو يشعر بوخزةٍ حزن أمام نذير الموت. انتصب الإنكليزي على قدميه، أعطاه يده وعانقه عناقاً قصيراً. تأكّد *الزهونغ* ـ يي الآن أنّه هو الأطول والأثقل.

ـ هل تعلم إليثا أنّك ستأتي اليوم يا سيّدي؟

ـ لا. أنت وأنا يجب أن نتكلّم على انفراد يا تاو. أنا أموت.

فهمَ *الزهونغ* ـ يي ذلك ما أن رآه. قاده إلى غرفة المعاينة دون أن ينطق بكلمة واحدة، وساعده هناك على خلع ملابسه والاستلقاء على سرير المعاينة. كان مظهر حميه العاري يثير الشفقة: الجلد سميك، وجاف، يميل إلى النحاسي، الأظافر صفراء، العينان محتقنتان بالدم، والبطن منتفخ. بدأ بالاستماع إلى دقات قلبه، ثم أخذ نبضه من رسغيه وعنقه وكعبيه كي يتأكّد مما كان يعرفه.

ـ كبدك ممزّق يا سيّدي، أمازلت تشرب؟

ـ لا تستطيع أن تطلب منّي الامتناع عن عادة العمر يا تاو. هل تعتقد أنّ باستطاعة أحدٍ أن يتحمّل مهنة البحار دون جرعة من حين لآخر؟

ابتسم تاو شيين. كان الإنكليزيُّ يشرب نصف زجاجة جِن في الأيام العادية، وزجاجة كاملة إذا كان هناك شيء يتطلّب الحزن أو الفرح، دون أن يبدو عليه أنه يتأثر أدنى تأثير، لا تشمّ عنده حتى رائحة المشروب، لأنّ التبغ القويَّ الرديء كان يملأ ثيابَهُ ونفَسَهُ.

ـ ثمّ إنّه تأخر الوقت كي أتوب، أليسَ كذلك؟ ـ أضاف جون سومّرز.

ـ تستطيع أن تعيش أكثر قليلاً وفي ظروفٍ أفضل إذا ما تركت المشروب. لماذا لا تأخذ استراحة؟ تعال لتعيش معنا مدّة معيّنة. وسنعتني بك أنا وإليثا حتى تتعافى ـ اقترح *الزهونغ* ـ يي دون أن ينظر إليه، كيلا ينتبه الآخر إلى تأثّره. كما حدث له مرّاتٍ كثيرة في مهنته كطبيب، كان عليه أن يُصارِعَ الإحساس بالعجز المريع الذي يُحاصره عادة حين يتأكّد كم هي قليلة إمكانات علمه، وكم هي هائلة معاناة الغير.

ـ كيف يخطر لك أنّني سأضع نفسي طوعاً بين يدي إليثا كي تحكم عليّ بالامتناع عن الشراب! كم بقي لي من العمر يا تاو؟ ـ سأل جون سومّرز.

ـ لا أستطيع أن أقول لك بالتأكيد كم. يجب أن آخذ رأيَ آخر.

ـ رأيك هو الوحيد الذي يستحقّ احترامي. فمنذ أن خلعت لي ضرساً في منتصف الطريق بين أندونيسيا والشاطئ الأفريقي، لم يضع طبيب يديه اللعينتين عليّ. كم مضى على ذلك؟

ـ قرابة الخمسة عشر عاماً. أشكرك على ثقتك يا سيّدي.

ـ فقط خمسة عشر عاماً؟ لماذا يبدو لي أنّنا نعرف بعضنا طوال حياتنا؟

ـ ربّما تعارفنا في حياةٍ أخرى.

ـ التقمّص يرعبني يا تاو. تصوّر أن يكون من نصيبي أن أصبح مسلماً في الحياة المقبلة. هل تعلم أنّ هؤلاء الناس البؤساء لا يشربون كحولاً؟

ـ بالتأكيد هذه هي كَرمَتهم. ففي كلّ حياة علينا أن ننهي ما لم نستطيع إنهاءه في الحياة السابقة ـ سخر تاو.

ـ أُفَضِّل الجحيمَ المسيحيَّ، إنّه أقلّ قسوة. حسناً، لن نقول لإليثا أيّ شيء من هذا. ـ ختم جون سومّرز بينما كان يرتدي ملابسه، مصارعاً الأزرار التي تملص من بين أصابعه المرتعشة ـ بما أنّ هذه الزيارة يمكن أن تكون آخر زيارة لي، فمن العدل أن تتذكّرني هي وحفيداي وأنا سعيد وسليم. سأذهبُ مطمئناً يا تاو، لأنّه لا يمكن أن يكون هناك من يعتني بإليثا بشكلٍ أفضل منك.

ـ لا أحد يستطيع أن يُحبّها مثلي يا سيّدي.

ـ حين لا أعود موجوداً يجب أن يكون هناك من يهتمّ بأختي. أنت تعلم أن روز كانت مثل أُمّ بالنسبة إلى إليثا...

ـ لا تهتمّ، فإليثا وأنا سوف نتابع أخبارها ـ أكّد له صهره.

ـ الموت... أعني... هل سيكون سريعاً وبكرامة؟ كيف سأعرف عندما تصل النهاية؟

ـ حين تتقيّأ دماً يا سيّدي ـ قال تاو شيين بحزن.

حدث هذا بعد ثلاثة أسابيع، وسطَ المحيط الهادي، في خلوة غرفة القبطان. لم يكد البحار العجوز ينتصب على قدميه حتى نظّف وجهه من القيء، تمضمض، بدّل قميصه الملطخ بالدم، أشعل غليونه وذهب إلى قيدوم السفينة، حيث وقف لينظر لآخر مرّةٍ إلى النجوم المتلألئة في السماء المخملية السوداء. رآه عدد من البحارة وانتظروه عن بعد وقبّعاتهم في أيديهم. حين انتهى التبغُ مرّرَ القبطانُ جون سومّرز ساقيه فوق حافة السفينة، وترك نفسه يسقط في البحر دون ضجيج.

تعرَّفَ سِبِرو دِل بالْيِه على لين سومّرز خلال رحلةٍ قام بها مع أبيه من تشيلي إلى كاليفورنيا في العام 1872، لزيارة عمّته باولينا وزوجها فِليثيانو، اللذين كانا بَطَليْ أفضل الأقاويل في الأسرة. كان سِبِرو قد التقى عمّته باولينا مرّتين خلال زياراتها المتفرّقة إلى بالبارايسو، لكنّه لم يفهم زفرات اللاتسامح المسيحي في أسرته إلى أن عرفها في جوّها الأمريكي الشمالي. فبعيداً عن الجوِّ الديني والمحافظ في تشيلي، وعن الجد أغوستين المغروز في كرسيّ شلله، وعن الجدّة إميليا بتطريزها المحزن وحقن بزر الكتّان، وعن بقيّة أقربائه الحسودين والأتقياء، كانت باولينا تدرك أبعاد أمازونيتها الحقيقية. في الرحلة الأولى كان سِبِرو دِل بالْيِه فتيّاً جدّاً كي يقيس قوّةَ أو ثروةَ هذا الزوج من الأعمام المشهورين، لكن لم تفته الفروقات بينهما وبين بقية قبيلة دِل بالْيِه. لكنه بعد عام من عودته فهم أنّهم يُعدّون من بين أغنى عائلات سان فرانسيسكو، إلى جانب أقطاب الفضّة، والسكك الحديدية، والبنوك والنقل. في تلك الرحلة الأولى وهو في الخامسة عشرة من عمره بينما كان يجلس عند حافّة سرير عمّته باولينا، المطلي بالمينا، وبينما هي تضع خطةَ استراتيجيّةِ حروبِها التجارية، قرّر سِبِرو مستقبلَ نفسه.

ـ عليك أن تُصبح محامياً، كي تُساعِدني في سحق أعدائي على أكمل وجه ـ نصحته باولينا، بين قضمتين من حلوى الفطائر وحلوى الحليب.

ـ بلى يا عمّتي. يقول الجدّ أغوستين إنّه في كلّ أسرة محترمة هناك حاجة لمحامٍ وطبيب وأسقف ـ ردّ ابن الأخ.

ـ أيضاً بحاجة إلى دماغٍ للتجارة.

ـ يعتبر الجدُّ أنّ التجارة ليست مهنة أبناء الحَسَبَ.

ـ قُل له إنّ الحَسَب لا يُطعِم، وليضعَهُ في مؤخرته.

لم يكن الفتى قد سمع هذه الكلمة الرذيلة إلا من فم سائقِ عربةِ البيت، ذلك المدريدي الهارب من سجن تِنِريف، الذي كان لأسبابٍ غامضة يتغوّط على الربّ والحليب.

ـ دعكَ من التدلل يا ولد، فجميعنا نملك مؤخرات! ـ هتفت باولينا وقد ماتت من الضحك حين رأت تعبير وجه ابن أخيها.

في ذلك المساء ذاته حملته إلى محل حلويات إليثا سومّرز. كانت سان فرانسيسكو قد بهرت سِبِرو حين لمحها من الباخرة: مدينة مشرقة قائمة في مشهد أخضر من الهضاب المزروعة بالأشجار التي تهبط متماوجةً حتى حافّة خليجٍ هادئ المياه. من بعيد كانت تبدو صارمة، بالمخطط الإسباني لشوارعها المتوازية والمتقاطعة، إلاّ أنّه كان لها عن قربٍ سحرُ الشيءِ غير المتوّقع. ذُهِل الفتى المعتاد على مظهر ميناء بالبارايسو الناعس، التيَ ترعرع فيها أمام وفرة البيوت والأبنية المتنوّعة الطراز، الترف والفقر، والمختلطة كما لو أنّها أشيدت على عجل. رأى جواداً ميتاً يعلوه الذباب أمام باب مخزن أنيق تعرض فيه كمنجات وبيانوهات كبيرة. حشود متنوّعة الأعراق تشقّ طريقَها بين حركة الحيوانات والعربات الصاخبة: أمريكيون، هيسبانيون، فرنسيون، إيرلنديون، إيطاليون، ألمان، وبعض الهنود والزنوج، العبيد سابقاً والأحرار الآن، والمرفوضين والفقراء دائماً. قاموا بجولة في تشاياناتاون، وبلمح البصر وجدوا أنفسهم في بلدٍ مسكون بـ *السماويين*، كما كانوا

يُسمّون الصينيين الذين يُبعدُهم سائق العربة بفرقعةِ سوطِهِ، بينما يسوق الحنتورَ إلى ساحة الوحدة. توقّف أمام بيت من الطراز الفيكتوري، بسيط إذا ما قورِن بهذيانات الزخارف والحَفْرِ البارز والحلي المعمارية التي تُرى عادةً في هذه النواحي.

ـ هذا هو صالون شاي السيّدة سومّرز، الوحيد في هذه النواحي ـ وضّحت باولينا ـ. تستطيع أن تتناول القهوة أينما شئت، لكنّ من أجل كأسٍ من الشاي؛ عليك أن تأتي إلى هنا. اليانكيون يكرهون هذا المشروب النبيل منذ حرب الاستقلال، وقد بدأ ذلك حين أحرق المتمردون شايَ الإنكليز في بوسطن.

ـ لكن ألم تمضِ قرابة القرن على هذا؟

ـ هأنتَ ترى يا سِبِرو مدى التفاهة التي يسببها التعصب للوطن أحياناً.

لم يكن سبب زياراتِ باولينا المتكرّرة إلى تلك القاعة هو الشاي، بل محل حلويات إليثا سومّرز الشهير، الذي كان يغمرُ الداخلَ إليه برائحةٍ رائعةٍ من سكّرٍ وفانيلا. كان البيت، المستورد مثل الكثير من البيوت مع دفتر تعليماتٍ لتركيبه من إنكلترا، مثل أيام سان فرانسيسكو الأولى، مؤلفاً من طابقين متوّجين ببرج يُضفي عليه مسحةَ كنيسةٍ ريفية. فتحوا في الطابق الأول بين غرفتين لتوسيع قاعة الطعام، وكان هناك عدد من الكراسي الكبيرة ذات الأرجل المفتولة، وخمس طاولات مستديرة وصغيرة عليها أغطية بيضاء. في الطابق الثاني كانت تُباع علب سكاكر مصنوعة يدوياً من أفضل أنواع الشوكولا البلجيكية، وحلوى اللوز بالسكّر وعدة أنواعٍ من الحلوى الأوروبية الأصل في تشيلي، المفضلة عند باولينا دِل بالْيه. وتعمل هناك مستخدمتان مكسيكيتان طويلتا الضفائر، شديدتا بياض المريول وغطاء الرأس المنشّا، توجّههما بالتخاطر السيّدة الصغيرة سومّرز، التي لا يكادُ يُحَسُّ بوجودها بعكس حضور باولينا القوي. كانت موضة الزنار والفساتين الواسعة المموجة تليق بالأولى بينما تُضاعف من حجم الثانية، ثمّ إنّ باولينا دِل بالْيه لم تكن توفّر في القماش، والحواشي وخصل الصوف والكشكش. وهي

تمضي في ذلك اليوم مزيّنة مثل ملكة النحل، بالأصفر والأسود من رأسها وحتى قدميها، مع قبّعة تنتهي بريش وصدارة مقلّمة. كانت تغزو القاعة، فتبتلع كامل الهواء وترتجُّ الفناجين مع كلّ نقلةٍ، وتئنُّ جدرانُ الخشبِ الهشّة. حين رأتها الخادمات تدخل هُرِعن إلى استبدال واحدةٍ من كراسي الخيزران بكرسيٍّ أكثر تماسكاً، تكيّفت فيها السيّدة بظرافةٍ. كانت تتحرّك بحذرٍ، لأنّها تعتبر أنّه ما من شيء يُعيبُ مثل السرعة؛ كما كانت تتفادى صخبَ الشيخوخة، فهي لم تسمح قط أن يفلت منها لهاثٌ، سعالٌ، طقطقةٌ، أو زفرات تعبٍ في العلن؛ تقولُ: «لا أريد أن يكون لي صوت بدينة» وتتمضمضُ يوميّاً بعصير الليمون مع العسل كي تُحافِظ على نعومة صوتها. إليثا سومّرز، الرقيقة والمستقيمة مثل سيف، بتنورتها الزرقاء الداكنة وبلوزتها البطيخيةِ اللون المزررة عند الرسغين والعنق مع طوق لؤلؤ محتشم يشكّلُ زينتها الوحيدة، تبدو شابّة بشكل ملحوظ. تتكلّم إسبانيةً صدئةً من قلّة الاستخدام، وإنكليزيةً بلكنة بريطانيةٍ، قافزةً من لغة إلى أخرى في الجملة الواحدة، تماماً كما كانت تفعل باولينا. ثروة السيّدة دِل بالْيه ودمها الأرستقراطيّ كانا يضعانها في مستوى اجتماعي أرقى بكثير من الأخرى. إنّ امرأة تعمل برغبةٍ منها لا يمكن أن تكون إلاّ مسترجلة، لكنَّ باولينا تعرف أن إليثا ما عادت تنتمي إلى الوسط الذي ترعرعت فيه في تشيلي ولا تعمل برغبة منها، بل بدافع الحاجة. وقد سمعت أنّها تعيش مع صيني، لكنّ طيشها الماحِق لم يصل قط حدّ أن تسألها عن ذلك بشكل مباشِر.

ـ تعارفنا أنا والسيدة إليثا سومّرز في تشيلي عام 1840؛ كانت في الثامنة وأنا في السادسة عشرة من عمري، لكنّنا الآن في عمر واحد ـ وضّحت باولينا لابن أخيها.

بينما كانت المستخدمات يُقدّمن الشايَ، كانت إليثا سومّرز تُصغي إلى ثرثرة باولينا التي لا تكاد تنقطع إلا لتلتهم لقمة أخرى. نسيهما سِبرو حين اكتشف على طاولة أخرى فتاةً رائعة تلصِق صوراً مطبوعةً في ألبوم على ضوء مصابيح الغاز وسطوع زجاج النافذة الناعم، الذي كان يُضيؤها بوميض ذهبي. إنها لين سومّرز،

ابنة إليثا، المخلوقة ذات الجمال النادرِ الذي حمل بعضَ مصوّري المدينةِ آنذاك على أن يستخدموها موديلاً؛ وصار وجهها يشغل بطاقات البريد، وملصقات وتقويمات ملائكة وحوريات لعوبات في غابات من حجارة كرتونية وهي تعزف على القيثار. كان سِبِرو مايزال في عمرِ البناتُ فيه لغز يكادُ يكون منفّراً بالنسبة للفتيان. لكنّه استسلم للفتنة؛ تأملها، وقف بجانبها فاغرَ الفم دون أن يدري لماذا يؤلمه صدره ويشعر برغبة بالبكاء. أخرجته إليثا سومّرز من حرجه داعيةً الجميع لتناول الشوكولاتة. أغلقت الصغيرة ألبومها دون أن توليه انتباهاً، كما لو أنّها لم تره ونهضت رشيقة طافية. جلست أمام فنجان شوكولاتة دون أن تلفظ كلمةً أو ترفع نظرةً، مذعنة لنظرات الفتى الوقحة، الواعي تماماً إلى أنّ مظهرها يفصلها عن بقيّة البشر. كانت تحمل جمالها كما لو أنّه عاهة، آملةً في سرّها أن تزول مع الزمن.

بعد أسابيع أبحر سِبِرو عائداً مع والده إلى تشيلي، حاملاً في ذاكرته اتساع كاليفورنيا، ورؤيا لين سومّرز مغروزة بثبات في قلبه.

لم يعد سِبِرو دِل بالْيِه لرؤية لين إلا بعد سنوات عديدة. فقد رجع إلى كاليفورنيا في نهاية عام 1876 ليعيش مع عمّته باولينا، لكنّه لم يبدأ علاقته مع لين إلا ذات أربعاء من شتاء 1879، وكان الوقت قد تأخّر عليهما معاً. في زيارته الثانية لسان فرانسيسكو، كان الشابُ قد بلغَ طولَه النهائي، لكنّه ما يزال ناشز العظام، شاحباً، غير رشيقٍ في مشيته، ويمضي غير مرتاح في جلده، تفيضُ عنه مرافقٌ وركبٌ. بعد ثلاثة أعوام حين تسمّر أمام لين بلا صوت، كان قد أصبح رجلاً كامل الرجولةٌ، له تقاسيم أسلافه الإسبانية النبيلة، وبنية مصارع ثيرانٍ أندلسي مرنة، وصبغة طالب لاهوت نسكية. لقد تغيّرت حياته كثيراً منذ أنِ رأى لين لأوّل مرّة. صورة تلك الفتاة الصموتة، التي لها كسل قطٍ مسترخٍ، رافقته خلال سنوات المراهقة، وآلام الحداد الصعبة. فوالده الذي كان يعبده مات مبكّراً في تشيلي، وأمّه المحتارة أمام ابنها الذي كان ما يزال أمردَ، إلاّ أنّه نافذ

البصيرة وقليل التوقير، أرسلته إلى مدرسة كاثوليكية في سانتياغو. لكنهم سرعان ما أعادوه إلى البيت مع رسالة تبيّن بعبارات فظّة أنّ تفاحةً فاسدة في برميلٍ تُفسِد ما عداها، أو شيئاً من هذا القبيل. وعند ذلك قامت الأمُّ المتفانية برحلة حجٍّ على ركبتيها إلى مغارة للمعجزات، حيث وشت لها العذراء، البارعة دائماً، بالحلّ: أن ترسله إلى الخدمة العسكرية كي يأخذ رقيبٌ مسألته على عاتقه. قضى سِبِرو عاماً مع القوّات، تحمّل الصرامةَ وتفاهةَ الفرقة، وخرج برتبة ضابط احتياط، عازماً على ألاّ يقترب في حياته من ثكنة أبداً. ولم يكد يضع قدمَه في الشارع حتى عاد إلى صداقاته القديمة وإلى نزوة استعداده التصعلكي. في هذه المرّة لعب أعمامه دوراً في العملية. اجتمعوا في مجلس في غرفة طعام بيت الجد أغوستين، بغياب الشاب وأمّه، اللذين لم يكن لهما صوت على الطاولة البطريركية. في هذه الغرفة ذاتها، وقبل خمس وثلاثين سنة، تحدّت باولينا دِل بالْيِه برأسها الحليق الذي تعلوه عمامة من الماس رجالَ أسرتها لتتزوّج من فِليثيانو رودريغِثْ دِ سانتا كروث، الرجل الذي اختارته هي. هناك يُقدّمون الآن البراهين ضدّ سِبِرو أمام الجدّ : يرفض الاعتراف وتناول الخبز المقدّس، يخرج مع بوهيميين، واكتشفت في حوزته كتباً تنتمي إلى اللائحة السوداء؛ وبكلمات مختصرة، كانوا يشكّون بأنّه قد جُنّد من قبل الماسونية، أو ما هو أسوأ من ذلك من قِبلِ الليبراليين. كانت تشيلي تمرّ في مرحلة من الصراع الإيديولوجي الذي لا يعرف المصالحة، وكلّما اكتسب الليبراليون مواقعَ أكثر في الحكومة، ازداد غضب المحافظين المتطرفين المشبعين بحماس الخلاص، مثل آل دِل بالْيِه، الذين كانوا يريدون أن يفرضوا أفكارهم بالحرمان والرصاص، وسحق الماسونيين والمعادين للإكليروسية، والقضاء مرّةً واحدة وإلى الأبد على الليبراليين. لم يكن آل دِل بالْيِه مستعدين للتسامح مع خارجي ينتمي إلى دمهم وفي حضن الأسرة ذاتها. فكرة إرساله إلى الولايات المتحدة كانت فكرة جدّه أغوستين: «اليانكيون سوف يشفونه من رغبته بإثارة الشغب» تكهّن. أركبوه بالسفينة إلى كاليفورنيا، دون أن يأخذوا رأيه، وهو في لباس الحِداد وساعة المرحوم والده الذهبية في جيب صدارته،

ومتاعٍ عادي يتضمن مسيحاً ضخماً متوّجاً بالشوك، ورسالة مختومة لعمّته باولينا وفِليثيانو.

كانت احتجاجات سِبرو شكليّة خالصة، لأنّ هذه الرحلة تنطبق تماماً مع مُخطّطاته، ما كان يثقِل عليه هو فقط ابتعاده عن نيبيا، التي كان الجميع يرغب بزواجه منها ذات يوم، حسب عادة زواج أولاد العمومة عند الأوليغارشية التشيلية الحاكمة. كان يختنق في تشيلي. فقد كبر أسيرَ ورطة من العقائد والأفكار المسبقة، لكنّ احتكاكه مع طلاب آخرين في مدرسة سانتياغو فتح مخيّلته وأيقظ عنده حماساً وطنيّاً. كان حتى ذلك الوقت يعتقد أنّه لا يوجد إلا طبقتين اجتماعيتين. طبقته وطبقة الفقراء، تفصل بينهما منطقة رمادية مبهمة من الموظفين وآخرين «من تشيليي الكومة»، كما كان يُسميهم جدّه أغوستين . انتبه في الثكنة إلى أنّ أبناء طبقته، من ذوي البشرة البيضاء والقوّة الاقتصادية، لا يكادون يتجاوزن حفنة ضئيلة؛ والغالبية العظمى كانت من الخلاسيين والفقراء، لكنّه اكتشف أنّ في سانتياغو طبقة وسطى مقتدرة وكبيرة، مهذّبة وتملك طموحاتٍ سياسيّةً، وتُشكّل في الحقيقة العمودَ الفقريَّ للبلد، حيث يوجد بينهم مهاجرون هاربون من الحروب والبؤس، وعلماء ومربون وفلاسفة وأصحاب مكتبات، أناس عندهم أفكار متقدّمة. ذهل من خطاب أصدقائه الجدد، كمن يعشق لأوّل مرّة. أراد أن يغيّر تشيلي، أن يقلبها تماماً، أن يطهرها. اقتنع بأنّ المحافظين ـ باستثناء أبناء أسرته، الذين لم يكونوا يتصرّفون على مرأى منه بخبثٍ بل بخطأ ـ كانوا ينتمون إلى جيوش الشيطان، هذا إذا افترضنا أنّ الشيطانَ ليس بدعة غريبة، وتهيّأ للمشاركة في السياسة ما إن استطاع تقريباً أن يحقّق استقلاله. كان يعي أنّه ما زالت تنقصه سنوات، ولذلك اعتبر سفره إلى الولايات المتحدة مثل نسمة هواء منعش؛ يستطيع أن يرى ديمقراطية الأمريكيين الشماليين التي يُحسدون عليها، يتعلّم منها، يقرأ ما يخطر له دون أن ينشغل بالرقابة الكاثوليكية، ويطّلع في تطورات الحداثة. فبينما نجد أنّهم في بقية أنحاء العالم يُطيحُون بملكيّاتٍ، وينشئون دولاً جديدة،

ويستعمرون قارات، ويخترعون أعاجيبَ، نجد أنّ البرلمان في تشيلي يُناقِشُ حقّ الزاني في أن يُقبر في مقابر خصوصية. لم يكن مسموحاً ذِكرُ نظريةِ داروين التي ثوّرت المعرفة الإنسانية، أمام جدّه، بينما يمكن إضاعة مساءٍ في نقاش حول المعجزات غير المحتملة لقديسين وشهداء كنسيين. والباعث الآخر على السفر كان ذكرى الصغيرة لين سومّرز، التي تخترق بإلحاحٍ ساحق ودَّه لنيبيا على الرغم من أنّه لا يريد أن يقبل ذلك، ولا حتىً في أعماق أعماقِ روحه.

لم يعرف سِبِرو دِل باليه متى ولا كيفَ انبثقت فكرة زواجه من نيبيا، ربّما لم يقرّراه هما، بل الأسرة، لكن أحداً منهما لم يتمرّد على هذا المصير، لأنّهما كانا يعرفان بعضهما بعضاً منذ الطفولة. كانت نيبيا تنتسب إلى فرعٍ من الأسرة أثري حين كان الوالد حيّاً، لكنّه حين مات أُفقِرت الأرملة. ساعد خالُ ميسور، سيصبح في زمن الحرب شخصية بارزة، هو دون فرانسيسكو خوسيه بِرغارا، على تربية أبناء أخته. «ليس هناك من فقر أسوأ من فقر الأثرياء المفلسين، لأنّ عليهم أن يتظاهروا بما لا يملكون» هذا ما اعترفت به نيبيا لابن عمّها سِبِرو في لحظة من لحظات الإشراق المفاجئ التي تميزّت بها. كانت أصغر منه بأربع سنواتٍ، لكنّها أكثر نضجاً منه؛ هي من حدّدت صبغةَ هذا الود الطفولي، قائدة إيّاه بيد راسخةٍ إلى العلاقة الرومانسية التي كانا يتقاسمانها عندما غادر سِبِرو إلى الولايات المتحدة. في البيوت الكبيرة التي جرت فيها حياتهما، فاضت عنهما الزوايا المناسبة لتبادل الحب. بالتلامس في الظلال اكتشف ابنا العمومة ببلاهة الجِراء أسرارَ جسديهما. كان يدغدغ الواحد منها الآخر لمجرد الفضول، مستقصياً عن الفروقات، دون أن يدري لماذا يملك هو هذا وتملك هي ذاك، مذعورين من الخجل والذنب، كانا صامتين دائماً، لأنّ ما لم يصيغاه بالكلمات كان كأنّه لم يحدث، وأقّل خطيئة. يكتشف الواحدُ منهما الآخر سريعاً وخائفاً، وواعياً أنّه لا يمكن أن يعترفا بلعب ابني العمومة ذاك ولا في المعترَف، حتى ولو أدينا به بالجحيم. كانت هناك ألف عين تتجسّس

عليهما. الخادمات المسنات اللواتي شهدن ولادتهما حَمَيْن ذلك الحبّ البريء، لكنّ العمات أو الخالات العوانس كنّ يسهرن مثل الغربان، وما من شيء يهرب من عيونهنّ التي كانت مهمتها الوحيدة تسجيل كلّ لحظة من حياة الأسرة، وعلى تلك الألسنة النمامة التي تنشرُ الأسرار، وتسنّ القيل والقال، وإن كان دائماً في حضن العشيرة، ما من شيء يخرج خارج جدران تلك البيوت. فواجب الجميع الأوّل هو الحفاظ على شرف واسم الأسرة الطيّب. كبرت نيبيا متأخرةً، وبقيت حتى الخامسة عشرة من عمرها تقريباً تملك جسمَ طفلةٍ ووجهاً بريئاً، ما من شيء في مظهرها يوحي بقوّة عزيمتها: قصيرة القامة، بدينة قليلاً، عيناها واسعتان وداكنتان، كعلامة جديرة بالذكر، تبدو تافهة حتى تفتح فمها. وبينما أخواتها يكسبن السماء بقراءة كتب الورع، كانت هي تقرأ خفيةً المقالات والكتب التي يمرّرها إليها ابن عمّها سِبِرو من تحت الطاولة والكتب الكلاسيكية التي يعيرها لها خالها خوسيه فرانسيسكو بِرغارا. حين لم يكن هناك من يتكلّم عن هذا في وسطها الاجتماعي، أخرجت هي من كمّها فكرة حق المرأة بالتصويت. أحدثت انفجاراً مرعباً في أوّل مرّة ذكرت ذلك على طاولة غداء الأسرة، في بيت دون أغوستين دِل بالْيه. «متى ستنتخب النساء والفقراء في هذا البلد؟» سألت نيبيا بغتةً دون أن تتذكّر أن الصغارَ لا يفتحون أفواههم بحضور الكبار. ضرب البطريرك العجوز دِل بالْيه بقبضته ضربة على الطاولة جعلت الكؤوس تطير، وأمرها أن تذهب على الفور إلى الاعتراف. نفّذت نيبيا التوبةَ المفروضةَ من الراهب بصمتٍ، وسجّلت في يومياتها، بحماسها المعتاد، أنّها لا تفكّر بالراحة إلى أن تحقّق بعض الحقوق الأساسية للنساء، حتى لو طردوها من الأسرة. حالفها الحظّ بمعلّمة استثنائية هي الأخت ماريّا إسكابولاريو، الراهبة التي كان لها قلب لبؤة مختبئ تحت الزيّ، وكانت قد لاحظت ذكاء نيبيا. أمام هذه الفتاة التي كانت تمتصُّ كلّ شيء بنهم، وتطرحُ ما لم تطرحه هي نفسها قط، وتتحدّاها بعقلانية غير متوقّعة بالنسبة لعمرها، وكأنّها على وشك أن تنفجر حيويّةً وصحّةً داخل لباسها الموحّد المريع، كانت الراهبة تشعر بأنّها كوفئت كمعلّمة. فنيبيا تُعادِلُ وحدها

الجهد الذي بذلته في تعليم حشد من الصغيرات الثريات بالمال، والفقيرات بالعقل. وحبّاً بها راحت الأخت ماريّا إسكابولاريو تخترق بانتظام نظامَ المدرسة، الذي وُضِع بهدفٍ مُحدَّدٍ هو تحويل التلميذات إلى مخلوقاتٍ وديعة. كانت تُقيم معها حواراتٍ لو سمعت بها الأم المشرفة والمدير الروحي للمدرسة لأرعبتهما.

ـ حين كنتُ في سنّك لم يكن أمامي إلاّ خياران: الزواج أو الدخول إلى الدير ـ قالت الأخت ماريّا إسكابولاريو.

ـ ولماذا اخترت الثاني يا أمّاه؟

ـ لأنّه يمنحني الحريّة. فالمسيحُ زوجٌ متسامِح...

ـ نحن النساء منكوداتٍ يا أمّاه. إنجاب وطاعة لا غير ـ تنهّدت نيبيا.

ـ يجب ألاّ يكون كذلك. أنتِ تستطيعين أن تُبدّلي الأشياء ـ ردّت الراهبة.

ـ أنا وحدي؟

ـ وحدك لا . هناك فتيات مثلك، عريضات الجبين. قرأتُ في صحيفةٍ أنّ هناك الآن بعض النساء طبيبات، تصوّري.

ـ أين؟

ـ في إنكلترا.

ـ هذا بلدٌ بعيد جدّاً.

ـ صحيح، لكن إذا كان باستطاعتهنّ أن يفعلن ذلك هناك، سيأتي يوم يستطعن أن يفعلنه في تشيلي. لا تقنطي يا نيبيا.

ـ كاهن الاعتراف يقول إنّني أُفكّر كثيراً وأصلي قليلاً يا أمّاه.

ـ اللهُ منحك الدماغَ كي تستخدميه، لكنّني أنبّهك إلى أنّ طريقَ التمرّد مزروع بالأخطار والآلام، والسير فيه يحتاج إلى كثير من الشجاعة. وليس كثيراً أن تطلبي من العناية الإلهية أن تُساعِدك قليلاً... ـ نصحتها الأخت ماريّا إسكابولاريو.

بلغ تصميم نيبيا من الثبات حدَّ الكتابة في دفتر يومياتها بأنّها سترفض الزواجَ كي تتفرّغ تماماً للنضال من أجل حقّ المرأة في الانتخاب. كانت تجهل أنّ مثل هذه التضحية ليست ضرورية، ذلك أنّها ستتزوّج عن حب من رجلٍ سيساعدها في تحقيق أهدافها السياسية.

صعد سِبِرو إلى السفينة بوجه متجَهِّم كيلا ينتبه أقرباؤه إلى أنّه سعيد لذهابه من تشيلي ـ فيغيّروا رأيهمْ ـ وتهيّأ كي يخرج بأكبر فائدة ممكنة من هذه المغامرة. ودّع ابنة عمّه نيبيا بقبلةٍ مسروقة، بعد أن أقسم لها بأن يُرسِل إليها كتباً مهمّةً بواسطة صديق، تفادياً لرقابة الأسرة، ويكتب لها أسبوعيّاً. أذعنت هي لفراقِ عام واحِدٍ، دون أن تنتبه إلى أنّه خطّط للبقاء في الولايات المتحدة أطولَ زمنٍ ممكن. لم يشأ سِبِرو أن يزيدَ من مرارة الوداع بالإعلان عن أهدافه، فقرّر أن يوضّح الأمر لِنيبيا في رسالة لاحقة. في جميع الأحوال كلاهما صغيرين جدّاً على الزواج. رآها واقفة في ميناء بالبارايسو، تحيط بها بقيّة الأسرة، بفستانها وقبّعتها الزيتونية اللون، تلوِّح له بيدها مودّعةً، ومبتسمةً بشقّ النفس. «لا تبكي، ولا تشكو، لذلك أُحِبّها، لذلك سأحبُّها» قال سِبِرو بصوت عالٍ معاكس للريح، مستعداً أن ينتصر بالعنادِ على نزواتِ قلبه وإغواءات العالم. «يا قدّيسة، ياعذراء، أعيديه إليَّ سالماً معافى»، توسّلت نيبيا، وهي تعضُّ على شفتيها، دون أن تتذكّرَ أبداً أنّها أقسمت على البقاء بلا زواج حتى تُحقِّق واجبها في التصويت.

تلمّس الشاب دِل بالْيه رسالةَ جدّه أغوستين من بالبارايسو وحتى بنما، متلهِّفاً لفتحها، لكن دون أن يجرؤ على فعل ذلك، لأنّهم لقّموه بالدم والنار أنّه ما من فارس يضع عينه على رسالةٍ، أو يمدّ يده إلى مالٍ يخص غيره. أخيراً كان الفضولُ أقوى من الشرف ـ فالأمر يتعلّق بمصيره، كما فكّر ـ وكسر الخاتم بموسى الحلاقة بحذرٍ، ثمّ عرَّض الظرف لبخار إبريق شاي، وفتحه بألفِ حيطةٍ. وهكذا اكتشف أنّ مخططات الجدّ كانت تتضمّنُ إرساله إلى مدرسةٍ

عسكريّةٍ أمريكية شمالية. من المؤسِفِ، أضافَ الجدُّ، أنّ تشيلي ليست في حربٍ مع أحد البلدان المجاورة، كي يصبح حفيده رجلاً سلاحه في يده، كما يجب أن يكون. ألقى سِبِرو الرسالةَ إلى البحر وكتبَ أخرى بكلماتٍ له، وضعها داخل الظرف ذاته، وسكب صمغاً ذائباً على الخاتم المكسور. في سان فرانسيسكو كانت تنتظره عمّته باولينا في الميناء يرافقها خادمان ووليامز، رئيس خدمها النفاج. كانت مزينة بقبّعة مريعة، ووفرة من الأوشحة المتطايرة في الريح، بحيث إنّها لو لم تكن بذلك الوزن لرفعتها في الهواء. راحت تضحك مقهقهةً حين رأت ابن أخيها يهبط معبر السفينة والمسيح بين ذراعيه. ثمّ ضمّته إلى صدرها الندىّ، كصدر مغنية سوبرانو، خانقة إيّاه في جبل ثدييها وعطر غارديناها.

ـ أوّل ما علينا أن نفعله هو التخلّص من هذه الفظاعة ـ قالت مشيرة إلى المسيح ـ كما أنّ علينا أن نشتري لك ثياباً، لأنّه ما من أحد يمضي بمثل هذه الهيئة في هذه البلاد ـ أضافت.

ـ هذا الطقمُ كان لوالدي ـ وضّح سِبِرو مذلولاً.

ـ يُلاحظ ذلك، تبدو حفار قبور ـ علّقت باولينا، ولم تكد تقول ذلك؛ حتى تذكّرت أنه لم يمضِ زمن طويل على فقدانِ الولد لأبيه ـ اعذرني يا سِبِرو، لم أشَأ إهانتَك. فأبوك كان أخي المُفضَّل، الوحيد في الأسرة الذي يمكن التكلم معه.

ـ طبّقوا بعض أطقمه على مقاسي، كيلا نخسرها ـ وضّح سِبِرو بصوتٍ متهدّج.

ـ بدأنا بداية سيّئة. هل تستطيع أن تعذرني؟

ـ حسناً يا عمّتي.

في أوّل فرصة أتيحت له،أعطاها الشابُ رسالةَ جدِّه أغوستين المُزيّفة. ألقت عليها نظرة شبه شاردة.

ـ ماذا كانت تقول الأخرى ـ سألت.

بأذنين محمرّتين حاول سِبِرو أن يُنكِرَ ما فعله، لكنّها لم تمنحه الوقت كي يتورّط في الكذب.

ـ أنا كنتُ سأفعلُ الشيءَ ذاته. أريدُ أن أعرف ما كانت تقول رسالةُ أبي كي أردَّ عليه، لا لأعمل برأيه.

ـ أن تُرسليني إلى مدرسة عسكرية أو إلى الحرب، إذا كان يوجد حرب ما في هذه المناطِق.

ـ وصلتَ متأخراً، كانت موجودة. لكنّهم، في حال أنّ الأمر يهمّك، يذبحون الهنودَ الحمر الآن. ولا يدافع الهنود الحمرُ عن أنفسهم بشكلٍ سيّئ؛ تصوّر أنهم قتلوا للتو الجنرال كوسْتِرْ، وأكثر من مئتي جنديّ من جيش الخيّالة السابع في وايومينغ. ولا يتكلّمون الآن عن أي شيءٍ آخر. يقولون إنَّ هنديّاً أحمر اسمه *مطر على الوجه*، انظر كم هو اسم شاعري، قد أقسم أن ينتقِم لأخيه من الجنرال كوْسْتِرْ، وأنّه انتزع في هذه المعركة قلبه وأكله. أمازلت راغباً في أن تُصبِح جندياً؟ ـ قالت باولينا دِل بالْيِه، وهي تضحك في داخلها.

ـ لم أرغب قط أن أصبح عسكرياً، هذه أفكار الجدّ أغوستين.

ـ تقول في الرسالة التي زيّفتها إنّك تريد أن تُصبح مُحامياً، أرى أنّ النصيحة التي أسديتُها إليك منذ سنوات مضت لم تذهب في الفراغ. هكذا تعجبني يا صغيري. القوانين الأمريكية ليست مثل التشيلية، لكن ليس لهذا أهمية. ستُصبِحُ مُحامياً. ستدخل متدرّباً عند أفضل مكتب في كاليفورنيا، يجب أن تفيد تأثيراتي في شيء ـ أكّدت باولينا.

ـ سأكون مديناً لكِ بقيّة حياتي ياعمتي ـ قال سِبِرو مندهشاً.

ـ صحيح. آمل ألاّ تنسى ذلك، اعلم أنّ الحياة طويلة ولا أحد يدري متى سأحتاج أن أطلبَ منك معروفاً.

ـ اعتمدي عليّ ياعمّتي.

مثلت باولينا دِل بالْيِه في اليوم التالي في مكتب مُحامِيِّيها، وهم

أنفسهم الذين خدموها لأكثر من خمسة وعشرين عاماً، وكسبوا منها عمولات هائلة، وأعلنت لهم دون مقدّمات أنّها تأمل أن ترى ابن أخيها يعمل معهم بدءاً من الاثنين القادم كي يتعلّم المهنة. لم يستطيعوا أن يرفضوا. أنزلت العمّةُ الشابَّ في بيتها، في غرفةٍ مشمسة من الطابق الثاني، واشترت له حصاناً جيّداً، وخصصت له مرتباً شهرياً، وضعت له مدرِّسَ لغةٍ إنكليزية وشرعت تُقدِّمه إلى المجتمع، لأنّها كانت ترى أنّه ما من رأسِ مالٍ أفضل من العلاقات.

ـ شيئان آمل أن أراهما منك، الوفاء والمزاج الطيّب.

ـ ألا تنتظرين منّي أن أدرس أيضاً؟

ـ هذه مسألة تخصك يا فتى. ما تفعله بحياتك لا يخصّني أبداً.

ومع ذلك تأكّد سِبِرو في الشهور اللاحقة أنّ باولينا تُتابِع عن قُربٍ تقدّمه في مكتب المحامين، وتتابع صداقاته، وتحسب نفقاته، وتعرف خطواته حتى قبل أن يخطوها. ماذا كانت تفعل كي تعرف كلّ ذلك؟ إنّه لغز، ما لم يكن رئيس الخدم الصموت وليامز قد نظّمَ شبكةَ مراقبة. كان الرجلُ يُديرُ جيشاً من الخدمِ، الذين يقومون بمهامهم مثل أشباح صامتة، يعيشون في بناءٍ منفصلٍ في عمق حديقة البيت، وممنوع عليهم أن يتوجّهوا بكلمة إلى سادة الأسرة، ما لم يُستَدعوا. كذلك لم يكن باستطاعتهم أن يُكلّموا رئيسَ الخدم قبل أن يمرّوا قبل ذلك على حاملة المفاتيح. تعذّب سِبِرو حتى فهم هذه الهيكلية، لأنّ الأمور في تشيلي كانت أكثر بساطة بكثير. فأرباب العمل، حتى أكثرهم استبداداً مثل جدّه، يُعاملون أُجراءهم بقسوة، لكنّهم يرعون حاجاتهم، ويعتبرونهم جزءاً من الأسرة. لم يرهم يوماً يطردون خادمة؛ فأولئك النسوة يدخلن إلى العمل في البيت منذ سنِّ البلوغ وحتى الموت. كان قصر نوب هيل مختلفاً جدّاً عن البيت الرهباني الكبير الذي جرت فيه حياته، بجدرانه القرميدية السميكة وأبوابه الكئيبة الموصدة، بفرشها القليلِ الملتصقِ بالجدران العارية. أما في بيت عمّته باولينا فمن المحال أن يضع لائحة بمحتواه، بدءاً من مطارق الأبواب ومفاتيح الحمامات الفضية المدمجة، وحتى مجموعات الكائنات الخزفية، والعلب الروسية

المطلية بالمينا، والعاج الصيني، وكل الأشياء الفنية، أو المرغوبة والدارجة. كان فِليثيانو رودريغِثْ دِ سانتا كروث يشتريها كي يُدهِشَ الزائرين، لكنّه لم يكن متوحّشاً مثل بعض الأقطاب من أصدقائه، الذين كانوا يشترون الكتب بالكيلو، واللوحات لألوانها، كي يوائموا بينهما وبين الكراسي. من جانبها لم تشعر باولينا بأيِّ تعلّقٍ بتلك الكنوز؛ الأثاث الوحيد الذي أوصت عليه في حياتها كان سريرها، وفعلت ذلك لأسبابٍ لا علاقة لها بالجمال أو بالبذخ. ما كان يهمّها ببساطة وصراحةٍ هو المال؛ تحدّيها كان يقوم على كسبه بالمكر، تكديسه بعناد واستثماره بحكمة. لم تكن تتوقّف عند الأشياء التي يشتريها زوجها، ولا عند المكان الذي ستضعها فيه، والنتيجة كان بيتاً عجيباً، يشعر سكّانه بأنّهم غرباء فيه. كانت اللوحات هائلة، والأطر ضخمة، والموضوعات حماسية ـ *الاسكندر المقدوني في طريقه إلى احتلال بلاد فارس* ـ لكن أيضاً كان هناك مئات اللوحات الصغيرة مرتبة حسب الموضوعات، تعطي أسماءها للغرف: صالون الصيد، قاعة البحريات، وقاعة اللوحات المائية. أمّا الستائر فمن قطيفةٍ ثقيلة ذات شراشيب باهِظة، ومرايا البندقية تعكس إلى اللانهاية أعمدةَ المرمر، وخوابي سِفِرس، التماثيل البرونزية، والأوعية المليئة بالأزهار والفواكه. كان هناك قاعتان للموسيقى مع آلات إيطالية فخمة، مع أنّه ما من أحدٍ في هذه الأسرة يعرف استخدامها، والموسيقى تُسبِّب لباولينا ألماً في الرأس، ومكتبة من طابقين. في كلّ زاوية توجد مبصقة فضية تحمل حروفاً ذهبية هي الحروف الأولى لاسم صاحب البيت؛ لأنّه كان من المقبول تماماً في هذه المدينة الحدودية، أن يقذف المرءُ بصاقَه بحضور الآخرين. كانت غرف فِليثيانو في الجناح الشرقي وغرف زوجته في الطابق ذاته، لكن على الطرف الآخر من البيت يربط بينهما ممرّ، تصطف حوله غرف الأولاد والضيوف، وجميعها فارغة باستثناء غرفة سِبِرو وأخرى يشغلها ماتيّاس، الابن الأكبر الوحيد الذي مايزال يعيش في البيت. سِبِرو دِل بالْيه، المعتاد على الانزعاج والبردِ اللذين كانا يُعتبران في تشيلي جيّدين للصحة، تأخّر عدّة أسابيع في الاعتياد على عناق الفراش الضاغط ووسائد الريش،

وعلى صيف المدافئ الأبدي، ومفاجأة الصباح اليومية، إذ يفتح صنبور الحمام ويجد نفسه أمام دفقٍ من الماء الساخن. لقد كانت المراحيض في بيت جدّه غرفاً صغيرةً كريهة الرائحة في عمق الفناء، ومياه الاغتسال في فجر الشتاءات تتجمّد في الأحواض.

كانت ساعة القيلولة عادةً ما تُفاجئ ابنَ الأخِ الشابَّ والعمّة الهائلة في السرير الأسطوري، هي بين الملاحف، مع دفاتر حساباتها في جانب، وحلواها في جانب آخر، وهو جالس بين حوريات الماء والدلافين، يناقش مسائل أسرية وتجارية. مع سِبِرو وحده تسمح باولينا بمثل تلك الحميمية، قليلون هم الذين كان الطريق مفتوحاً أمامهم إلى غرفها الخاصّة، لكن معه كانت تشعر براحة تامة في قميص النوم. كان ابن الأخ يمنحها رضى لم يمنحه لها قط أبناؤها. فالابنان الصغيران يعيشان حياة الورثة، ويتمتعون بوظائف رمزية في إدارة شركة العشيرة، واحد في لندن وآخر في بوسطن. ماتيّاس البكر كان مُخصّصاً ليرأسَ ذريّة آل رودريغث دِ سانتا كروث ودِل بالْيِه، لكن ليس عنده أيّ ميل لذلك، فبعيداً عن تَتبُّع خطى والديه المجتهدين، والاهتمام بشركاتهما، أو سعيه لإنجاب أولاد ذكور من أجل استمرار الكنية، جعل من مذهب اللذّة والعزوبية شكلاً من أشكال الفنّ. «ليس أكثر من أبله حسن الهندام»، هكذا عرّفته باولينا ذات مرّة أمام سِبِرو، لكن حين تأكّدت من حسن العلاقة بين ابنها وابن أخيها، حاولت بقوّة توطيد هذه الصداقة الناشئة. «أمّي لا يمكن أن تغرز غرزة دون خيط، ولا بدّ أنّها تُخطِّط كي تُنقذّني من الانغماس في الملذات»، كان ماتيّاس يسخر. لم يكن سِبِرو يريد أن يأخذ على عاتقه مهمّة تغيير ابن عمتّه، على العكس، ودَّ لو يُشبِهُهُ، فبالمقارنة معه كان يشعر بنفسه متخشّباً وجنائزياً. كلّ شيء كان يُذهله عند ماتيّاس، أسلوبه المتقن، سخريته الجليدية، والخفّة التي ينفق بها المال دون أيّ اعتبار.

ـ أرغب منك أن تعتاد على معاملاتي التجارية . هذا مجتمع ماديّ ودهمائي، قليل الاحترام جدّاً للنساء. لا قيمة هنا إلاّ للثروة

والعلاقات، لذلك أنا بحاجة إليك: ستكون عينيَّ وأذنيَّ ـ أعلنت باولينا لابن أخيها، بعد أشهرٍ قليلة من وصوله.

ـ لا أفهم شيئاً في التجارة.

ـ أمّا أنا فأفهم. لا أطلبُ منك أن تفكِّر، فهذه مسألتي. أنت تصمت، تُراقِب، تُصغي، وتحكي لي. بعدها تفعل ما أقوله لك دون كثيرٍ من الأسئلة، واضح؟

ـ لا تطلبي منّي أن أنصب أفخاخاً يا عمّتي ـ ردّ سِبِرو بكبرياء.

ـ أرى أنّك سمعت بعضَ الإشاعات عنّي... انظر يا بُنيّ، القوانين ابتدعها الأقوياء، كي يسيطِروا على الضعفاء الذين هم أكثر عدداً بكثير. أنا لستُ مُجبَرة على احترامِها. أحتاجُ محامياً مُطلقَ الثقة، كي أفعل ما يحلو لي دون أن أتورّط.

ـ آمل أن يكون ذلك بطريقة مشرّفة... ـ نبّهها سِبِرو.

ـ آه يا صغير! لن نصل بهذا الشكل إلى أي شيء. شرفُك سيكون في مأمنٍ ما دمت لا تُبالِغ ـ ردّت باولينا.

وهكذا ختما حلفاً قويّاً قوّةَ روابط الدم التي تربط بينهما. باولينا التي استقبلته دون أن تعقد عليه آمالاً كبيرة، مقتنعة بأنّه تافه، وأن هذا هو السبب الوحيد الذي جعلهم يرسلونه إليها من تشيلي، تلقّت مفاجأة سارّة بابن الأخ الذكي والنبيل المشاعر. خلال سنواتٍ قليلة تعلّم سِبِرو التحدث بالإنكليزية بسهولة لم يُبدِها أيّ شخص في أسرته، ووصل به الأمر إلى معرفة شركات عمّته كما يعرف راحةَ كفّه. اجتاز الولايات المتحدة بالقطار مرّتين ـ في واحدة منهما تعرض لهجوم قطاع طرق مكسيكيين ـ كما أنه وجد الوقت كي يُصبح محامياً. حافظ على مراسلة أسبوعية مع ابنة عمّه نيبيا، التي راحت مع الأيّام تتوضّح صورتها كمفكّرة، أكثر منها كرومانسية. كانت تحكي له عن الأسرة والسياسة التشيلية؛ وهو يشتري لها كتباً، ويقصّ لها مقالاتٍ عن تقدّم التصويت في أوروبا والولايات المتحدة. وقد احتفلا عن بعدٍ بخبر مفاده أنّه تم تقديم

توصية إلى الكونغرس الأمريكي الشمالي لاعتماد صوت المرأة؛ رغم أنّهما كانا متفقين على أنّ تصوّر شيء مشابه في تشيلي يُعادل الجنون. «ما الذي أكسبه من كلّ هذه الدراسة والقراءة، يا ابن العم؟ إذا لم يكن هناك من مجال للعمل في حياة المرأة؟ تقول أمّي سيكون من المحال عليّ أن أتزوَّج لأنّني أفزع الرجال، وأنّه عليّ أن أتدبّر أمر جمالي، وأغلِقَ فمي، إن كنتُ أرغب بزوج. أسرتي تصفق لأدنى معرفة عند أخوتي ـ وأقول أدنى لأنّك تعرف كم هم أفظاظ ـ بينما يعتبرون الشيء ذاته عندي تبجّحاً. الوحيد الذي يتحمّلني هو خالي خوسيه فرانسيسكو، لأنّني أفسح له المجال كي يُحدّثني عن العلوم، والفلك والسياسة، الموضوعات التي يحبُّ أن يُطنِب فيها، وإن كانت أفكاري لا تهمّه إطلاقاً. لا تتصوّر كم أحسد الرجالَ من أمثالَك، والعالم مسرح لهم»، هكذا كتبت الشابّةُ. لم يكن الحبُّ يشغل أكثر من سطرين في رسائل نيبيا، وكلمتين في رسائل سِبِرو، كما لو أنّهما متفقان ضمنياً على نسيان المداعبات المكثفة والسريعة في الزوايا. مرّتين في العام كانت نيبيا ترسل إليه صورة لها، كي يرى كيف راحت تتحوّل إلى امرأةٍ، وكان هو يَعِدُ أن يفعل مثلها، لكنّه دائماً ينسى، تماماً كما كان ينسى أن يقول لها إنّه لن يعود إلى البيتِ في عيد ميلاد ذلك العام أيضاً. أيّ امرأة أخرى غير نيبيا أكثر استعجالاً على الزواج كانت ستشنّف مجسّاتها للعثور على خطيب أقل انزلاقاً، لكنّها لم تشك قط بأنّ سِبِرو دل باليه لن يكون زوجها. ووصل يقينها إلى حدِّ أنّ هذا الفراق المؤجّل بالأعوام لم يُقلقها، فقد كانت مستعدة لأن تنتظره حتى النهاية. من جهته كان سِبِرو يحتفظ بذكرى ابنة عمّه كرمز لكلّ ما هو طيّب ونبيل ونقيّ.

كان باستطاعة مظهر ماتيّاس أن يُبرِّر رأي أمّه به في أنّه مجرّد أبله حسن الهندام، لكنّه لم يكن غبياً بأي حال. فقد زار جميع المتاحف المهمّة في أوروبا، ويعرف عن الفن، ويستطيع أن يُنشِد لكلّ الشعراء الكلاسيكيين، وكان الوحيد الذي يستعمل مكتبة البيت. له أسلوبه الخاصّ به، خليط من البوهيمي والمتأنّق، فمن الأوّل كان

عنده عادة الحياة الليلية، ومن الثاني الهوس بتفاصيل اللباس. وكان الأفضل حظوة في سان فرانسيسكو، لكنّه يحترف العزوبية بثبات، يُفضِّلُ حديثاً مبتذلاً مع أسوأ أعدائه، على موعِد مع أكثر عاشقاته جاذبيّة. الشيء الوحيد المشترك بين النساء هو الإنجاب، وهو هدف تافِه بحدِّ ذاته، هكذا كان يقول. وأمام مضايقات غريزته الطبيعية كان يُفضِّلُ محترفة على الكثيرات اللواتي كنَّ في متناول يده. لم يكن يتصوَّر سهرة رجالٍ لا تختتم ببراندي في بار وزيارة إلى ماخور؛ كان في البلد أكثر من ربع مليون عاهرة، وقسم جيّد منهنّ كنّ يكسبن عيشهنّ في سان فرانسيسكو، بدءاً من فتيات الـ *سينغ ـ سونغ* البائسات في تشايناتاون، وحتى آنسات دول الجنوب الرقيقات اللواتي انطلقن بسبب الحرب الأهلية إلى الحياة الفاجرة. الوارث الشاب غير المتساهل كثيراً مع الضعف الأنثوي، كان يتباهى بصبره على فحش أصدقائه البوهيميين؛ وتلك كانت واحدة أخرى من غرائبه، مثل هوايته للسجائر الرفيعة السوداء، التي كان يوصي عليها إلى مصر، والجرائم الأدبية والواقعية. كان يعيش في قصر نوب هيل الأبوي، ويملك طابقاً فاخراً في المركز، متوّجاً بعلّية فسيحة، كان يسمّيها غرفة العازِب حيث كان يرسم من حين لآخر، ويقيم حفلات كثيرة. كان يخالط عالم البوهيمين، الشياطين البائسين الذين كانوا يحيون غارقين في فاقة رواقية لا علاج لها، شعراء، صحفيون، مصوِّرون، أشخاص متطلعون إلى أن يكونوا كتّاباً وفنانين، رجال بلا أسر يقضون حياتهم نصف مرضى، يسعلون ويناقشون، يعيشون على الاقتراض، ولا يستخدمون الساعة، لأنّ الزمن لم يُخلق لهم. وكانوا يهزؤون من وراء ظهر التشيلي من ثيابه وأخلاقه، لكنّهم يتسامحون معه لأنّهم دائماً يستطيعون اللجوء إليه من أجل بعض الدولارات، وجرعة ويسكي، أو مكان لهم في علّيته يقضون فيها ليلةً ضبابية.

ـ هل لاحظت أن ماتيّاس عنده عادات لواطي؟ ـ علّقت باولينا قائلة لزوجها.

ـ كيف يخطر لك أن تقولي مثل هذه الفظاعة عن ابنك! لم يحدث أن وُجِد واحدٌ من هؤلاء في أسرتي أو أسرتك! ـ ردّ فِليثيانو.

ـ هل عرفت رجلاً يوائم بين لون لفة عنقه ولون ورق الجدران؟ ـ نفخت باولينا.

ـ حسن، ويحك! أنتِ أمّه ومن واجبك أن تبحثي له عن خطيبة! فهذا الولد صار في الثلاثين من عمره وما زال عازباً. الأفضل أن تؤمّني له واحدة بسرعة، قبل أن يتحوّل إلى كحوليّ، أو مسلول أو ما هو أسوأ ـ نبّهها فِليثيانو ، دون أن يعلم أن الوقت تأخّر من أجل علاج بارد للإنقاذ.

في واحدة من ليالي العواصف الثلجية القارسة الخاصّة بصيف سان فرانسيسكو، قرع وليامز، رئيس الخدم ذو السترة ذات الذيل، باب غرفة سِبِرو دِل بالْيِه.

ـ اعذرني على الإزعاج يا سيّدي ـ همس بهمهمة محتشمة داخلاً وفي يده المقفّزة شمعدان بثلاث شموع.

ـ ماذا هناك يا وليامز؟ ـ سأل سِبِرو مستنفراً، لأنّها كانت المرّة الأولى التي يقطع فيها أحدٌ عليه حلمه في ذلك البيت.

ـ أخاف أن يكون هناك منغّص صغير. المسألة تتعلّق بِدون ماتيّاس ـ قال وليامز بذلك التمايز الإنكليزي التبجحي، المجهول في كاليفورنيا، والذي له دائماً وقع السخرية أكثر من الاحترام.

وضّح له أنّه في مثل تلك الساعة المتأخرة وصلت إلى البيت رسالة مرسلة من سيّدة مشكوك بسمعتها، تدعى أماندا لويل، اعتاد السيّد أن يتردّد عليها، ناس «من جوّ آخر»، كما قال. قرأ سِبِرو الملاحظة على ضوء الشموع: ثلاثة سطور فقط تطلب مساعدة فورية لماتيّاس.

ـ علينا أن نُخبر عمّي، يمكن أن يكون ماتيّاس قد تعرّض لحادِثٍ ـ استنفر سِبِرو دِل بالْيِه.

ـ تمعّن في العنوان يا سيّدي، إنّه في وسط تشاينا‌تاون تماماً. يبدو لي أنّ من الأفضل ألاّ يعلم السيِّدان بذلك ـ ارتأى رئيس الخدم.

ـ هاها! كنتُ أظنّ أنّك لا تخفي أسراراً عن عمّتي باولينا.

ـ أحاول أن أجنِّبَها المنغصّات يا سيّدي.

ـ ماذا تقترح أن نفعل؟

ـ إذا لم يكن الطلب كبيراً، أرجوأن ترتدي ملابسك، وتأخذ سلاحك وترافقني.

كان وليامز قد أيقظ أحد فتية الإسطبلات كي يعدّ واحدة من العربات، لكنّه كان يرغب بالإبقاء، على سرّية المسألة بأكبر قدر ممكن من الصمت، فأخذ الزمام بيده، وتوجّه دون تردّدٍ إلى الشوارع المظلمة والمقفرة في طريقه إلى الحي الصيني، تقوده غريزة الجياد، لأنّ الريح كانت تُطفئ مصابيح العربة في كلّ لحظةٍ. تولّد لدى سِبرو انطباع بأنّها ليست المرّة الأولى التي يسير فيها الرجلُ في تلك الأزقّة. سرعان ما غادرا العربة ودخلا سيراً على الأقدام في ممر يؤدي إلى في فناءٍ مظلم، حيث تسود رائحة غريبة وحلوة، كما لو أنها رائحة جوز محمّص. لم يكن يُشاهد أحد، وما من صوت غير صوت الريح، والضوء الوحيد ينفذ من بين قضبان زوج من النوافذ الصغيرة على مستوى الشارع. أشعل وليامز عود ثقابٍ، قرأ العنوان مرّة أخرى، ثم دفع دون استئذانٍ أحد الأبواب المطلّة على الفناء. تبعه سِبرو الذي وضع يده على سلاحه. دخلا إلى غرفةٍ صغيرة، دون تهوية، لكنّها نظيفة ومرتّبة، حيث لا يكاد المرء يستطيع التنفّس بسبب رائحة الأفيون الكثيفة. وحول طاولة مستديرة كان هناك مقصورات خشبية، مصطفة على الجدران بعضها فوق بعض، مثل أسرّة السفن، مفروشة بحصُر صغيرة مع قطعة خشب معقّرة على شكل وسادة. كان يشغلها صينيون، ويشغل المخدعَ الواحد اثنان أحياناً، مستلقين على جنبيهما أمام صينية صغيرة تحتوي على صندوقٍ فيه عجينة سوداء ومصباح صغير مشتعل. كان الليل متقدّماً جدّاً، والمخدرات أعطت مفعولها في الغالبية؛ فكان الرجال

يضجعون مخدّرين سارحين في أحلامهم، ولم يكن هناك إلا اثنان أو ثلاثة ما يزالون يملكون القوّة كي يدهنوا قضيباً معدنيّاً بالأفيون، ليُسخنوه على المصباح، ويحشون قمع الغليون الدقيق ويستنشقون عبر قصبة خيزران.

ـ يا إلهي! ـ همهم سِبِرو، الذي كان قد سمعهم يتكلّمون عن هذا، ولم يره عن قرب.

ـ إنّه أفضل من الكحول، إذا سمحت لي أن أقول لك ذلك ـ لا يحثّ على العنف، ولا يؤذي الآخرين، بل من يُدخّنه فقط. تمعّن كم هو هذا أهدأ وأنظف من أيّ بارٍ.

خرجَ صينيّ عجوز يرتدي دثاراً وبنطلوناً عريضاً من القطن، وهو يعرجُ للقائهما. عيناه الصغيرتان الحمراوان لا تكادان تُطلاّن من بين تجاعيد وجهه العميقة، وله شوارب ذابلة ورمادية، مثل الجديلة النحيلة المتدلية على ظهره، وجميع أظافره باستثناء الإبهام والسبابة كانت من الطول بحيث تنطوي على ذاتها، مثل ذيل رخويّ ما قديم، وفمه يبدو فجوة سوداء، والأسنان القليلة المتبقية مصبوغة بالتبغ والأفيون. توجه ذاك الجدّ الهرم الأعرج إلى الواصِلَين توّاً بالصينية، ولدهشة سِبِرو ردّ عليه رئيسُ الخدمِ الإنكليزي بزوجٍ من النباحات باللغة ذاتها. حدثت وقفة طويلة جدّاً لم يأتِ خلالها أحدٌ بحركة. أبقى الصيني نظرته على وليامز، كما لو أنّه يدرسُه، ثم مدّ يدَه أخيراً، فوضع فيها الآخر عدداً من الدولارات خبّأها العجوز في عبّه تحت الدثار، ثمّ أخذ بقيّةَ شمعة وأشار عليهما باللحاق به. عبروا إلى غرفة أخرى، ثمّ وعلى الفورِ إلى ثالثة ورابعة، وجميعها مشابهة للأولى، ثم ساروا على امتداد ممر ملتوٍ، هبطوا درجاً صغيراً، ووجدوا أنفسهم في ممرّ آخر. أشارَ عليهم دليلهم بالانتظار، واختفى لعدّة دقائق بدت لا نهائية. سِبِرو الذي كان يتصبّب عرقاً أبقى إصبعه على زناد السلاح، متحفّزاً لا يجرؤ على النطق بنصف كلمة. عاد الجدّ الهرم أخيراً، وقادهما عبر متاهة حتى وجدوا أنفسهم أمام باب مُغلَق، بقي يتأمله باهتمام تافه، كمن يفكّ رموزَ خريطة، إلى أن مرّر له وليامز زوجاً من الدوّلارات الأخرى.

عندئذ فتحه. دخلوا إلى غرفة أصغر من الأخريات، وأكثر عتمة ودخاناً وضغطاً، لأنّها كانت تحتَ مستوى الشارع، وخالية من التهوية، لكنّها فيما عدا ذلك كانت مماثلة للأخرى. على الأسرّة الفردية الخشبية كان هناك خمسة أمريكيين بيض، أربعة رجال وامرأة ناضجة، لكنّها فائقة الجمال، وشلاّل من الشعر الأحمر يتدفّق حولها مثل معطف فاضح. كانوا، كما يمكن أن يُحكم عليهم من ثيابهم، موسرين. وجميعهم كانوا في الحالة ذاتها، باستثناء واحد مستلقٍ على ظهره يتنفّس بصعوبة، ممزّق القميص، مفتوح الذراعين على شكل صليب، بشرته بلون الطباشير، والعينان تتقلّبان إلى الأعلى. كان هذا ماتيّاس رودريغث دِ سانتا كروث.

ـ هيّا يا سيِّدي، ساعِدني ـ أمر وليامز سِبِرو دِل بالْيه.

رفعاه فيما بينهما بجهدٍ، وضع كلّ منهما ذراعاً من ذراعي المغشي عليه خلف عنقه، وحملاه مثل مصلوبٍ، الرأس متدلّ والجسد مرتخٍ، والقدمان متجرجرتان على الأرضِ الترابية المرصوصة. اجتازوا الطريق الطويل عائدين عبر الممرات الضيقة، وعبروا الغرف الخانقة واحدة فواحدة، حتى وجدوا أنفسهم في الهواء الطلق، في نقاء الليل المنقطع النظير، حيث استطاعا أن يتنفّسا بعمق، متلهفين ومصعوقين. سوّيا وضعَ ماتيّاس في العربة كيفما استطاعا، وقادهما وليامز إلى غرفة العازب التي كان سِبِرو يظنّ أنّ المستخدمَ يجهلها. وكانت دهشته أكبر حين أخرج وليامز مفتاحاً، وفتح الباب الرئيسيّ للبناء، ثم آخر لفتح العلّية.

ـ ليست هذه هي المرّة الأولى التي تُنقِذ فيها ابن عمّتي، أليس صحيحاً؟

ـ لنقل إنّها لن تكون الأخيرة ـ أجاب.

وضعا ماتيّاس على السرير الموجود في ركنٍ خلف حاجِز ياباني، وشرع سِبِرو يُبلّله بالقماش المبلّل، ويهزّه كي يعود من السماء التي كان فيها، بينما انطلق وليامز بحثاً عن طبيب الأسرة، بعد أن نبّهه إلى أنّه ليس من المناسب إبلاغ العمّين بما جرى.

ـ ابن عمّتي يمكن أن يموت! ـ هتف سِبِرو، وهو ما يزال يرتجف.

ـ في هذه الحالة يجب أن نُبلغ السيّدين ـ قبل وليامز بأدب.

بقي ماتيّاس خمسة أيام يتخبّط في تشنّجات احتضار، متسمّماً حتىّ النخاع. جاء وليامز بممرّض إلى العليّة للعناية به وتدبّر أمره، بحيث لا يُسبّب غيابُه فضيحةً في البيت. خلق هذا الحادث رابطة غريبة بين سِبِرو ووليامز؛ تواطؤاً ضمنيّاً لم يُترجم قط إلى إيماءة أو كلمة. لو كان الأمر مع شخص آخر أقل كتماً من رئيس الخدم، لفكّر سِبِرو أنّهما يتقاسمان بعض الصداقة، أو على الأقل الاستلطاف، لكنَّ الإنكليزي كان يرتفع حوله سور كتيم من التحفّظ. بدأ يُراقبه. إنه يُعامِل المستخدمين الموجودين تحت أمرته بالتهذيب البارد والتام الذي يتوجَّهُ به إلى أرباب عمله، وهكذا تمكّن من دبّ الخوف في نفوسهم. لا شيء يفلت من مراقبته، ولاحتى بريق أطقم الطعام الفضّية، أو أسرار كلّ ساكن من سكّان ذلك البيت الهائل. كان من المحال تقدير عمره أو أصوله، فهو يبدو حبيس الأربعين من عمره إلى الأبد، وباستثناء النبرة الإنكليزية، لم يكن هناك أيّ دليل على ماضيه. وهو يُبدّل قفازيه الأبيضين ثلاثين مرّةً في اليوم، وطقمه المخملي الأسود يزهو دائماً مكوياً للتو، وقميصه الكتاني الناصع البياض المصنوع من أفضل الكتان الهولندي منشّى مثل الورق المقوى الصقيل، وحذاؤه يلمعُ مثل مرآة. كان يمصّ حبات نعناع من أجل نَفَسِهِ، ويستخدم ماء الكولونيا، لكنّه يفعل ذلك بكثير من الدقة، حتى أنّ المرّة الوحيدة التي لاحظ فيها سِبِرو رائحة النعناع والخزامى حدثت حين احتكّ به عند ما رفعا ماتيّاس فاقدَ الوعي في مَدْخَنِ الأفيون. في تلك المناسبة انتبه أيضاً إلى فخذيه القاسيين مثل الخشب تحت سترته، وأوتار رقبته المشدودة في الرقبة، وإلى قوّته وطراوته، أي لا شيء مما ينسجم مع حالة لورد إنكليزي أفقِر، كما هو حال ذلك الرجل.

إن سِبِرو وابن عمته وماتيّاس لا يملكان شيئاً مشتركاً إلا

الملامح النبيلة وحبّ الرياضة والأدب، وفيما عدا ذلك لا يبدو أن لهما دماً واحداً؛ فبقدر ما كان الأوّل نبيلاً، مندفعاً وساذجاً؛ كان الثاني كلبيّاً وخمولاً وخليعاً، لكن وعلى الرغم من طبيعتهما المتباينة والسنوات التي تفصل بينهما، بنيا صداقة. بذل ماتيّاس جهده كي يُعلِّم سِبِرو المبارزة، وكان يخلو من الأناقة والسرعة الضروريّتين لهذا الفنّ، وأطلعه على أوليات متع سان فرانسيسكو، لكنَّ الذي حدث هو أنّ الشابَّ رفيق سيّئ لحياة اللهو والصخب، لأنه ينام واقفاً؛ فهو يقضي أربع عشرة ساعة من العمل في مكتب المحامين، ويقضي ما يفيض عنه من وقت في القراءة والدراسة. وعادة ما يسبحان عاريين في مسبح البيت، ويتحدّى أحدهما الآخر في رقصة الالتحام الجسدي. كانا يرقصان أحدهما حول الآخر، متحفّزين، متهيّئين للقفز، وأخيراً يهجم أحدهما على الآخر، قافزاً، ملتحماً به، دائراً حوله إلى أن يتمكن من إخضاعه، ويسحقه على الأرض. يبقيان مبللين بالعرق، لاهثين، مهتاجين. فيبتعد سِبِرو بعنفٍ، مرتبكاً، كما لو أنّ الملاكمة كانت عناقاً غير مقبول. كانا يتكلّمان عن الكتب ويناقشان الكلاسيكيين؛ فماتيّاس يُحبُّ الشعرَ، وحين يكونان وحيدين يقرأه له عن ظهر قلب، بالغاً تأثّره بجمال الأبيات حدَّاً يجعل دموعه تسيل على خدّيه. وفي هذه المناسبات كان سِبِرو يرتبك، لأنّ عاطفة الآخر القويّة تبدو له شكلاً من الودّ المحرّم بين الرجال. كان يعيش رهنَ التقدم العلمي والرحلات الاستكشافية، التي يناقشها مع ماتيّاس في محاولة غير مجدية منه لجعله يهتمّ بها، فالأخبار الوحيدة التي كان يتمكّن بها من اختراق درع اللامبالاة عند ابن عمّته هي الجرائم المحلّية. كان ماتيّاس على علاقة غريبة، مرتكزة على ليترات من الويسكي، مع جاكوب فريمونت، الصحافيّ العجوز الغامِض، الذي كان دائماً في ضائقة مالية، ويشاركه الافتتان المرضي بالجريمة. وكان فريمونت ما يزال يستطيع نشر تحقيقات بوليسية في الصحف، لكنّه خسر سمعته تماماً منذ سنوات طويلة حين ابتدع قصّة خواكين مورْيِتا، اللص المكسيكي المزعوم في أزمنة حمّى الذهب. فقد خلقت مقالاته شخصيّةً أسطوريّةً، أثارت كراهية السكّان البيض ضدّ الهيسبانيين. ولكي تُهدِّئ السلطاتُ

النفوسَ قدّمت جائزة لنقيب اسمه هاري لوف، كي يصطادَ مورْيِتا. وبعد ثلاثة أشهر جابوا كاليفورنيا بحثاً عنه، اختار النقيبُ حلاً بلا عوائق: فقد قتل سبعة مكسيكيين في كمينٍ، وعاد برأسٍ ويد. لم يستطع أحدٌ أن يتحقّق من هويّة صاحب بقايا الجثّة، لكنّ مأثرة لوف طمأنت البيضَ. كانت بقايا الميت ما تزال معروضة في متحفٍ، على الرغم من الإجماع بأنّ خواكين مورْيِتا ليس إلّا بدعة مريعة من بدع الصحافة بعامّة، ومن جاكوب فريمونت بخاصّة. هذا الفصل، وفصول أخرى شوّهت فيها ريشةُ الصحافي المخادعة الواقعَ، أكسبته بجدارةٍ شهرةَ الغشّاش، وأغلقت الأبواب في وجهه. وقد تمكّن ماتيّاس، بفضل علاقته الغريبة بفريمونت، كاتب تحقيقات الجرائم، من رؤية ضحايا القتل قبل أن تُرفَع من أماكنها، ومن حضور التشريح الكشفي في مستودع الجثث، المَشاهد التي كانت تجرحُ حساسيته بقدر ما تُثيره. فكان يخرج من مغامراتِ عالمِ الجريمة السفليّ هذه سكراناً من الرعب، ويذهب مباشرة إلى الحمّامَ التركي، حيث يقضي ساعات تتصبّب منه رائحةَ الموت الملتصقة بجسمه عرقاً، ثمّ يُغلِق على نفسه في غرفة العازب ليرسم المشاهِد المشؤومة للناس المقطّعة بضربات السكاكين.

ـ ماذا يعني كلُّ هذا؟ ـ سأله سِبِرو في المرّة الأولى التي رأى فيها تلك اللوحات الدانتية.

ـ ألا تفتنك فكرة الموت؟ القتل الإنساني مغامرة مريعة، والانتحار حلّ عمليّ. أنا ألعب بفكرة الحالتين. هناك أشخاص يستحقّون القتل، ألا ترى ذلك؟ بالنسبة إليَّ، حسن، يا ابن الخال، لا أفكّر أن أموتَ في أرذل العمر، أُفضِّلُ أن أضع حدّاً لأيّامي بالعناية ذاتها التي أختار بها ملابسي، لذلك أدرسُ الجرائم، كي أتدرَّب.

ـ أنت معتوه وتخلو من الموهبة ـ خلص سِبِرو.

ـ لا يحتاج المرء إلى الموهبة كي يكون فنّاناً، بل للجرأة فقط. هل سمعت بالانطباعيين؟

ـ لا، لكن إذا كان هذا ما يُصوّره أولئك الشياطين البؤساء،

فإنّهم لن يستمروا طويلاً. ألا تستطيع أن تبحث عن موضوع ألطف؟ فتاة حلوة مثلاً؟

ضحك ماتيّاس وأعلن له أنَّ فتاةً حلوةً حقّاً ستكون في غرفة العازب يومَ الأربعاء، وأضاف إنّها الأجمل في سان فرانسيسكو، حسب الإجماع الشعبي. كانت موديلاً يتشاجر عليه أصدقاؤه كي يُخلّدوه في الصلصال، أو على القماش، أو في صور فوتوغرافية، مع الأمل الإضافي بممارسة الحبّ معها. يتراهنون ليروا من يكون الأوّل، لكنّ حتى الآن لم ينجح أحد في أن يلمس يدها.

ـ إنّها تُعاني من تشوّه كريه: الفضيلة. إنّها العذراء الوحيدة المتبقية في كاليفورنيا، رغم أنَّ علاج ذلك سهل. هل تُحب أن تتعرّف عليها.

وهكذا عاد سِبرو دِل بالْيِه ليرى لين سومّرز. كان يقتصر حتى ذلك اليوم على شراء بطاقات البريد التي تحمل صورتها من حوانيت السيّاح سراً، ويخفيها بين صفحات كتب القانون، ككنز مُخجل. جاب كثيراً شارع قاعة الشاي في ساحة الوحدة كي يراها من بعيد، وقام باستقصاءات حذرة عنها من خلال الحوذي الذي كان يذهب يومياً في طلب الحلوى لعمّته باولينا، لكنّه لم يجرؤ قط على الحضور بشكلٍ مشرّف أمام إليثا سومّرز ليستأذنها في زيارة ابنتها. إن أيّ عملٍ مباشر كان يبدو له خيانة مريعة لنيبيا، التي كانت خطيبته طوال حياته؛ لكن أن يلتقي بلين بالمصادفة شيء آخر، هكذا قرّر، لأن الأمر في هذه الحالة سيكون لعبة قذرة من القدر، ولن يستطيع أحد أن يلومه. لم يخطر بباله أنّه سيراها في مرسم ابن عمّته ماتيّاس، وفي ظروف غريبةٍ جدّاً.

كانت لين سومّرز النتاج المحظوظ لأعراقٍ مختلطة، ويجب أن تُدعى لين شيين، لكنَّ والديها قرّرا إضافة شيء من الإنكليزية إلى اسمي ولديهما، ومنحهما كنية الأم، سومّرز، لتسهيل حياتهم في الولايات المتحدة، حيث يُعامَلُ الصينيون معاملةَ الكلاب. سمّيا الولد

الأكبر إبانيزر، على شرف صديقٍ قديم للأب، لكنّهما كانا يناديانه لوكي ـ محظوظ ـ لأنّه كان الفتى الأوفر حظّاً الذي شوهِد في تشاياناتاون. أمّا الابنة الصغرى، التي جاءت بعد ستّ سنوات، فأسمياها لين تكريماً لزوجة أبيها الأولى، المدفونة في هونغ ـ كونغ قبل سنوات طويلة، لكنّهما منحا اسمها، حين سجّلاها، خاصيّة الكتابة الإنكليزية: لين (Lynn)(*). كانت زوجة تاو شيين الأولى مخلوقة هشّة جدّاً، وذات قدمين دقيقتين معصوبتين، معبودة من زوجها، وهزمها الضنى وهي في ريعان الصبا. تعلّمت إليثا سومّرز أن تتعايش مع ذكرى لين دائمةِ الحضور، وانتهت إلى اعتبارها عضواً آخر من أعضاء الأسرة، ونوعاً من الحامية الخفيّة التي تسهر على رغد حياة بيتها. قبل عشرين عاماً، حين اكتشفت أنّها حاملٌ مرّة أخرى، توسّلت إلى لين أن تساعدها كي تتمّه حتى نهايته، لأنّها عانت من عدّة إجهاضات، وليس هناك أمل كبير في أن تحتفظ طبيعتُها المنهكة بالجنين. هكذا أبانت الأمر لتاو شيين، الذي وضع في كلّ مرّة إمكاناته كـ زهونغ ـ يي في خدمة زوجته، إضافة إلى حملها إلى أفضل الاختصاصيين بالطب الغربي في كاليفورنيا.

ـ ستولَد هذه المرّة طفلة سليمة ـ أكّدت له إليثا.

ـ وما أدراك؟ ـ سأل زوجُها.

ـ لأنّني طلبت ذلك من لين.

لقد آمنت إليثا دائماً أن الزوجةَ الأولى أعانتها في حملها، ومنحتها القوّة على ولادة ابنتها، ثم مثل حوريّة انحنت فوق المهد لتقدّم للطفلة هبةَ الجمال. «ستُسمّى لين»، أعلنت الأمُّ المنهَكَةُ حين أخذت ابنتها بين ذراعيها أخيراً؛ لكنّ تاو شيين ارتعب: ليست فكرة جيّدة منحها اسم امرأة ماتت في ريعان الشباب. أخيراً عمدا إلى تغيير شكل الاسم الإملائي كيلا تأخذ الحظّ السيّئ. وخلُصت إليثا إلى أنّه «سيكون له اللفظ ذاته، وهذا هو الأهم».

(*) الاسم الأصلي Lin لكنه كُتبَ Lynn : وهو اسم زوجة تاو شيين الأولى التي مُنِحَ اسمها للطفلة.

ورثت لين سومّرز من جهة أمّها دماً إنكليزياً وتشيلياً، لكنّها حملت من جهة الأب جيناتِ صينيّ الشمالِ طوال القامة. وكان جدّ تاو شيين، الطبيب الشعبيّ المتواضع، قد أورث ذرّيته الذكورَ معارفه عن النباتات الطبيّة والتعويذات السحرية ضدَّ عدد من أمراض الجسد والعقل. وقد أغنى تاو شيين آخر تلك الذريّة الميراثَ الأبوي بالتدرب على *الزهونغ ـ يي* إلى جانب حكيم كانتونيّ، ومن خلال حياة قائمة على دراسةٍ، ليس الطب الصينيّ التقليديّ وحسب، بل كلّ ما كان يقع بين يديه حول علوم الطب في الغرب. كان قد حقّق مكانة راسخة في سان فرانسيسكو، ويستشيره الدكاترة الأمريكيون، ويملكُ زبائن من مختلف الأعراق، لكنّهم لم يكونوا يسمحون له بالعمل في المستشفيات، وانحصر عمله في الحي الصينيّ، حيث اشترى بيتاً كبيراً، استخدم الطابق الأول منه عيادةً، والثاني سكناً. كانت سمعته تحميه: فلا أحد يتدخّل في نشاطه مع فتياتِ الـ *سينغ ـ سونغ*، كما كانوا يسمّون عبداتِ تجارة الجنس المشجيات في تشاينا‌تاون، وجميعهن طفلات صغيرات السن. كان تاو شيين قد أخذ على عاتقه إنقاذ كل من يستطيع من المواخير. وكانت ـ *التونغات* ـ العصابات التي تتحكّم وتراقب وتبيع الحماية في الجالية الصينية؛ تعرفُ أنّه يشتري العاهرات الصغيرات كي يمنحهنّ فرصة جديدة بعيداً عن كاليفورنيا. وقد هدّدته عدّة مرّات، لكنّها لم تتّخذ إجراءات أكثر عنفاً، لأنّ أيّ واحدٍ من أعضائها يمكن أن يحتاج عاجلاً أو آجلاً لخدمات *الزهونغ ـ يي* الشهير. فما دام تاو شيين لايلجأ إلى السلطات الأمريكية، ويعمل دون ضجيج، وينقذ الفتيات واحدة فواحدة، بصبرِ نملة، يمكنهم أن يتسامحوا معه، لأنّه لم يكن يُضرّ بمنافع التجارة الهائلة. الشخصية الوحيدة التي كانت تُعامل تاو شيين على أنّه خطر عام هي *آه توي*، القوّادة الأكثر نجاحاً في سان فرانسيسكو، وصاحبة عدّة صالونات متخصِّصة بالمراهقات الآسيويات. فهي وحدها كانت تستورد المئات من المخلوقات كلّ عام، أمام عيون الموظفين اليانكيين، المرتشين جيداً، والقاسية. كانت *آه توي* تكره تاو شيين وتُفضِّل، كما قالت مرّات كثيرةً، أن تموت قبل أن تعودَ لاستشارته. فعلت ذلك مرّة

واحدة، بعد أن هزمها السعال، وأدركا في تلك الفرصة، دون أن يقولا شيئاً، أنَّهما سيبقيان عدوّين حتى الموت وإلى الأبد. فكلّ فتاة *سينغ ـ سونغ* ـ أنقذها تاو شيين كانت شوكةً مغروزة تحت أظافر *آه توي*، حتى ولو لم تكن الفتاة تنتمي إليها. لقد كان هذا بالنسبة إليها، كما بالنسبة إليه، مسألة مبدأ.

كان تاو شيين ينهض قبل الفجر ويخرجُ إلى الحديقة، حيث يمارس تمارينه السويدية كي يُحافِظ على لياقة جسمه وصفاء ذهنه. بعدها مباشرة يتأمّل لمدّة نصف ساعة، ثمّ يُشعِلُ النارَ لإبريق الشاي. كان يوقِظُ إليثا بقبلة وكأسٍ من الشاي الأخضر، ترشفُه ببطءٍ في سريرها. كانت تلك اللحظة مقدّسة لكليهما: فكأس الشاي الذي يشربانه معاً يختم الليل الذي تقاسماه في عناقٍ حميم. ما كان يَحدث بينهما خلفَ باب غرفتهما المُغلَق يُعوّضهما عن كلّ جهد النهار. لقد بدأ حبّهما كصداقة ناعمة منسوجة بمهارة وسط كتلة من العوائق، بدءاً من الحاجة للتفاهم بالإنكليزية، والقفز فوق الأوهام الثقافية والعرقية، وانتهاءً بالسنوات التي تفصلُ بينهما في العمر. عاشا وعملا معاً تحت سقفٍ واحد، خلال أكثر من ثلاثة أعوام قبل التجرّؤ على اختراق الحدود الخفيّة التي تفصل بينهما. وكان ضرورياً أن تسير إليثا آلاف الأميال في حلقة مفرغة من رحلة لا تنتهي ، تُلاحِقُ حبيباً مفترضاً يفلت من بين أصابعها مثل الشبح، وأن تترك ماضيها وبراءتها مِزقاً على الطرقات، وتُواجِهَ هوسَها أمام رأس اللص الأسطوريّ خواكين مورْيِتا المقطوع والمنقوع بالجّن، كي تُدرِك أن قدرها كان بجانب تاو شيين. بالمُقابِل عرف *الزهونغ ـ يي* ذلك من قبل، وانتظرها بعناد الحبّ الناضج الصامت.

في الليلة التي تجرّأت فيها إليثا أخيراً على أن تقطع أمتار الممر الثمانية التي كانت تفصل غرفتها عن غرفة تاو شيين، تبدّلت حياتهما كلّياً، كما لو أنّ ضربة فأس قطعت الماضي من جذوره. واعتباراً من تلك الليلة المتأجّجة لم يبق أدنى إمكانية أو إغراء للتراجع، لم يكن هناك غير تحدّي بناء فضاء في عالم لا يسمح

باختلاط الأعراق. جاءت إليثا حافيةً وبقميص النوم، متلمّسة طريقها في العتمة. دفعت بابَ تاو شيين واثقةً من أنّها ستجده غير مقفل، لأنّها تكهّنت بأنّه يرغب بها كما ترغب به، لكنها كانت رغم هذا اليقين خائفةً من غاية قرارها الذي لا رجعة عنه. وقد تردّدت كثيراً في الإقدام على تلك الخطوة، لأنّ *الزهونغ* ـ يي كان حاميها، وأباها، وأخاها، وأفضلَ صديق لها، وأسرتَها الوحيدة في هذه البلاد الغريبة. خافت أن تخسرَ كلَّ شيء بالتحوّل إلى عشيقة له. لكنّها أصبحت أمام العتبة؛ ولهفتها لقرع الباب أقوى من مراوغات العقل. دخلت إلى الغرفة ورأته على ضوء شمعة موجودة فوق الطاولة، متربّعاً ينتظرها على السرير، يرتدي دِثاره وبنطلونه القطنيّ الأبيض. لم تتمكّن إليثا من سؤاله كم ليلة قضى بهذا الشكل، مشدوداً إلى خطواتها في الممر، لأنّها كانت مرعوبة من جرأتها ذاتها، ترتعِدُ خوفاً ومن استباق ما سيحدث. لم يمنحها تاو شيين وقتاً كي تتراجع. فقد خرج للقائها، وفتح لها ذراعيه؛ فتقدّمت على عماها حتى انفجرت على صدره الذي غاصت بوجهها فيه، مستنشقةً رائحة ذلك الرجل المعروفة لها جيداً، عبق ملحِ ماء بحري؛ وكانت متثبّتةً بدثارِهِ بكلتا يديها، لأنّ ركبتيها كانتا تنطويان، بينما نهر من التوضيحات انبثقت جامِحةً من شفتيها، واختلطت بكلمات الحبّ الصينية التي كان يهمس بها هو. شعرت بالذراعين اللتين ترفعانها عن الأرض، وتضعانها بنعومة على السرير، شعرت بالنفس الدافئ على عنقها، واليدين اللتين تمسكان بها، فسيطر عليها قلق لا يمكن كبحه، وبدأت ترتعد نادمةً وخائفة.

منذ أن ماتت زوجتُهُ كان تاو شيين قد واسى نفسه بعناقات مستعجلة مع نساءٍ مدفوعات الأجر. لم يُمارس الحبَّ بحبٍّ منذ أكثر من ستّة أعوام، لكنّه لم يسمح للعجلة أن تُشبِّبه. مرّاتٍ كثيرةً جاب بخيالهِ جسدَ إليثا، الذي يعرفه، كأنّه يسير في منحنياته وهضابه الصغيرة وفق خريطة. وكانت هي تعتقدُ أنّها عرفت الحبَّ بين ذراعي حبيبها الأوّل، لكنّ الحميمية مع تاو شيين أظهرت لها حجم جهلها. العاطفة التي كانت تُجنّنها في السادسة عشرة من عمرها،

وجابت لأجلها نصفَ العالم، وخاطرت مرّاتٍ كثيرةً بحياتها، بدت لها سراباً سخيفاً، وكانت آنذاك قد عشقت الحبَّ، راضيةً بالفتات الذي يمنحه لها رجلٌ مهتمٌّ بالرحيل أكثر مما بالبقاء معها. بحثت عنه أربعةَ أعوام، مقتنعةً بأنّ الشابَّ المثاليَّ التي عرفته في تشيلي قد تحوّل في كاليفورنيا إلى لصّ خيالي اسمه خواكين مورْيِتا. انتظرها تاو شيين خلال ذلك في هدوئه الذي يُضرب به المثل، واثقاً من أنّها عاجِلاً أو آجلاً ستعبر العتبةَ التي كانت تفصلُ بينهما. وكان من نصيبه أن يُرافِقها حين عرضوا رأسَ خواكين مورْيِتا في تسلية للأمريكيين الشماليين وعبرةً للأمريكيين اللاتينيين. اعتقدَ أنَّ إليثا لن تتحمّل رؤية ذلك الصيّد المقيت، لكنّها وقفت أمام الوعاء الزجاجي حيث يرقدُ رأس المجرم المزعوم، ونظرت إليه بلا رحمة، كما لو أنّ الأمر يتعلّق بملفوفةٍ في خلّ، إلى أن تيقّنت تماماً من أنّه لم يكن الرجل الذي لاحقته خلال سنواتٍ. في الحقيقة كان سيّان عندها هويّته، لأنّ إليثا في رحلتها الطويلةِ التي كانت تقتفي فيها أثر رومانسية مستحيلة، اكتسبت شيئاً رائعاً كالحبّ: إنه الحرّية. « الآن أصبحتُ حرّة»، هذا هو كل ما قالته أمام الرأس. فأدرك تاو شيين أنّها تحرّرت أخيراً من الحبيب القديم، وصار سيّان عندها عاش أو ماتَ في بحثه عن الذهب في سفوح جبال سييرّا نيفادا، فهي على أي حال لن تبحث عن الرجلِ أكثر، وإذا ما ظهر ذات يوم؛ ستكون قادرة على أن تراه في حجمه الحقيقيّ. أخذها تاو شيين مِنْ يدها وخرج بها من المعرض المشؤوم. وفي الخارج استنشقا الهواء المنعِشَ، وراحا يسيران بسلامٍ، مستعّدين لبدء مرحلة جديدة من حياتهما.

كانت عناقات الليلة التي دخلت فيها إليثا غرفةَ تاو شيين مختلفةً جدّاً عن عناقات حبّها الأوّل، السرّية والمستعجلة في تشيلي. اكتشفت في تلك الليلة بعضاً من إمكانات المتعة المتعدّدة، وشرعت في عمق حبٍّ سيكون الوحيد بقيّةَ حياتها. فقد راح تاو شيين يخلع عنها طبقات الخوف المتراكمة والذكريات غير المجدية بكلّ هدوء، ويُداعبها بدأبٍ لا يعرف الكللَ، إلى أن انقطعت الارتعاشاتُ وفتحت

عينيها، واسترخت تحت أصابعه الماهرة، وشعر بها تتماوج، تتفتّحُ، تستضيء؛ سمعها تئنُّ، تناديه، تتوسّلُ إليهُ، رآها مستنفَدة ورطبة، مستعدة للاستسلام له واستقباله بالتمام؛ إلى أن لم يعد أحدٌ منهما يعرفُ أين هو، ولا من يكون، ولا أين ينتهي هو وتبدأ هي. حملها تاو شيين إلى ما وراء الرعشة، إلى آفاق غامِضة حيث يتشابه الحب والموتُ. شعرا بروحهما تنبسط، والرغبات والذاكرة تختفي، وبنفسيهما تستسلمان في بهاءٍ فسيح ووحيد. تعانقا في ذلك الفضاء الرائع، متعرّفاً الواحد منهما على الآخر، لأنّه ربّما كانا هناك معاً في حيوات سابقة، وسيكونان مرّات أخرى، أكثر بكثير في حيوات مستقبلية، كما أشار تاو شيين. كانا حبيبين سرمديّين، يبحثان عن بعضهما بعضاً، ويلتقيان مرّةً وأخرى في *كَرْمَتهما*، قال متأثراً، لكنّ إليثا ردّت ضاحكةً بأنّها لم تكن بوقار *الكرمة*، بل مجرّد رغبة بالمضاجعة، وأنّها من أجل شرفِ الحقيقة تموتُ منذ سنوات رغبةً بفعل ذلك معه، وتأملُ من الآن فصاعداً ألاّ يخونه حماسه، لأنّ هذه هي أولويّتها في الحياة. تداعبا تلك الليلة وقسطاً كبيراً من اليوم التالي، إلى أن أجبرهما الجوعُ والعطشُ على الخروج من الغرفة مترنّحين، ثملين وسعيدين، دون أن يفلت أحدهما يد الآخر، خوفاً من أن يستيقظا فجأة ويكتشفا أنّهما كانا ضائعين في أضغاث أحلام.

العاطفة التي راحت تربط بينهما منذ تلك الليلة، والتي كانا يُغذّيانها بعناية فائقة، حافظت عليهما وحمتهما في لحظات الخصام التي لا مناص منها. وراحت هذه العاطفة تستقرّ على الرقّة والضحك، وما عادا يسبران طرائق ممارسة الحبّ المئتين واثنتين وعشرين، لأنّه صار يكفيهما ثلاث أو أربع طرق، وما عاد ضروريّاً أن يتبادلا المفاجآت. فكلّما زادت معرفتهما لبعضهما بعض، زاد الودّ الذي يتقاسمانه. منذ ليلةِ الحبّ الأولى تلك ناما في عشّ ضيّق، يستنشقان النَفَسَ ذاته، ويحلمان الأحلام نفسها؛ لكنّ حياتهما لم تكن سهلة، فقد بقيا معاً ثلاثين عاماً تقريباً في عالم ما كان ليتّسع لزوجين مثلهما. ومع مرور الأعوام تحوّلت هذه المرأة الصغيرةُ

البيضاءُ وذلك الصينيُّ الطويلُ إلى مشهدٍ مألوفٍ في تشاياناتاون، دون أن يُصبحا أبداً مقبولين تماماً. تعلّما ألاّ يتلامسا أمام الناسِ، وأن يجلسا منفصلين في المسرح، ويسيرا في الشارع تفصل الواحد عن الآخر عدّة خطواتٍ. لم يكن باستطاعتهما أن يدخلا معاً إلى بعض المطاعم والفنادِق، وحين ذهبا إلى إنكلترا، هي لزيارة أمّها بالتبنّي، روز سومّرز، وهو لإلقاء محاضرات عن المعالجة بالإبر في عيادة هوبّز، لم يستطيعا السفر في الدرجة نفسها في السفينة ولا تقاسم القمرة ذاتها، رغم أنّها كانت تتسلل حذرة لتنام معه. لقد تزوّجا بحذرٍ على الطريقة البوذيّة، لكن لم يكن لارتباطهما أي قيمة شرعية. وظهر «محظوظ» ولين مسجَّلين كابنين غير شرعيين يعترف بهما الأب. وقد تمكّن تاو شيين من أن يتحوّل إلى مواطن بعد إجراءات ورشاوى لا متناهية. كان واحداً من القلّة القليلة الذين استطاعوا أن ينتصروا على قانون حرمان الصينيي (من الجنسية)، أحد القوانين العنصرية في كاليفورنيا. وكان إعجابه وولاؤه لوطن التبنّي غير مشروط، تماماً كما برهن عن ذلك في الحرب الأهلية، حين اجتاز القارّةَ كي يتقدّم متطوّعاً على الجبهة ويعمل مساعداً للأطباء اليانكيين خلال سنوات الصراع الأربع، ولكنّه كان يشعر بنفسه غريباً من الأعماق، ويرغب حتى ولو قضى كلّ حياته في أمريكا، أن يُوارى جسدُه في هونغ كونغ.

كانت أسرة إليثا سومّرز وتاو شيين تعيشُ في بيت فسيح ومريحٍ وأمتن وأفضل بناءً من بقيّة بيوت تشاياناتاون. كانوا يتكلّمون من حولهما بالكانتونية بشكلٍ أساسيّ، وكلّ شيء بدءاً من الطعام وحتى الصحف كان صينيّاً. وعلى بعد عدّة كتل من الأبنية كان لاميسيون، الحي الهيسباني، حيث اعتادت إليثا سومرّز أن تتجوّل لمتعة التكلم بالقشتالية، لكنّها كانت تقضي يومها بين الأمريكيين في محيط ساحة الوحدة، حيث قاعة شايها الأنيقة. وقد ساهمت منذ البداية بحلواها في إعالة الأسرة، لأنّ قسماً جيّداً من دخل تاو شيين كان ينتهي إلى أيدي الآخرين: فما لم يكن يذهب

لمساعدة المياومين الصينيين الفقراء في أوقات المرض والفواجع، يمكن أن ينتهي في المزادات السرّية للطفلات العبدات. فقد أصبحَ إنقاذُ حياة هذه المخلوقات من حياة العار مهمّة مقدّسةً بالنسبة إليه، هكذا فهمت إليثا سومّرز القضية منذ البداية، وتقبّلتها كميّزة أخرى من ميّزات زوجها، وكسبب من الأسباب الأخرى الكثيرة التي جعلتها تُحبّه. أقامت تجارة حلواها كيلا تُنهكه بطلب المال؛ وكانت بحاجة لاستقلاليّتها كي تمنح ابنيها أفضلَ تربيةٍ أمريكية، فقد رغبت بأن يندمجا تماماً في الولايات المتحدة، ويعيشا بعيداً عن التضييق المفروض على الصينيين أو الهيسبانيين. وقد استطاعت ذلك مع لين، لكنّ مخطّطاتها فشلت مع «محظوظ»، لأنّ الفتى كان معتدًّا بأصله، ولا يودّ الخروج من تشاياناتاون.

كانت لين تعبد أباها ـ من المستحيل ألاّ تُحِبَّ هذا الرجل الناعم والكريم ـ لكنّها كانت تخجل من عِرقها. وقد انتبهت منذ نعومة أظفارها إلى أنّ المكان الوحيد للصينيين هو حيّهم، إذ كانوا مكروهين في بقية المدينة؛ فرياضة الصبية البيض المحبّبة هي رجم *السماويين* أو قصّ جدائلهم بعد تهشيمهم ضرباً بالعصيّ. وكانت لين مثل أمّها تعيشُ قدماً في الصين وقدماً في الولايات المتحدة، وكلاهما كانتا لا تتحدّثان إلاّ بالإنكليزيّة فقط، وتسرحّان شعرهما، وترتديان ملابسهما على الطريقة الأمريكية، وإن كانتا تستخدمان الدثار والبنطلون الحريريين في البيت عادةً. ما كان عند لين من أبيها قليل، باستثناء العظام الطويلة والعينين الشرقيّتين، وأقل منه ما كان فيها من أمّها؛ ولا أحد يعرف من أين انبثق جمالُها النادر. لم يسمحا لها أن تلعب مثل أخيها «محظوظ» في الشارع قط، لأنّ نساء وطفلات الأسر المتنفّذة كنّ يعشن محبوسات تماماً. والمرّات النادرة التي سارت بها في الحي، كانت تمضي ممسكة بيد أبيها، مطرقة بنظرها في الأرض، كيلا تُثير الحشود التي تكاد تكون كلّها ذكوراً. كلاهما كان يلفت الانتباه: هي بجمالها الفائق، وهو لأنّه يرتدي الزيّ الأمريكي. كان تاو شيين قد تخلّى عن ضفيرة أبناء قومه، ويمضي بشعر قصير مردود إلى الخلف، وطقم أسود تام،

وقبّة مصفّحة، وقبّعة كأسية. بالمقابل كانت لين خارج تشاياناتاون تتجول بحرّية تامة، مثل أيّة فتاة بيضاء. وقد تربّت في مدرسةٍ بروتستانتية، حيث تعلّمت مبادئ المسيحية، التي حين أضيفت إلى طقوس أبيها البوذية؛ انتهت إلى الاقتناع بأنّ المسيح هو تجسيد لبوذا. كانت تذهب للقيام بالمشتريات وحيدة، وإلى دروس البيانو، وزيارة صديقات المدرسة، وتجلس في المساء في قاعة شاي أمِّها، حيث تُحضّر واجباتها المدرسية وتتسلّى بقراءة الروايات الرومانسية التي تشتريها بعشرة سنتات، أو ترسلها إليها جدّتُها لأمّها روز من لندن. لم تجدِ جهود إليثا سومّرز نفعاً لجعلها تهتمّ بالمطبخ أو أيّ نشاط منزليّ آخر: فابنتها لا يبدو أنّها خُلِقَت للأعمال اليومية.

حين نضجت لين حافظت على وجهِ الملاكِ الغريب، وامتلأ جسدها بالانحناءات المربكة. كانت صورها قد طافت لسنواتٍ دون أن يترتّب عليها نتائج كبيرة، لكنّ كلّ شيء تبدّل حين ظهرت تكويناتها النهائية في الخامسة عشرة من عمرها، ووعت جاذبيّتها الماحقة للرجال. أمّها، المذعورة أمام نتائج تلك القوّة الرهيبة، حاولت أن تسيطر على اندفاع إغراء ابنتها، ملحفةً عليها بقواعد التواضع، ومعلّمة إيّاها السير مثل عسكريّ، دون أن تحرّك كتفيها أو وركيها، لكنّ كلّ شيء كان بالنتيجة غير مجدٍ: فالذكور من أيّ عمر، وعرقٍ، وشرط كانوا يحومون حولها كي يتفرّجوا عليها. وحين وعت ميّزات جمالها، كفّت لين عن صبّ لعناتها عليه، كما فعلت في صغرها، وقرّرت أنها ستصبح موديلاً للفنانين لبعض الوقت، ريثما يأتي أميرٌ على حصانٍ أبيض مُجنّح ليحملها إلى السعادة الزوجية. كان والداها قد تسامحا في طفولتها مع صورها كحورية أو في الأراجيح كنزوةٍ من نزوات البراءة، لكنّهما اعتبرا ظهور شكلها الأنثوي الجديد أمام الكاميرا يشكّل خطراً هائلاً. «هذا الوقوف ليس عملاً نزيهاً، بل مِهلكة خالصة» هكذا حسمت إليثا سومّرز بحزن، لأنّها انتبهت أنّها لن تستطيع إقناع ابنتها بالابتعاد عن تخيّلاتها، ولا حمايتها من مكيدة الجمال. طرحت مخاوفها على

تاو شيين، في لحظةٍ من لحظات الكمال التي يرتاحان فيها بعد ممارسة الحبِّ، فوضّح لها أنّ لكلِّ امرئٍ *كرماهُ*، وليس من الممكن توجيه حياة الآخرين، بل تقويم مسار حياة المرء نفسه فقط؛ لكنّ إليثا لم تكن مُستعدّة للسماح للفاجعة بأن تأخذها على حين غرّة. لقد رافقت لين دائماً حين كانت تقف أمام الكاميرا، منتبهة إلى الحشمة ـ لا أريد ربلات ساق عارية بذريعة الفن ـ والآن والفتاة في التاسعة عشرة من عمرها صارت مستعدة لمضاعفة حذرها.

ـ هناك رسّام يجري وراء لين. يحاول أن تقف أمامه موديلاً من أجل لوحة سالومي ـ أعلنت ذات يومٍ لزوجها.

ـ لوحة لمن؟ ـ سأل تاو شيين وهو لا يكاد يرفع نظره عن الموسوعة الطبية.

ـ سالومي صاحبة الأوشحة السبعة يا تاو. اقرأ الكتاب المقدّس.

ـ طالما أنّها من الكتاب المقدّس فلا بدّ، كما أفترض، أن تكون جيّدة.

ـ هل تعرف كيف كانت الموضة أيّام القديس يوحنّا المعمدان؟ إذا غفلتُ سيرسمون ابنتك عاريةَ النهدين!

ـ لا تغفلي إذن ـ ابتسم تاو وهو يضمّ زوجته من خصرها ويجلسها فوق الكتاب الضخم الذي كان معه على ركبتيه، منبّها إيّاها ألاّ تستسلم للخوف الناتج عن حيل الخيال.

ـ آه يا تاو! ماذا سنفعل بلين؟

ـ لا شيء يا إليثا، ستتزوّج وتنجب لنا أحفاداً.

ـ ما زالت طفلة!

ـ لو أنّها في الصين لكانت تخطّت عمرَ الحصول على الخطيب.

ـ نحن في أمريكا ولن تتزوّج من صينيّ ـ حسمت .

ـ ولماذا؟ ألا يعجبك الصينيون؟ ـ سخر *الزهونغ ـ يي*.

ـ لا يوجد رجل مثيل لك في العالم يا تاو، لكنّني أعتقد أن لين ستتزوّج من أبيض.

ـ الأمريكيون لا يعرفون ممارسة الحبّ كما قيل لي.

ـ ربّما استطعت أن تُعلِّمهم ـ احمرّت إليثا خجلاً، وأنفها في رقبة زوجها.

جلست لين موديلاً للوحة سالومي بشبكٍ من الحرير بلون اللحم تحت الأوشحة، أمام نظرة أمّها التي لا تكلُّ، لكنّ إليثا سومِّرز لم تستطع أن تبقى بالثبات ذاته حين عرضوا على ابنتها الشرف الهائل لأن تصبح موديلاً لتمثال الجمهوريّة، الذي سيرتفع وسط ساحةِ الوحدة. دامت الحملةُ لجمعِ الأرصدة شهوراً، وساهمَ الناسُ بما استطاعوا، طلاّب المدارس ببعض السنتات، الأرامل ببعض الدولارات والوجهاء من أمثال فِليثيانو رودريغِث دِ سانتا كروث بشيكاتٍ كبيرة. وكانت الصحف تنشر كلَّ يوم مجموع تبرعات اليوم السابق، حتى جمعوا المبلغ الكافي لتكليف نحّات مشهورٍ جيء به من أجل ذلك المشروع الطموح، خصّيصاً من فيلادِلفيا. تنافست أبرزُ أسرِ المدينة بإقامة الحفلات والرقصات لتفسح المجال أمام الفنّان كي يختار بناتها؛ وكان معروفاً أنَّ موديل تمثال الجمهورية يجب أن يكون رمزَ سان فرانسيسكو، وجميع الشابات كنّ يطمحن إلى مثل هذا التميّز. بحثَ النحّات، الرجل الحديث وصاحب الأفكار الجريئة، عن الفتاة المثالية خلال أسابيع، لكنّ ما من واحدة أرضته. أراد من أجل تمثيل الأمّة الأمريكية الصاعدة، المكوَّنة من مهاجرين شجعان جاؤوا من جهات الأرض الأربع، فتاةً من أعراق مختلطة، كما أعلن. ذُعِرَ مُمَوِّلو المشروع وسلطات المدينة؛ لم يكن باستطاعة البيض أن يتصوّروا أنّ أناساً من لونٍ آخر يمكن أن يكونوا بشراً كاملين، وما من أحدٍ أرادَ أن يسمع شيئاً عن خلاسيّة تترأس المدينة معتلية مسلّة ساحة الوحدة، مثلما يرغب ذلك الرجل. كانت كاليفورنيا تحتل مكانة الطليعة في شؤون الفن، حسب رأي الصحافة، لكن موضوع الخلاسية كان طلباً مُبالغاً فيه. وكان النحّات على وشك أن يُذعِنَ

للضغط ويختار فتاة متحدّرة من دنماركيين، حين دخل بالمصادفة إلى محل حلويات إليثا سومّرز مستعدّاً كي يواسي نفسه بإصبعٍ من الشوكولاتة ورأى لين. إنها المرأة التي طالما بحث عنها للتمثّال، طويلة، حسنة التكوين، تامّة العظام، ولم تكن تملك كبرياءَ إمبراطورةٍ ووجهاً كلاسيكيّ التقاسيم وحسب، بل تملك أيضاً البصمة الغريبة التي يبحث عنها. كانت تنطوي على شيء يتخطّى الانسجام، شيءٍ فريدٍ، مزيج من الشرق والغرب، من الشهوانية والبراءة، من القوّة والرقّة، وقد سحرته تماماً. حين أبلغَ الأمّ بأنّه اختارَ ابنتها نموذجاً، مقتنعاً بأنّه كان يقدّم شرفاً عظيماً لتلك الأسرة المتواضعة، بائعة الحلوى، اصطدم برفضٍ قاطِع؛ فقد سئمت إليثا سومّرز من إضاعة الوقت في مراقبة لين في مختبرات المصوّرين، الذين اقتصرت مهمّتهم على مجرّد أن يكبسوا زرّاً بإصبعهم . وفكرة القيام بذلك أمام ذلك الرجل الصغير، الذي يخطّط لتمثال من البرونز بارتفاع يبلغُ عدّة أمتار بدت لها أمراً خانقاً، لكنّ لين كانت فخورة جدّاً أمام أمل أن تُصبِحَ «الجمهورية»، بحيثُ لم تجرؤ على الرفض. وجد النحّات نفسه متحرّجاً بإقناع الأم بأنّ دثاراً قصيراً هو زيٌّ مناسِبٌ في تلك الحالة، لأنّها لم ترى علاقة بين الجمهورية الأمريكية الشمالية والزيّ الإغريقي، لكنّهما اتفقا أخيراً على أن تقف لين عاريةَ الساقين والذراعين، مستورةَ النهدين.

كانت لين تعيش غريبة عن انشغالِ أمّها بالعناية بفضيلتها، ضائعة في خيالاتها الرومانسية. وباستثناء مظهر جسدها المُقلِق؛ كانت شابّة عادية وطبيعية، تنقل أبياتاً من الشعر في دفتر وردِيّ الصفحات، وتجمع أشكالاً مُصَغَّرة من الخزف. لم يكن وهنُها أناقةً بل كسلاً، ولا حزنها غموضاً بل خَواءً. «اتركوها بسلام، فما دمتُ حيّاً لن ينقص لين شيئاً» هكذا كان يَعِدُ «محظوظ» أحياناً كثيرةً، لأنّه الوحيد الذي انتبه حقيقةً إلى مدى بلاهة أخته.

كان «محظوظ»، الذي يكبر لين بعدّة سنواتٍ، صينيّاً خالصاً. لم يكن يرتدي إلا درّاعة وبنطلوناً مرخيّاً، وحزاماً على خصره،

وشبشباً خشبيّاً، لكنّه يعتمر قبّعةَ راعي بقرٍ دائماً، باستثناء الحالات التي كان عليه أن يقوم ببعض الإجراءات القانونية، أو التقاط صورة فوتوغرافية. لم يكن فيه شيء من نبل أبيه المتميّز ورقّة أمّه أو جمال أخته. كان ضئيلاً، قصير الساقين، مربّع الرأس، وزيتونيّ البشرة، لكنّه جذّابٌ بابتسامته الساحرة وتفاؤله المُعدي، الناتج عن يقينه بأنّه موسومٌ بحسن الحظّ. كان يُفكّر بأنه ما من شيء سيِّئ يمكن أن يحدث له، فسعادته وحظّه مضمونان بالولادة. اكتشف هذه النعمة في التاسعة من عمره، بينما كان يلعب *الفان ـ تان* في الشارع مع صِبْيَةٍ آخرين، ففي ذلك اليوم وصل إلى البيت مُعلِناً أنّه بدءاً من تلك اللحظة سيكون اسمه «محظوظ» ـ بدلاً من إبانيزر ـ ولم يعد يردّ على من يناديه باسم آخر. لقد رافقه الحظ السعيد إلى كلّ مكان، ربح في كلّ ألعاب القمار الموجودة، ورغم أنّه كان مشاغباً وجريئاً، إلاّ أنّه لم يقع في مشاكل مع *التونغات* أو سلطات البيض. وحتى الشرطة الإيرلنديّة كانت تستسلم لملاحته، فبينما كان رفاقه السيّئون يتلقون العصيّ، يخرج هو من الورطات بنكتة أو حيلة من الحيل السحريّة الكثيرة التي كان من الممكن أن يقوم بها بيدي البلهوان العجيب. لم يكن تاو شيين يُذعن لخفّة أفكار ابنه الوحيد، ويلعنُ نجم السعد الذي يسمح له بتفادي بذل الجهد مثل البشر العاديين والطبيعيين. لم يكن ما يرغب له به سعادة بل بصيرة. كان يضايقه أن يراه يمرّ في هذا العالم مثل عصفور سعيد، لأنّ كَرْمَته سوف تخرب بهذه الطريقة. فهو يعتقد أن الروحَ تتقدّمُ باتجاه السماء بالشفقةِ والمعاناة، متغلبةً على العوائق بنبلٍ وكرم، لكنّ إذا كان طريق «محظوظ» سهلاً دائماً، فكيف سيتخطّى نفسه؟ كان تاو شيين يخاف عليه من أن يتقمّص في المستقبل في دُوَيبةً، ويتمنّى لابنه البكر، الذي عليه أن يُساعِده في شيخوخته ويُكرّم ذكراه بعد موته، أن يتابِع تقليد الأسرة المتمثل بعلاج الناس، بل ويحلمُ بأن يراه وقد صار أوّلَ طبيب صينيّ ـ أمريكي يحمل شهادة؛ لكنَّ «محظوظ» كان يشعر بالرعب من شراب المغليّات الطبيّة سيّئة الرائحة، ومن إبر الوخز، وما من شيءٍ أثار اشمئزازه مثل أمراض الآخرين، ولم يفهم تمتّع والده حيال مثانة ملتهبة أو وجهٍ مبقع بالبثور. وكان عليه، حتى إتمامه السادسة

عشرة وانطلاقه إلى الشارع، أن يُساعِد تاو شيين في عيادته، الذي راح يردّد عليه أسماء الأدوية وتطبيقاتها، ويُحاول أن يُعلّمه فن أخذ النبض الصعب، وقياس الطاقة، وتحديد المزاج، والمهارات التي كانت تدخل من إحدى أذني الشاب لتخرج من الأخرى، لكنّها على الأقلّ لا تُضنيه، مثل نصوص الطب الغربية العلمية التي يُثابر والده على دراستها. كانت تُرعبه صورُ الجسم التوضيحية دون جلد، بعضلاته وأعصابه وعظامه مكشوفة في العراء، لكن بالسروال الداخلي، وكذلك العملياتُ الجراحية الموصوفة بأكثر تفاصيلها قسوةً. لم تنقصه المبررات كي يبتعد عن العيادة، لكنّه كان يبدو دائماً مستعدّاً حين يتعلّق الأمر بإنقاذ إحدى فتيات الـ *سينغ ـ سونغ*، اللواتي اعتاد والده أن يحملهنّ إلى البيت. كان هذا النشاطُ السرّيّ والخطيرُ على مقاسه. فما من أحد أفضل منه لنقل الفتيات الصغيرات عديماتِ النَّفَس على مرأى من *التونغات*، وما من أحدٍ له مهارته في إنقاذهن من الوحل، ما إن يستعدن صحّتهن قليلاً، وما من عبقرّي مثله لجعلهنَّ يختفين إلى الأبد في جهات الحرّية الأربع. لم يكن يفعل ذلك مهزوماً بالشفقة مثل تاو شيين، بل مدفوعاً بحماس مقارعة الخطر، وإثبات حظّه الحسن.

كانت لين سومّرز قد رفضت قبل أن تُدرك التاسعة عشر عدداً من طالبي ودّها، واعتادت على إطراء الذكور، وصارت تتلقاهُ بأنفة مَلِكَة، لكن ما من مُعجَبٍ كانت تنطبق صورتُهُ على صورة أميرها الرومانسيّ، وما من أحدٍ منهم قال الكلمات التي تكتبها جدّتُها روز سومّرز في رواياتها، فحكمت على الجميع بأنّهم عاديين، غير جديرين بها. وظنت أنّها عثرت على قدرها الأعلى الذي كان لها الحقُّ به عندما تعرَّفت على الرجل الوحيد الذي لم ينظر إليها مرَّتين، ماتيّاس رودريغِث دِ سانتا كروث. فقد رأته في بعض المناسبات، من بعيدٍ في الشارع، أو في العربة مع باولينا دِل بالْيِه، لكنّهما لم يتبادلا كلمة واحدة، فهو أكبر منها سنّاً بكثير، ويعيش في دوائر ليس للين من مدخل إليها، ولولا موضوع تمثال الجمهورية ما التقيا قط.

بذريعة مراجعة تكاليف المشروع كان السياسيون والوجهاء الذين ساهموا في تمويل التمثال يتواعدون في مشغل النحات. وكان الفنان ممن يحبّون المجد والحياة الطيّبة؛ فبينما هو يعملُ غارقاً ظاهريّاً في أساس القالب الذي سيصبّ فيه البرونزَ، كان يتمتّع برفقة أولئك الذكور الأقوياء، وزجاجات الشمبانيا، والمحار الطازج، وزيز البحر الذي يأتي به الزائرون. وكانت لين سومّرز تتوازن فوق المنصّة المضاءة بكوةٍ في السطح حيث يتسرّب النور، على رؤوس أصابعها، وذراعاها إلى الأعلى في وضعيّة من المحال المحافظة عليها أكثر من عدّة دقائق، تحمل إكليلَ غارٍ في يدٍ، ورقّاً كُتِب عليه الدستور الأمريكي في اليد الأخرى، مرتديةً دثاراً خفيفاً مموجاً يتدلّى من كتفها وحتى ركبتيها، يكشف عن جسدها أكثر مما يستره. لقد كانت سان فرانسيسكو سوقاً جيّداً للعري الأنثوي؛ فكلّ البارات تعرضُ لوحاتٍ لحوريات ممتلئات، وصورَ عاهراتٍ مؤخّراتهن مكشوفة، وزخارفَ جصّيّة لحوريات ماء يلاحقهن الساتيرات الذين لا يكلّون؛ إنّ أيّ نموذج عارٍ تماماً ما كان ليثير من الفضولِ ما تُثيره هذه الفتاة التي تأبى أن تخلعَ ثيابَها، ولا تنفصل عن عيني أمّها اليقظة. كانت إليثا سومّرز، التي ترتدي ملابس داكنة، تجلس متخشّبةً على كرسيٍّ بجانب المنصّة حيث تقِف ابنتُها، تُراقبها دون أن تقبل المحار أو الشمبانيا التي يُحاولون إلهاءها بها. فهؤلاء العجائز المنحوسين يذهبون إلى هناك مدفوعين بالشبق، وليس بحبّ الفن، كان هذا واضحاً وضوحَ الماء. لم يكن لها من سلطة كي تمنع حضورهم، لكنّها على الأقل تستطيع أن تضمن قدر الإمكان ألاّ تقبل ابنتُها الدعوات، وألاّ تضحك للمزاح، أو تردَّ على الأسئلة الطائشة. «ما من شيء مجّاني في هذا العالم. ستدفعين ثمن هذه الخرداوات غالياً جدّاً»، هكذا كانت تُحذِّر الفتاةَ حين تغلي حنقاً لأنّها تجد نفسها مُجبرة على رفض هديّة. كان الوقوف من أجل التمثال أبديّاً ومُضجراً، يجعلُ ساقي لين تنملان وتتخدّران من البرد. وكانت تلك الأيّام الأولى من كانون الثاني والمدافئ في الزوايا لا تتمكّن من تدفئة ذلك الحوش ذي السقوف العالية، الذي تتقاطع فيه تيارات الهواء. كان النحّات يعمل ببطء

مستفزّ للأعصاب وهو يرتدي معطفاً، يُخرِّبُ اليومَ ما صنعه بالأمس، كما لو أنّه لم يكوّن فكرة تامّة على الرغم من مئات مسودّات تمثال الجمهورية التي ألصقها على الجدران.

وذات ثلاثاء مشؤوم ظهر فِليثيانو رودريغِث دِ سانتا كروث مع ابنه ماتيّاس. فقد سمع بالنموذج الغريب وفكّر بالتعرف عليها قبل أن يرفعوا النصب في الساحة، ويظهرَ اسمُها في الصحف، وتتحوّل الفتاة إلى حصن منيع، في حال أنّه تمّ تدشين النصب افتراضاً. فحسب السرعة التي يعملون بها كان من الممكن تماماً أن يكسب معارضو المشروع المعركة قبل سكبه بالبرونز، ويصير كلّ شيء عدماً؛ فقد كان غير الراضين عن فكرة أن تكون رمز الجمهورية ليست أنكلوسكسونية كثيرين. وكان قلبُ الوغد فِليثيانو ما يزال ينتفض لرائحة المغامرة، لذلك ذهب إلى هناك. كان يتجاوز الستين من عمره، لكنّ كون الموديل لم تُكمِل العشرين بعد لم يبدُ له عائقاً عصيّاً؛ كان مقتنعاً أنّ ما لا يمكن للمال أن يشتريه قليل جدّاً. كفته لحظة لكيّ يُقدّر الموقف حين رأى لين فوق المنصّة، وهي في ذلك السن الشاب والهشاشة، ترتعش تحت دثارها غير اللائق في محتَرَف مليء بالذكور المستعدين لالتهامها؛ لكن لم تكن الشفقة على الفتاة أو الخوف من المنافسة بين أكلة لحوم البشر هو الذي أوقف اندفاعه الأول لعِشْقها، بل إليثا سومّرز. فقد عرفها على الفور، رغم أنّه لم يرها إلاّ مرّات قليلة جدّاً. ولم يشك لحظة بأنّ الموديل الذي سمع عنه كثيراً من التعليقات هو ابنة صديقة زوجته.

لم تنتبه لين سومّرز إلى حضور ماتيّاس إلا بعد نصف ساعة، حين أعلن النحات عن انتهاء الجلسة، واستطاعت أن تتخلّص من إكليل الغار والرقّ، وتهبط عن المنصّة. نشرت أمّها معطفاً على كتفيها وصبّت لها فنجاناً من الشوكولاتة، وحملتها إلى خلف الحاجز، حيث عليها أن ترتدي ملابسها. كان ماتيّاس بجانب النافذة ساهياً يتأمّل الشارع؛ وعيناه الوحيدتان اللتان لم تكونا مغروزتين فيها في تلك اللحظة. وقد لاحظت لين على الفور جمالَ ذلك الرجل الذكوريّ، شبابه وأصله الجيّد، ثيابه الأنيقة، هيئته

الشموخ، خصلة شعره الكستنائيّة الساقطة بفوضى مدروسة على جبينه، ويديه الكاملتين بخاتميهما الذهبيين في الخنصرين. تظاهرت وقد أخذتها الدهشة حين رأت تجاهله لها، بالتعثر كي تلفت انتباهه. عدةّ أيدٍ هُرِعَت لإسنادها، إلاّ يدا المتأنّق الواقف عند النافذة، الذي لم يكد يكنسها بنظره، وبقي في لامبالاة تامّة، كما لو أنها جزء من الأثاث. عندئذٍ قرّرت لين، بينما خيالها يجمح، دون أن يكون عندها أيّ حجّة تتمسّك بها، بأنَّ ذلك الرجل هو الحبيب الوسيم الذي بشّرتها به روايات الحبّ خلال أعوام: لقد عثرت أخيراً على نصيبها. وبينما هي ترتدي ملابسها خلف الحاجز، كانت حلمتاها قاسيتين مثل حصاتين.

لم تكن لامبالاة ماتيّاس مصطنعة، الحقيقة أنّه لم يتوقّف عند الشابة، فقد كان هناك لأسباب بعيدة جدّاً عن الشهوانية: إذ كان عليه أن يتكلّم عن المال مع والده، ولم يجد فرصة أخرى لذلك. كان غارقاً إلى عنقه، ويحتاج على الفور إلى شيكٍ يُغطّي به ديون قماره في إحدى مقامِر تشاياتاون. كان والده قد حذّره بأنّه لن يستمرّ في تمويل تلك التسليات، ولولا أنّ في الأمر حياة أو موت، كما أعلمه بوضوح دائنوه، لتدبّر أمره وراح ينتزع الضروريّ منها من أمّه. ومع ذلك لم يكن *السماويون* في تلك المناسبة مستعدّين للانتظار، وافترض ماتيّاس بشكل مصيب أن زيارة النحات ستجعل مزاج أبيه يروقُ، وستسهل حصوله على ما يريده منه. وحصل ذلك بعد عدّة أيّام، خلال إحدى النزهات التي قام بها مع أصدقائه البوهيميين، حين علم أنّه كان في حضرة لين سومّرز، أكثر الفتيات المطلوبات في تلك اللحظة. وقد اضطّر أن يجهد نفسه كي يتذكّرها، ووصل به الأمر حدّ أنّه تساءل ما إذا كان سيعرفها إذا رآها في الشارع. وحين ظهرت المراهنات على من سيكون الأوّل في إغوائها سجّل نفسه لأنّه كسول، ثمّ وبغروره المعتاد أعلن أنّه سيقوم بذلك على ثلاث مراحل. المرحلة الأولى، كما قال، أن يتمكّن من جعلها تذهب إلى غرفة العازب وحيدةً ليقدّمها إلى رفاقه، والثانية أن يقنعها بالوقوف عارية أمامهم، والثالثة أن يُمارِس معها الحبّ، كلّ ذلك

خلال مهلة شهر واحد. وحين دعا ابن خاله سِبِرو دِل بالْيِه ليتعرف مساء الأربعاء على أحلى امرأة في سان فرانسيسكو، كان ينفّذ المرحلة الأولى من المراهنة. لم يلقَ صعوبةً في دعوة لين بإشارة ذكية عبر نافذة قاعة شاي أمّها، وانتظارِها في الزاوية حين خرجت بذريعة ما مبتدعة، والسير معها في الشارع مسافةَ كوادرتين، ومغازلتها بعدّة عباراتٍ كانت ستحدث بهجة عند أيّ امرأة أكبر تجربة منها، ثم التواعد معها في مُحتَرَفه، منبهاً إيّاها كي تأتي وحدها. وقد شعر بالخيبة لأنّه افترض أنّ التحديّ سيكون أكثر أهميّة. ولم يضطر قبل أربعاء الموعد حتى لأن يُلَمِّعَ نفسه كثيراً كي يغويها، إذ يكفي الفتاة، التي كانت ترتعِدُ أمامه جاهزة للحبِّ، بعضُ النظرات الذابلة، احتكاك شفتيه بخدّها، بعض الهمسات والجمل المتحذلقة في أذنها كي ينزع منها أسلحتها. كانت تلك الرغبة الأنثوية بالاستسلام والمعاناة بالنسبة إلى ماتيّاس مشجية، وهو بالضبط ما يمقته عند النساء، لذلك كان ينسجم تماماً مع أماندا لويل التي لها الموقف الصفيق ذاته من المشاعر والتبجيلي تجاه اللذة. لين، المسحورة مثل فأرٍ أمام أفعى كوبرا، وجدت أخيراً من يكون هدفاً لفن بطاقات الحب، والصور المطبوعة للفتيات الحزينات، والمغازلين المتأنقين المزدهرة آنذاك. ولم تكن تعرف أنّ ماتيّاس يُشاطر أصدقاءه تلك البطاقات الرومانسية. حين أراد ماتيّاس أن يُريها لسِبِرو دِل باليه رفض هذا ذلك. وكان ما يزال يجهلُ أنّ مرسلتها هي لين سومّرز، لكنّ فكرة السخرية من عشق شابّة ساذجة كانت تُثير مقته. «يبدو أنّك ما تزالُ فارساً يا ابنَ الخال، لكن لا تهتم، فهذا يشفى بسهولة مثل الشفاءِ من العذرية» علّق ماتيّاس.

حضر سِبِرو دِل بالْيِه دعوةَ ابن خاله في ذلك الأربعاء الجدير بالذكر للتعرف على أحلى امرأة في سان فرانسيسكو، كما أعلن له، فوجد أنّه لم يكن الوحيد المدعوّ إلى تلك المناسبة؛ فقد كان هناك ستّة بوهيميين على الأقل، والمرأة نفسها ذات الشعر الأحمر التي رآها لثوانٍ قبل سنتين، حين ذهب مع وليامز لإنقاذ ماتيّاس من مدخن الأفيون، وهم يشربون ويدخنون في غرفة العازب. كان

يعرف بمن يتعلّق الأمر، لأنّ ابن خاله كلّمه عنها، واسمها يدورُ في عالم الملاهي العابثة والحياة الليلية. إنّها أماندا لويل ، صديقة ماتيّاس العظيمة، التي اعتاد أن يسخر معها من الفضيحة التي أثارتها أيّام كانت عشيقة فِليثيانو رودريغِث دِ سانتا كروث. وكان ماتيّاس قد وعدها بأن يهديها بعد موت والديه سرير نبتون الذي أوصت باولينا دِل بالْيِه عليه إلى فلورنسا نِكايةً به. لم يبقَ عند لويل من ميول البغاء إلا القليل، فقد اكتشفت في سنّ نضجها كيف أنّ معظم الرجال عتاة ومُملّون، لكنّها كانت على ألفةٍ مع ماتيّاس على الرغم من اختلافاتهما الأساسية. ففي ذلك الأربعاء ، بقيت منعزلةً، مستلقية على أريكة تشربُ الشمبانيا، واعية أنّها لمرّة واحدة ليست مركز الانتباه. وقد دُعيت كيلا تجِد لين سومّرز نفسها وحيدةً بين الرجال في أوّل موعِدٍ لها، فتتراجع مذعورة.

بعد دقائق قليلة قرعوا البابَ وظهرت موديل الجمهورية الشهيرة متدثرةً بدثار صوفي ثقيل وقلنسوة على رأسها. وحين خلعت المعطف رأوا وجهاً عذرياً متوّجاً بشعر أسودَ مفروقاً من وسطه، ومسرّحاً إلى الخَلف في كعكة بسيطة. شعرَ سِبِرو دِل بالْيِه بقلبه ينطُّ، وبكامل دمه يتزاحم في رأسه، مدوّياً في صدغيه مثل طبلِ فرقة عسكرية. لم يتصوّر قط أنّ ضحيّة مراهنة ابن عمّته هي لين سومّرز. لم يستطع أن يقول كلمة واحدة، ولا حتى تحيتها كما فعل الآخرون، بل تراجع إلى زاوية وبقي هناك طوال الساعة التي استغرقتها زيارة الشابّة، نظرته عالقة بها، وقد شلّه الضيق. لم يشكّ بما ستؤول إليه مراهنة أولئك الرجال. رأى لين سومّرز مثل خروف على حجر التضحية، جاهلة مصيرها. فصعدت موجة من الكراهية ضدّ ماتيّاس وأنصاره بدءاً من قدميه، مختلطةً بحنق أخرس على لين. لم يستطع أن يفهم كيف أنّ الفتاة لم تنتبه إلى ما يجري، كيف لا ترى مكيدة تلك الإطراءات مزدوجةِ المعنى، من كأس الشمبانيا الذي يملؤونه لها مرّة بعد أخرى، إلى الوردة الحمراء التامّة التي وضعها لها ماتيّاس في شعرها، فكلّ شيء متوقّع وسوقيّ إلى حدّ أنّه يُسبب

الغثيان. «لا بدّ أنّها غبيّة لا دواء لها»، فكّر مشمئزاً منها كما من البقيّة، لكنّه مهزوم من قِبل حبٍّ قاهِر، انتظر سنوات فرصةً كي يبزغ، والآن يتفجّرُ صاعقاً إيّاه.

ـ هل بك شيء يا ابن الخال؟ ـ سأل ماتيّاس ساخراً، ومقدّماً له كأساً.

لم يستطع الردَّ، واضطرَّ أن يشيح بوجهه كي يُخفي نيّته القاتلة، لكنّ الآخرَ تكهّن بمشاعره، واستعدّ كي يمضي بالمزحة بعيداً. عندما أعلنت لين سومّرز أنَّ عليها أن تذهب، بعد أن وعدت بالعودةِ في الأسبوع القادم لتقف أمام كاميرات هؤلاء «الفنّانين». طلب ماتيّاس من ابن خاله أن يُرافِقها. وهكذا وجد سِبِرو نفسه وحيداً مع المرأة التي أبقت على حبّ نيبيا الملحاح على الحدِّ. سار مع لين مسافة كتل الأبنية القليلة التي تفصل محترف ماتيّاس عن قاعة شاي إليثا سومّرز، مخبولاً إلى حدّ أنَّه لم يعرف كيف يبدأ معها حديثاً مبتذلاً. كان الوقت قد تأخر كي يكشف لها عن المراهنة، فهو يعرف أنّ لين عاشقة لماتيّاس بالانبهار الرهيب ذاته الذي يعشقها هو به. لن تصدّقه، وستشعر بالإهانة حتى ولو شرح لها أنّها لا تكاد تكون بالنسبة إلى ماتيّاس أكثر من دمية، وربّما ذهبت إلى المذبح مباشرة وقد عماها الحبّ. كَسَرَتْ الصمتَ المزعج، لتسأله عمّا إذا كان هو ابن الخال التشيلي الذي ذكره ماتيّاس. فأدرك سِبِرو تماماً أنّ الشابّة لا تتذكّر أدنى شيء عن اللقاء الأوّل الذي تمّ قبل سنوات، حين كانت تلصق صوراً في الألبوم على ضوء بلور النافذة الملوّن، ولا يخطر ببالها أنّه كان يُحبّها منذ ذلك الوقت بعناد الحبّ الأوّل، كما أنّها لم تنتبه إلى أنَّه يحوم حول محل الحلويات، ويعبر الشارع باستمرار. ببساطة لم تُسجّله عيناها. وحين ودّعها مرّر لها بطاقته، وانحنى بحركة من سيُقَبّل يدَها، وتمتم راجياً إيّاها ألاّ تتردَّدَ بطلبه إذا ما احتاجت إليه ذات مرّة. منذ ذلك اليوم تحاشى ماتيّاس، وغاصَ في الدراسة والعمل كي يُبعد عن ذهنه لين سومّرز، والمراهنة المشينة. وحين دعاه ابن عمّته يوم الأربعاء التالي إلى

الجلسة الثانية، التي كان متوقّعاً أن تتعرّى فيها الفتاةُ شَتَمَهُ. بقي عدّة أسابيع لا يستطيع أن يكتب سطراً واحداً لنيبيا، ولا أن يقرأ رسائلها التي احتفظ بها غير مفتوحة، يخنقه الشعور بالذنب. كان يشعر بنفسه خسيساً، كما لو أنّه شارك في صلفِ تدنيس لين سومّرز.

كسب ماتيّاس رودريغث دِ سانتا كروث الرهانَ دون جهد، لكنّ كَلْبِيَّتَه فشلت أثناء ذلك، ووجد نفسه عالقاً في أكثر ما كان يخافه في هذا العالم: ورطة عاطفية. لم يصل به الأمر إلى أنّه عشق لين سومّرز الجميلة، لكنّ الحب غير المشروط، والبراءة التي استسلمت بها له، تمكّنا من إثارة مشاعره. فقد وضعت الفتاة نفسها بين يديه بكلّ ثقة، مستعدة أن تفعل ما يريده، دون أن تحكم على غاياته، أو تحسب حِساباً للنتائج. قدّر ماتيّاس السلطة المطلقة التي كانت له عليها حين رآها عارية في علّيته، محمرةً من الخجل، تُغطّي عانتها ونهديها بذراعيها، وسط دائرةِ رفاقِ السوء الذين يتظاهرون بأنّهم يُصوِّرونها، دون أن يُخفوا هياج الكلاب الشبقة الذي تُثيره عندهم تلك اللعبة الوحشيّة. لم يكن لجسد لين شكل ساعة الرمل الدراج في ذلك الوقت، لا وركان ضخمان ولا ثديان هائلان يفصل بينهما خصر مستحيل، كانت رقيقة متعرِّجةً، طويلةَ الساقين، مستديرةَ النهدين داكنة الحلمتين، ولبشرتها لون فاكهة الصيف، وشالٌ من الشعرِ الأسودِ السابلِ يصل إلى منتصف ظهرها. أُعجب بها ماتيّاس مثل الكثير من الأشياء الفنيّة التي كان يجمعها، بدت له لذيذة، لكنّه تأكّد راضياً أنّها لا تحدث عنده أيّة جاذبية. أمرها، دون أن يُفكّر بها ولمجرّد أن يتبجّح أمام أصدقائه ويمارس وحشيته، أن تُبعِد ذراعيها. نظرت لين إليه لثوانٍ، أطاعته بعدها ببطء، بينما راحت دموعُها تجري على خدّيها من الخجل. أمام هذا النحيب غير المتوقّع ساد صمت بارد في الغرفة، رفع الرجال نظرهم، انتظروا زمناً بدا طويلاً جدّاً، والكاميرات في أيديهم، لا يدرون ما يفعلون. عندئذ أخذ ماتيّاس الذي خجل لأوّل مرّة في حياته معطفاً وغطّى به

لين، لافّاً إيّاها بين ذراعيه. «اذهبوا! انتهى هذا» أمر ضيوفَهُ الذين راحوا ينسحبون مرتبكين الواحدُ بعد الآخر.

حين أصبحا وحيدين أجلسها ماتيّاس على ركبتيه وراح يهدهدها كما يهدهد طفلاً، طالباً العفو في تفكيره، دون أن يقدر على صياغته بالكلمات، بينما تابعت الفتاةُ بكاءها الأخرس. أخيراً قادها بنعومة خلف الحاجز، إلى السرير وضاجعها وهو يُعانقها مثل أخ، داعب رأسها وقبّلها على جبينها، وقد أربكه شعور مجهول جبّار لا يعرف ماذا يُسمّيه. لم يكن يرغب بها، إنما أراد أن يحميها، أن يُعيد إليها براءتها غير ممسوسة، لكنّ نعومة بشرة لين المحالة، شعرها الحيّ الذي لفّه، ورائحة تفّاحه هزمته. الاستسلام اللامحدود لذلك الجسد البالغ الذي راح يتفتّح من ملامسة يديه، استطاع أن يُدهِشه، فوجد نفسه يسبرها دون أن يدري كيف، يُقبّلها بلهفة لم تُحدثها عنده امرأة قط ، يدخل لسانه في فمها، في أذنيها، في كلّ مكان، يهصرها، يلجُ فيها في دُوارٍ من الوله الجموح، ممتطياً إيّاها بلا رحمة، أعمى، جامحاً حتى انفجر في داخلها في رعشةٍ ماحقة. وخلال لحظة قصيرة جدّاً وجدا نفسيهما في بُعدٍ آخر، بلا دفاع، عاريين جسداً وروحاً. استطاع ماتيّاس أن يملك وحي ودِّ تفاداه حتى تلك اللحظة، دون أن يدرى حتى أنّه موجود، اجتاز حدوداً أخرى، ووجد نفسه على الجانب الآخر، مجرّداً من الإرادة. كان قد ملك عشّاقاً ـ نساء ورجالاً ـ أكثر مما من المناسب أن يتذكّر، لكنّه لم يفقد قط سيطرته على نفسه، سخريته، لامبالاته، وفكرةَ فردانيّته المعصومة، بتلك الطريقة، ليذوب ببساطة مع كائن بشريّ آخر. بطريقة ما هو أيضاً فَقَدَ عذريته في ذلك العناق. لم تكد الرحلةُ تدوم جزءاً من ألف من الزمن، لكنّها كانت كافيةً كي تُرعبه، فعاد إلى جسده منهكاً، وتحصّن على الفور في درع سخريته المعتادة. حين فتحت لين عينيها كان قد صار شخصاً آخرَ، ولم يعد هو نفسه الذي مارست معه الحبّ، بل السابق، لكنّها لم تكن تملك التجربة كي تعرف ذلك. استسلمت متألمةً ودامية وسعيدةً لسراب حبّ وهميّ، بينما بقي

ماتيّاس يُعانقها وروحه تُحلِّقُ بعيداً. بقيا على هذا الحال حتى غادر النورُ النافذةَ تماماً، وأدركت أنَّ عليها أن تعودَ إلى حيث أمّها. ساعدها ماتيّاس على ارتداء ملابسها، ورافقها إلى مقربة من قاعة الشاي. «انتظرني، غداً سأتي في الساعة ذاتها» همست حين ودّعته.

لم يعلم سِبِرو بشيء مما حدث في ذلك اليوم، ولا بالأحداث التي تلته، إلا بعد ثلاثة أشهر. ففي نيسان من عام 1879 أعلنت تشيلي الحربَ على جاريها، بيرو وبوليفيا لمسألة تتعلّق بالأرض وملح البارود والكبرياء. انفجرت حربُ الباسيفيك. حين وصل الخبرُ إلى سان فرانسيسكو، مَثَل سِبِرو أمام عمّته وزوجها مُعلناً أنّه سيذهب للقتال.

ـ ألم نتفق على أنّك لن تعود لتطأ ثكنة أبداً ـ ذكّرته عمّته باولينا.

ـ هذا مختلف، وطني في خطر.

ـ أنتَ مدني.

ـ أنا رقيب احتياط ـ وضّح.

ـ ستكون الحرب قد انتهت قبل أن تصل إلى تشيلي. لننتظر ماذا ستقول الصحافةُ وما ستراه الأسرة. لا تستعجل ـ نصحته عمّتُه.

ـ إنّه واجبي ـ ردّ سِبِرو، وهو يُفكِّر في جدِّه، البطريرك أغوستين دِل بالْيه، الذي مات مؤخّراً وقد صار بحجم الشمبانزي، لكنّه حافظ على مزاجه السيّئ دون مسّ.

ـ واجبكَ هنا بجانبي. الحرب جيّدة بالنسبة للتجارة. هذه هي لحظة المضاربة بالسكّر ـ ردّت باولينا.

ـ السكّر؟

ـ ما من بلدٍ من هذه البلدان الثلاثة يُنتِجُه، وفي هذه الأوقات يستهلك الناسُ المزيد من الحلويات ـ أكّدت باولينا.

ـ وما أدراكِ أنتِ؟

ـ من تجربتي الخاصّة يا ولد.

مضى سِبِرو ليحزم حقائبه، لكنّه لم يذهب في السفينة التي انطلقت نحو الجنوب بعد أيّام كما كان قد خطّطَ، بل في أواخر تشرين الأوّل. في تلك الليلة أُعلنت له عمّته أنّ عليهم أن يستقبلوا زيارة غريبة، وتأمل أن يكون موجوداً، لأنّ زوجها مسافر، وهذه المسألة قد تحتاج لنصائح محامٍ جيّدة. في السابعة مساءً. أدخلَ وليامز بالازدراء الذي يبديه حينَ يجدُ نفسه مضطرّاً لأن يَخدمَ أناساً أدنى منه اجتماعيّاً، صينيّاً طويلاً، رماديّ الشعرِ، يرتدي الأسودَ الصارم، ومعه امرأة صغيرة ذات مظهر شبابي تافه، لكنّها بكبرياء وليامز نفسه. وجد تاو شيين وإليثا سومّرز نفسيهما في قاعة الضواري، كما كانوا يسمّونها، مُحاطين بالأسود، والفيلة وحيوانات أفريقية أخرى راحت تراقبهما من إطاراتها الذهبية على الجدران. كانت باولينا ترى إليثا دائماً في محل الحلويات، لكنّهما لم تلتقيا قط في أي مكانٍ آخر، فهما تنتميان إلى عالمين منفصلين. كما أنّها لم تكن تعرف ذلك *السماوي*، الذي لو حكمنا عليه من الطريقة التي يمسك بها من ذراعها، يجب أن يكون زوجها أو عشيقها. وجدت نفسها مثار سخرية في قصرها ذي الخمس والأربعين غرفة، مرتديةً الأطلس الأسود ومغطاة بالمجوهرات، أمام هذين الزوجين المتواضعين اللذين حيّياها ببساطة، محافظين على المسافة. وانتبهت إلى أنّ ابنها ماتيّاس يستقبلهما مرتبكاً حاني الرأس، دون أن يمدّ يده إليهما، وينفصل عن المجموعة خلف مكتبٍ من خشبِ الجَكَرَندا، مشغولاً ظاهريّاً بتنظيف غليونه. تكهّن سِبِرو دِل بالْيه من جهته بسبب وجود والدي لين سومّرز في البيت، وأراد أن يكون على بُعد ألف فرسخ من هناك، أما باولينا التي أثارا فضولها فشنّفت مجساتها ولم تُضِع الوقت بتقديم شيء يشربانه، بل أشارت إلى وليامز بالانسحاب وإغلاق الأبواب. «ماذا أستطيع أن أفعل لكما؟» سألت. عندئذ شرع تاو شيين يوضح دون أن يتبدّل أنّ ابنته لين حامل، وأنّ مُسبّب الإهانة هو ماتيّاس، ويأمل القيام بالإصلاح

الوحيد الممكن. لأوّل مرّة فقدت ربّة العمل دِل بالْيِه القدرة على الكلام. بقيت جالسة، تبربط مثل حوت جانحٍ، حتى عندما خرج صوتها أخيراً كان من أجل أن تبثّ نعيقاً.

ـ ليس لي أيّ علاقة بهؤلاء الناس يا أمي. لا أعرفهم ولا أعلم عمّا يتحدّثون ـ قال ماتيّاس من وراء مكتبه الخَكرَندا وغليون عاجه المنحوت في يده.

ـ لين حكت لنا كلَّ شيء ـ قاطعته إليثا، ناهضةً، وبصوت محطّم، لكن دون دموع.

ـ إذا كان ما تريدونه مالاً... ـ بدأ ماتيّاس يقول، لكنّ أمّه قاطعته بنظرة ضارية.

ـ أرجوكما أن تعذرانا ـ قالت متوجّهة إلى تاو شيين وإليثا سومرز ـ فابني مندهش مثلي. أنا واثقة من أنّنا نستطيع أن نُصلح هذا بحشمة، كما يجب على...

ـ لين ترغب بالزواج، طبعاً. قالت لنا إنّكما متحابان ـ قال تاو شيين، وهو واقف أيضاً، متوجّهاً إلى ماتيّاس بقهقهة قصيرة جاءت مثل نباح كلب.

ـ تبدوان أناساً مُحتَرَمين ـ قال ماتيّاس ـ ومع ذلك، ابنتكما ليست كذلك، كما يمكن لأيّ واحدٍ من أصدقائي أن يشهد. ولا أدري من منهم هو المسؤول عن كارثتها، لكنّ بالتأكيد لستُ أنا.

فقدت إليثا سومّرز لونها تماماً، وصارت بشحوب الجصّ، ترتعد، وتكاد تسقط. أخذها تاو شيين بقوّة من ذراعها، وأسندها كما لو أنها معوقة، وقادها إلى الباب. ظنّ سِبِرو دِل بالْيِه أنّه سيموت من الضيق والعار، كما لو أنّه المسؤول الوحيد عمّا حدث. تقدّم ليفتح لهما الباب، ورافقهما حتى المخرج، حيث كانت تنتظرهما عربة أجرة. لم يخطر له أن يقول لهما شيئاً. وحين وصل إلى القاعة استطاع أن يسمع نهاية النقاش.

ـ لا أفكّر أن أتسامح بوجود أولاد زنى من دمي مزروعين هنا وهناك! ـ صرخت باولينا.

ـ حدّدي ولاءاتك يا أمي. من ستصدّقين، ابنك أم بائعة حلوى وصيني؟ ـ ردّ ماتيّاس وهو يخرج صافقاً الباب.

واجه سِبِرو دِل بالْيِه ماتيّاس في تلك الليلة. كان يملك من المعلومات ما يكفي كي يستنتج الأحداث، وأراد أن ينتزع من ابن عمّته سلاحَه من خلال استجواب عنيد، لكنّه لم يحتج إلى ذلك؛ لأنّ هذا أفلت كلّ شيء وعلى الفور. شعر بأنّه محاصر بحالة لا معقولة وليس مسؤولاً عنها، كما قال، فلين سومّرز لاحقته وقدّمت نفسها إليه على طبق؛ أما هو فحقيقةً لم يقصد إغواءها قط، والمراهنة كانت مجرّد تبجّح. قضى شهرين يحاولُ التخلّص منها دون أن يُدمّرها، وخاف أن يرتكب حماقةً، فقد كانت واحدة من تلك المصابات بالهستيريا القادرات على رمي أنفسهنّ في البحر من أجل الحب، كما وضّح. اعترف بأنّ لين ليست سوى طفلة، ووصلت إلى ذراعيه عذراءَ ورأسها ملئ بالقصائد المحلاّة، وتجهل تماماً بذاءات الجنس، ولكنّه كرّر أنّه لم يكن ملزماً أمامها بشيء، كما لم يحدّثها قط عن الحبّ وأقل منه عن الزواج. وأضاف الفتيات من أمثالها دائماً يأتين بالمتاعب؛ لذلك كان يتفاداهنّ كما يتفادى الوباء. لم يخطر له مطلقاً أنّ لقاء قصيراً مع لين سيأتي بكلّ تلك العواقب. التقيا مرّاتٍ معدوداتٍ، كما قال، ونصحها بأن تغسل بالخلّ والخردل، فهو لم يكن يعتقد أنّها بمثل تلك الخصوبة المدهشة. في جميع الأحوال كان على استعداد كي يغطي نفقات الوليد، فالنفقات هي الأقل أهمية، لكنّه لايفكّر أن يمنحه كنيته، لأنّه ما من برهان على أنّه ابنه. وختم كلامه «لن أتزوّج لا الآن ولا في أيّ وقت آخر يا سِبِرو. هل رأيت أحداً أقل نزعة برجوازية منّي؟».

بعد أسبوع مَثَلَ سِبِرو دِل بالْيِه في عيادة تاو شيين، بعد أن أدار في رأسه المهمّة الشاقّة التي كلّفه بها ابن عمّته ألف دورة. كان *الزهونغ* ـ يي قد عالجَ آخرَ مريض في ذلك اليوم واستقبله على انفرادٍ في قاعة الانتظار في عيادته، في الطابق الأوّل. استمع إلى عرض سِبِرو بلا تأثّر.

ـ لين ليست بحاجة إلى مال، لهذا عندها أبوان ـ قال دون أن

يُبدي أيّ انفعال ـ على كلٍّ حال أشكرك على اهتمامك يا سيّد دِل بالْيه.

ـ كيف حال الآنسة سومّرز؟ ـ سأل سِبِرو، مهاناً من كرامة الآخر.

ـ ابنتي ما تزال تُفكِّر أن هناك سوء فهم. وهي واثقة من أنّ السيّد رودريغث دِ سانتا كروث سرعان ما سيأتي ليطلبها للزواج، ليس بالواجب بل بالحب.

ـ يا سيّد شيين، لا أدري ما الذي أدفعه مقابل أن تتبدّل الظروف. الحقيقة أنّ ابن عمّتي لا يتمتّع بصحّةٍ جيّدة، لا يستطيع أن يتزوّج. آسف جدّاً... ـ تمتم سِبِرو دِل بالْيه.

ـ ونحن نأسف أكثر. فلين بالنسبة إلى ابن عمّتك مجرّدُ تسلية، وهو بالنسبة إلى لين حياتُها ـ قال تاو شيين بنعومة.

ـ بودّي أن أوضّح شيئاً لابنتك يا سيّد شيين. هل أستطيع أن أراها من فضلك؟

ـ عليّ أن أسأل لين. حالياً لا ترغب برؤية أحد، لكنّني سأعلمك بالأمر إن حصل تبدّل في رأيها ـ ردّ *الزهونغ* ـ يي وهو يرافقه إلى الباب.

انتظر سِبِرو ثلاثة أسابيع دون أن يعلم كلمةً واحدة عن لين، حتى لم يعد يستطيع أن يتحمّل القلق أكثر وذهب إلى قاعة الشاي كي يتوسّل إلى إليثا سومّرز أن تسمح له بالكلام مع ابنتها. توقّع أن يلقى مقاومة شديدة، لكنّها استقبلته ملفوفة بعبق سكّرها والفانيليا وبالرزانة ذاتها التي استقبله بها تاو شيين. في البداية لامت إليثا نفسها على ما جرى: لقد غَفِلت، لم تكن قادرة على حماية ابنتها والآن دُمّرت حياتُها. بكت بين ذراعي زوجها إلى أن ذكّرها أنّها عانت في السادسة عشرة من عمرها من تجربة مماثلة: الحب المفرط ذاته، هجران الحبيب ذاته، الحَبَل، والذعر؛ والفارق هو أنّ لين لم تكن وحدها، وليس عليها أن تهرب من البيت، وتعبر نصف

العالم في قاع سفينة خلف رجل غير جدير بها، كما فعلت هي. لين لجأت إلى أبويها، وهما محظوظان جدّاً لأنّهما قادران على مساعدتها، قال تاو شيين. لو أنّهم في الصين أو تشيلي لضاعت ابنتهما، المجتمع لا يغفر لها لكن في كاليفورنيا، البلاد التي بلا تقاليد، يوجد فضاء للجميع. جمع *الزهونغ ـ يي* أسرته الصغيرة، وأوضح أنّ الطفل جاء هديّةً من السماء، وعليهم أن ينتظروه بفرح؛ فالدموع سيّئة بالنسبة إلى *الكرما*، وتضرّ بالمخلوق في بطن أمّه، وتجعل حياته غير أكيدة. هذا الطفل أو الطفلة ستأتي على الرحب والسعة، خاله «محظوظ» وهو، كما قال، سيكونان بديلين جديرين للأب الغائب. أمّا بالنسبة لحب لين الخائب، حسنٌ، سيفكرون بهذا فيما بعد. كان يبدو متحمّساً أمام أمل أن يصبح جدّاً، حتى أنّ إليثا خجلت من اعتباراتها المتعلّقة بالعفّة، فجفّفت دموعها ولم تعد إلى تأنيب نفسها. إذا كان العطف على ابنته أهمّ عند تاو شيين من شرف الأسرة، فيجب أن يكون الأمر بالنسبة إليها كذلك أيضاً، قرّرت؛ وواجبها أن تحمي لين، وكل ما عدا ذلك ليس له أهمية. هكذا أظهرت الأمر بلطف إلى سِبِرو دِل بالْيه في ذلك اليوم في قاعة الشاي. لم تفهم الأسباب التي تجعل التشيلي يصرّ على مكالمة ابنتها، لكنّها تشفّعت له، وقبلت الشابّة أخيراً أن تراه. لم تكد لين تتذكّره، واستقبلته بأمل أن يكون قد جاء مبعوثاً من ماتيّاس.

في الأشهر التالية صارت زيارةُ سِبِرو إلى بيت آل شيين عادةً. يصل عند حلول الليل، حين ينهي عمله، يترك جواده مربوطاً بالباب، ويمثل حاملاً القبعة في يدٍ، وهديّة ما في اليد الأخرى، وهكذا راحت غرفة لين تمتلئ بالألعاب والثياب للمولود الجديد. علّمه تاو شيين أن يلعب *الماه ـ جونغ*، وكانا يقضيان ساعاتٍ مع إليثا ولين وهما يحرّكان قطع العاج الجميلة. لم يكن «محظوظ» يشاركهما، لأنّه يرى أنّ اللعب دون رهان إضاعة للوقت، وتاو شيين لا يلعب إلا في حضن أسرته، لأنّه عاهد نفسه في شبابه ألا يلعب مقابل المال، وكان واثقاً من أنّه إذا أخلف ستحل به كارثة. اعتاد آل شيين على وجود سِبِرو، حتى أنّه إذا تأخر نظروا إلى الساعة قلقين. كانت إليثا

سومّرز تستغلّ الفرصةَ كي تتكلّم بالقشتالية وتتذكّر تشيلي، ذلك البلد البعيد الذي لم تضع قدمها فيه منذ أكثر من ثلاثين عاماً، لكنّها بقيت تعتبره وطنها. وكانا يناقشان تفاصيل الحرب والتغيّرات السياسية: فبعد عدّة عقودٍ من الحكومات المحافظة انتصر الليبراليون؛ وكان الصراع من أجل لَيّ ذراع السلطة الكهنوتية، وتحقيق بعض الإصلاحات، قد قسم كلَّ أسرة من الأسر التشيلية. فمعظم الرجال، مهما كانوا كاثوليكيين، كانوا يتوقون لتحديث البلد، لكنّ النساء، وهنّ أكثر محافظة منهم، كنّ يتمرّدن على آبائهنّ وأزواجهنّ دفاعاً عن الكنيسة، ومهما كانت الحكومة ليبرالية، حسب ما كانت توضّح نيبيا في رسائلها، فإنّ مصير الفقراء ما زال هو نفسه، وتُضيف أنّ نساء الطبقة العليا ورجال الكهنوت كانوا، كما هو الحال دائماً، يتلاعبون بحبال السلطة. ولا شكّ أنّ فصل الدين عن الدولة خطوة عظيمة إلى الأمام، كانت الفتاة تكتب من وراء ظهر عشيرة دِل بالْيه، التي لم تكن تتسامح مع مثل هذه الأفكار، ومع ذلك فالعائلات نفسها هي التي كانت تدير الحالة. «لنؤسِّس حزباً آخر يا سِبرو، حزباً يبحث عن العدالة والمساواة»، كانت تكتب إليه مدفوعة بحماس حواراتها السريّة مع الآنسة ماريّا إسكابولاريو.

كانت حرب الباسيفيك في جنوب القارّة متواصلة، وهي في كلّ مرّة أكثر قسوة، بينما الجيوش التشيلية تُسارع لبدء الحملة في صحراء الشمال، والأرض الوعرة والموحشة كالقمر، حيث يُعتَبَرُ تموين القوات مهمّة جبّارة. والطريق الوحيد الممكنة لنقل الجنود إلى الأماكن التي ستدور فيها المعارك كانت البحر، لكنّ الأسطول البيرْوِي لم يكن مستعداً للسماح بذلك. كان سِبرو يفكّر بأنّ الحربَ راحت تتبلور لصالح تشيلي، التي يبدو أنّ تنظيمها وضراوتها لا مثيل لهما. لم تكن الأسلحة والطبيعة الحربية هي التي تُحدّد نتيجة المعركة، كان يوضّح لإليثا سومّرز، بل المثل الذي قدَّمته حفنة من الرجال الأبطال فتمكنت من إلهاب روح الأمّة.

ـ أعتقد أنّ الحرب تقرّرت في شهر أيّار يا سيّدتي، في معركة بحرية قبالة ميناء إيكيكي. فهناك تصدّت فرقاطة تشيلية قديمةٌ لقوّة

بيروية أضخم. يقودها أرتورو برّاث، وهو قبطان شاب متديّن جدّاً، بل وخجول أيضاً، لا يُشارك في سهرات العبث والفسق السائدة في الجو العسكري، وكان من عدم التميُّز بحيث أنّ رؤساءه لم يكونوا يثقون بشجاعته. وفي ذلك اليوم تحوّل إلى بطلٍ أنعش روحَ التشيليين جميعاً.

كانت إليثا تعرف التفاصيل، فقد قرأتها في عددٍ متأخر من التايمز اللندنية، حيث وُصِفَت الواقعةُ بـــ: «...واحدة من أجلّ المعارك التي قامت على الإطلاق، فسفينة خشبية قديمة، تكاد تتفكّك، صمدت ثلاث ساعاتٍ ونصف الساعة في وجه مدفعية أرضيّة وبارجة جبّارة، وانتهت ورايتها فوق دقلها». السفينة البيروية بقيادة الأميرال ميغِل غراوْ، وهو بطل في بلده أيضاً، هاجم بكلّ ما أوتي من سرعة الفرقاطةَ التشيليةَ واخترقها بمدكّ سفينته، وهي اللحظة التي استغلّها القبطان برات كي يقفز على متنها يتبعه أحد رجاله. كلاهما مات بعد دقائق مُخرَّمين بالرصاص على متن السفينة المعادية. وبصدمة المدك الثانية قفز عدّة رجال آخرين منافسين قائِدَهم، وماتوا أيضاً مخرّمين بالرصاص؛ ففي النهاية قضى ثلاثة أرباع الطاقم نَحْبَهُم قبل أن تغرق الفرقاطة. هذه البطولة الجبّارة دبّت الشجاعةَ في أبناء وطنهم، بقدر ما صعقت أعداءهم، حتى أنّ الأميرال غراو كان يردّد مذهولاً: «آه، كيف يُقاتل هؤلاء التشيليون!».

ـ غراو فارس. أخذ سيف برات وثيابه بنفسه، وأعادها إلى أرملته ـ روى سِبِرو، وأضافَ أنّه منذ تلك المعركة صار الشعار المقدّس في تشيلي: «القتال حتى النصر أو الموت»، مثل أولئك الشجعان.

ـ وأنت يا سِبِرو، ألا تُفكِّر بالذهاب إلى الحرب؟ ـ سألته إليثا.

ـ بلى، سأفعل ذلك قريباً جدّاً ـ ردّ الشاب خجِلاً، دون أن يدري ماذا ينتظر كي يقوم بواجبه.

راحت لين خلال ذلك تسمن، دون أن تفقد قيد أنملة من ملاحتها

أو جمالها. ما عادت ترتدي الملابس التي ضاقت عليها، وارتاحت في الأدثرة الحريرية الفرحة التي اشترتها من تشاياناتاون. صارت لا تخرج إلاّ قليلاً، على الرغم من إصرار والدها بضرورة أن تمشي. كان سِبِرو دِل بالْيِه يأخذها في عربة، ويحملها للتنزه في حديقة بارك برِسيديو، أو على الشاطئ، حيث يجلسان على شالٍ ليتناولا طعام غدائهما ويقرأا، هو صحفه وكتب قانونه، وهي الروايات الرومانسية التي ما عادت تؤمن بموضوعاتها، ومع ذلك ما زالت تفيدها كملاذ لها. كان سِبِرو يعيش يومه، من زيارة إلى زيارة لبيت آل شيين، دون أيّ هدفٍ آخر غير رؤية لين. ما عاد يكتب إلى نيبيا. فكثيراً ما أخذ الريشةَ كي يعترف لها أنّه يُحبُّ غيرها، لكنّه سرعان ما يمزّق الرسائل دون أن يرسلها، لأنّه لا يعثر على الكلمات المناسبة كي يقطع علاقته بخطيبته دون أن يجرحها جرحاً قاتلاً. كما أنّ لين لم تعطه أيّ بريقِ أملٍ يمكن أن يُفيده كنقطة ارتكاز لتصوّر مستقبلٍ معها. لم يكونا يتكلّمان عن ماتيّاس، تماماً كما لم يكن هذا يشير إلى لين إطلاقاً، ولكنّ السؤال كان دائماً عالقاً في الهواء. لقد حرص سِبِرو ألاّ يذكر في بيت عمّته صداقته الجديدة مع آل شيين، وافترض أنّه ما من أحد يشكّ بذلك، باستثناء رئيس الخدم الممطوط وليامز، الذي لم يضطر لأن يقول له شيئاً، لأنّه عرف بالأمر كما يعرف كلّ ما كان يجري في ذلك القصر. كان قد مضى شهران على سِبِرو وهو يصل متأخّراً؛ وبابتسامةٍ بلهاء ملتصقة بوجهه، حين قاده وليامز إلى العلّية على ضوء مصباح كحولي وأراهُ كتلة ملفوفة بالملاحف. وعندما كشف عنها وجد أنّها مهدٌ متألّق.

ـ إنّه من فضّة مشغولة، فضّة من مناجم سادة تشيلي. هنا نام كثير من أطفال هذه الأسرة. إذا أردت تستطيع أن تأخذه ـ هذا كلّ ما قاله.

باولينا دِل بالْيِه، التي شعرت بالخزي، لم تَظهر بعد ذلك في قاعة الشاي، فهي لم تكن قادرة على ترميم صداقتها الطويلة مع

إليثا سومرّز، التي صارت شظايا. اضطرت أن تتنازل عن الحلوى التشيلية، التي شكّلت لسنواتٍ نقطةَ ضعفها، وأن تقبل مذعنة بحلوى طبّاخها الفرنسية. قدرتها الساحرة الناجعة جدّاً في كنس العوائق وتنفيذ غاياتها، انقلبت عليها الآن. كانت محكومة بالشلل، تتآكل قلقاً وقلبها يقفز في صدرها. «تقتلني أعصابي يا وليامز» راحت تشكو وقد تحوّلت لأوّل مرّةٍ إلى امرأة سقيمة. كانت تفكّر أنّه نظراً لأنّ عندها زوجاً خائناً وثلاثة أولاد طائشين، فالاحتمال الأكبر هو أن يوجد عدد كبير من الأطفال غير الشرعيين الذين يحملون دمها مبعثرين هنا وهناك، فليس من داعٍ كي تتعذّب أكثر، ومع ذلك فإنّ أولاد الزنى المفترضين هؤلاء لا أسم لهم ولا وجه، بالمقابل فإنّ هذا الذي سيولد أمام وجهها سيكون له اسم ووجه. لو أنّها على الأقل لم تكن لين سومّرز! لا تستطيع أن تنسى زيارة إليثا سومّرز وذلك الصيني الذي لا تتمكّن من تذكّر اسمه، فمشهد هذين الزوجين الجليلين في قاعتها يُحزنها. كان ماتيّاس قد أغوى الفتاة، وما من حجة منطقية أو ملائمة يمكنها أن تَدحض هذه الحقيقة التي قبلها حَدْسُها منذ اللحظة الأولى. إن إنكار ابنها وتعليقاته اللاذعة عن قلّة فضيلة لين لم تفعل شيئاً، غير أنّها عزّزت قناعتها. الطفل الذي تحمله هذه الشابة في بطنها يثير عندها إعصاراً من المشاعر المتناقضة، فمن جهة هناك غضب أخرس من ماتيّاس، ومن جهة أخرى هناك حنان ضاغط تجاه هذا الحفيد أو الحفيدة الأولى. ولم يكد فِليثيانو يعود من رحلته حتى روت له ما حدث.

ـ هذه الأمور تحدث في كلّ لحظةٍ يا باولينا، فلاداعي لإحداث مأساة. نصف أطفال كاليفورنيا أولاد زنى. المهم هو تفادي الفضيحة ورصّ الصفوف حول ماتيّاس. الأسرة أوّلاً ـ هكذا كان رأي فِليثيانو.

ـ هذا الطفل من أسرتنا ـ أكّدت.

ـ لم يولد بعد وتضّميه إلى الأسرة! أعرف لين سومّرز هذه. رأيتها تقف شبه عارية في مُحترف نحّاتٍ عارضة نفسها وسط حلقة من الرجال، ويمكن لأيٍّ منهم أن يكون عشيقها. ألا ترين ذلك؟

ـ أنت من لايرى يا فِليثيانو.

ـ يمكن لهذا أن يتحوّل إلى فضيحة لها أوّل وليس لها قرار. أمنعك من أي احتكاكٍ بهؤلاء الناس، وإذا ما اقتربوا هم من هنا فأنا سآخذ المسألة على عاتقي ـ قرّر فِليثيانو بلمح البصر.

منذ ذلك اليوم لن تعد باولينا إلى ذكر الموضوع أمامَ ابنها وزوجها، لكنّها لم تستطع كبح نفسها، وانتهت إلى الثقة بوليامز الوفي، الذي يملك فضيلةَ الإصغاءِ إليها حتى النهاية دون أن يُبدي رأيه، إلاّ إذا طلبت منه ذلك. لو أنّ باستطاعتها أن تُساعِد لين سومّرز لشعرت بأنّها أفضل قليلاً، كانت تُفكِّر، لكنّ لمرّة واحدة لم يُفدها حظُّها في شيء.

كانت تلك الأشهر مدمّرة بالنسبة إلى ماتيّاس، فلم يقتصر الأمر على أنّ ورطة لين تُحرِّك عنده الصفراء، بل إنّ آلام المفاصل قد زادت حدّتها فلم يعد يستطيع ممارسة المبارزة، واضطرَّ للتنازل عن رياضات أخرى. صار يستيقظ على حدّةِ ألم يجعله يتساءل ما إذا كانت قد حانت لحظةُ التفكير بالانتحار، وهيَ الفكرة التي غذّاها منذ أن عرف اسمَ مرضِهِ، لكنّه ما أن يُغادِر السرير ويبدأ بالتحرُّك حتى يشعر بالتحسّن، فيعود ليحبّ الحياة بعزم جديد. كان يصاب بتورّمُ في معصميه وركبتيه، وترتعشُ يداه، ومًا عاد الأفيون تسليته في تشايناتاون، صار حاجةً ضرورية. كانت صديقته أماندا لويل، رفيقة صخبه ونجيّته الوحيدة، من علّمته فضيلة حقن المورفين، الأكثر فاعلية ونظافة وأناقة من غليون الأفيون: جرعة دنيا ويزول الضيق على الفور، فاسحاً الطريق أمام السلام. إن فضيحة ابنه غير الشرعي القادم في الطريق انتهت إلى تدمير معنوياته، فأعلن أواسط الصيف فجأة أنّه سيُغادِر إلى أوروبا في الأيام القليلة القادمة، ليرى ما إذا كان تبديل الجوّ والمياه الساخنة في إيطاليا، والأطباء في إنكلترا، يمكن أن يُخفّفوا من أمراضه. لم يُضِف أنّه يُفكّر بالالتقاء بأماندا لويل في نيويورك كي يتابعا العبورَ معاً، لأنّ اسمها ما كان يذكر أبداً في الأسرة، إذ إن ذكرى الاسكتلندية ذات الشعر الأحمر تُثيرُ عسرَ هضم عند فِليثيانو، وحنقاً أخرسَ عند باولينا. لم تكن العلل والرغبةُ بالابتعاد عن لين سومّرز هي ما دفعت ماتيّاس إلى

الرحيل المستعجل، بل ديون القمار الجديدة، كما عُلم بعد رحيله بقليل، حين ظهر زوجٌ من الصينيين المحترسين في مكتب فِليثيانو كي يهدّدوه بأكبر قدر من التهذيب، إما أن يدفع الأرقام التي يدين بها ابنه لهم مع الفوائد، وإمّا أن يحدثَ شيء مزعج لأحد أفراد أسرة المحتَرَمة. وبجواب وحيد جعلهم الوجيه يخرجونهما مصعوقين من مكتبه ويقذفون بهما في الشارع، استدعى بعد ذلك جاكوب فريمونت، الصحافي الخبير في عالم المدينة السفلي. استمع إليه الرجل بلطفٍ، لأنّه كان صديقاً جيّداً لماتيّاس، ورافقه على الفور لمقابلة رئيس الشرطة، وكان أوسترالياً، سمعته مشوشّة، يدين له ببعض الخدمات، فطلب منه أن يحلّ المشكلة بطريقته الخاصّة. «الطريقة الوحيدة التي أعرفها هي الدفع»، ردّ الضابط، وشرع يشرحُ كيف أنّه ما من أحد يتدخّل في أمور *تونغات* تشاينا‌تاون. فقد كان من نصيبه أن يلمّ أجساداً مشروطة من أعلاها إلى أسفلها، وأحشاءً موضوعة بكلّ وضوح جانباً في صندوق. إنها أعمال انتقام بين *السماويين* طبعاً، ثم أضاف؛ مع البيض كانوا يُحاولون على الأقل أن يبدو الأمر وكأنّه يتعلّق بحادِثٍ عادي. ألم تلاحظ كم من الناس يموتون في حرائق لا تفسير لها، أو مهشّمين بأرجل الخيل في شارع معزول، أو غرقى في مياه الخليج الهادئة، أو مسحوقين بلِبْنٍ يسقط بطريقة غامضة من بناء طور الإنجاز؟ وهكذا دفع فِليثيانو رودريغِث دِ سانتا كروث المطلوب منه.

حين أعلمَ سِبرو دِل بالْيِه لين سومّرز بأنّ ماتيّاس قد سافر إلى أوروبا دون نيّة بالعودة في المستقبل القريب، راحت تبكي وبقيت على تلك الحال خمسة أيّام، على الرغم من المُهدِّئات المقننة التي قدّمها إليها تاو شيين، إلى أن صفعتها أمّها صفعتين على وجهها وأجبرتها على مواجهة الواقع. لقد ارتكبت حماقة ولم يبق أمامها الآن غير أن تتحمل النتائج؛ فهي لم تعد صغيرة، ستصبح أمّاً عما قريب، وعليها أن تحمد الله على أنّها تملك أسرةً مستعدة لمساعدتها، لأنّ أخريات في وضعها ينتهين مرميّات في الشارع، ويكسبن عيشهنّ بطريقة سيّئة، بينما ينتهي أولادهنّ غير الشرعيين

إلى ميتم؛ وقد حانت الساعة كي تقبل أنّ عشيقها تبخّر، وعليها أن تقوم مقامَ الأم والأبِ، وأن تنضج مرّة واحدة وإلى الأبد، لأنّهم سئموا في ذلك البيت من تحمّلِ نزواتِها؛ فمنذ عشرين عاماً وهي تتلقى الأشياء ملءَ يديها، وعليها ألاّ تُفكّر أنّها ستقضي حياتها مستلقية في سرير تشكو؛ فلتنظف أنفها، وترتدي ثيابها، لأنّهم سيخرجون للتنزه، وهو ما سيفعلونه مرّتين في اليوم دون نقصان، سواء أمطرت أو أرعدت، هل سمعت؟ نعم، سمعت لين كلّ شيء حتى النهاية بعينين جاحظتين من المفاجأة، وخدين محمرّين من الصفعتين الخفيفتين الوحيدتين اللتين تلقتهما في حياتها. ارتدت ملابسها وأطاعت صامتةً. ومنذ تلك اللحظة سقطت عليها الوداعة فجأة، وتحمّلت مصيرها برصانة مدهشة، لم تعد تشكو، ابتلعت أدوية تاو شيين، ومشت مسيراتٍ جيّدةً مع أمّها، بل وأصبحت قادرة على أن تضحك مقهقهةً حين علمت بأنّ مشروع تمثال الجمهوريّة قد ذهب إلى الجحيم، كما أوضح أخوها «محظوظ»، ولكن ليس لعدم وجود الموديل، بل لأنّ النحّات هرب بالأموال إلى البرازيل.

في نهاية آب تجرّأ سِبِرو أخيراً على الكلام مع لين سومّرز عن مشاعره. في ذلك الوقت كانت تشعر بنفسها ثقيلة مثل فيلٍ، ولا تتعرّف على وجهها ذاته في المرآة، لكنّها كانت في نظر سِبِرو أجمل من أيّ وقتٍ آخر. عادا من المشوار حارّين، فأخرج منديلاً كي يُجفّف لها جبينها وعنقها، لكنّه لم يتمكّن من إنهاء العملية. فقد وجد نفسه منحنياً يمسكها من كتفيها بقوّة ويقبّلها على فمها وسط الشارع، دون أن يدري كيف. طلب منها أن يتزوّجا، فأوضحت له بكلّ بساطة أنّها لن تحبّ رجلاً آخر، لن تُحب غير ماتيّاس رودريغِث دِ سانتا كروث.

ـ لا أطلبُ منكِ أن تُحبّيني يا لين، فالحبّ الذي أشعر به تجاهك يكفينا ـ ردّ سِبِرو بالطريقةِ الاحتفالية التي يُعاملها بها دائماً تقريباً ـ الطفل يحتاجُ أباً. امنحيني الفرصةَ لأحميكما، وأعدُك بأن أصبح مع مرور الزمن أهلاً لحبّك.

ـ يقول أبي إن الأزواج يتزوّجون في الصين دون أن يعرف

بعضُهما بعضاً، ويتعلمون حبّ بعضهم بعضاً فيما بعد، **لكنّني واثقة** من أنّ هذه لن تكون حالتي يا سِبِرو. أنا آسفة جدّاً... ـ ردّت.

ـ لن يكون عليك أن تعيشي معي يا لين. ما أن تلدي حتى **أذهبَ** إلى تشيلي. بلدي في حالة حرب، وقد أجلت واجبي أكثر من اللازم.

ـ وماذا لو لم تعد من الحرب؟

ـ على الأقل سيحصل ابنك على كنيتي وإرث أبي، الذي ما زال عندي. ليس كثيراً، لكنّه يكفي كي تربّيه، ويكون لك يا عزيزتي لين احترامُك...

كتب سِبِرو في تلك الليلة إلى نيبيا الرسالة التي لم يستطع أن يكتبها من قبل. قالها لها في أربع جملٍ، دون مقدّمات ولا حجج، لأنّه أدرك أنّها لن تتحمّل ذلك بطريقة أخرى. لم يجرؤ حتى أن يطلب منها المعذرة على تآكل الحب والزمن الذي عنته أعوام رسائل الخطوبة الأربعة بالنسبة إليها، لأنّ هذه الحسابات البائسة لم تكن بالنتيجة جديرة بقلب ابنة عمه الكريم. نادى خادماً كي يضع له الرسالةَ في بريد اليوم التالي، ثم استلقى منهكاً بملابسه على السرير. لأوّل مرّةٍ نام دون أحلام خلال زمن طويل. وبعد شهر من ذلك تزوّج سِبِرو دِل بالْيِه من لين سومّرز في حفل بسيط، وحضور أسرتها ووليامز، الوحيد الذي دعاه سِبِرو من بيته. كان يعلم أنّ رئيس الخدم سيحكي لعمّته باولينا، وقرّر وانتظر أن تقوم هي بالخطوة الأولى وتسأله. لم يُعْلِم أحداً، لأنّ لين طلبت منه أكبر تكتّم ممكن إلى ما بعد ولادة الطفل واستعادتها لهيئتها الطبيعية، فهي لن تجرؤ على الظهور ببطن القَرعة ذاك والوجه المليء بالنمّش، كما قالت. في تلك الليلة ودّع سِبِرو دِل بالْيِه زوجته المتوهّجة بقبلةٍ على جبينها، ومضى لينام في غرفته، غرفة العازب.

في ذلك الأسبوع ذاته دارت في مياه الباسيفيك معركةٌ بحريّة أخرى، وعطّلت البحرية التشيليةُ البارجتين المعاديتين. الأميرال البيروي ميغِل غراو، الفارس نفسه الذي أعاد قبل أشهر سيفَ

القبطان برات إلى زوجته، مات بطلاً كما الآخر. كان ذلك كارثة بالنسبة إلى البيرو، لأنّها حين خسرت السيطرة البحرية قَطعت المواصلات، وبقيت جيوشها ممزّقة ومعزولة. سيطر التشيليون على البحار، واستطاعوا أن ينقلوا قواتهم إلى مناطق الشمال الحساسة، وأكملوا مخطط التقدم في أراضي العدو، حتى احتلال ليما. كان سِبِرو دِل بالْيِه يُتابِع الأخبار بحماسٍ بقيّةِ أبناءِ بلده في الولايات المتحدة، لكنّ حبّه للين كان يفوق بما لا يُقاس وطنيَّته، ولم يستعجل رحلة العودة.

في فجر ثاني اثنين من تشرين الأوّل أفاقت لين مبلّلة القميص، وأطلقت صرخة رعب، لأنّها ظنّت أنّها بالت على نفسها. «شيء سيّئ، لقد تمزّقت المشيمة قبل الأوان» هكذا قال تاو شيين لزوجته، لكنّه حضر أمام ابنته مبتسماً وهادئاً. بعد عشر ساعاتٍ، حين لم تكد التقلصات تكون محسوسة، والأسرة منهكة من لعب *الماه ـ جونغ* لتسلية لين، قرَّر تاو شيين أن يلجأ إلى أعشابه. كانت الأمّ المستقبلية تمزحُ متحدِّيَةً: أهذه هي آلام المخاض التي طالما حذّروها منها؟ كانت محتملة أكثر من المغص الذي يُسبّبه الطعام الصيني في البطن، كما قالت. كانت ضجرة أكثرَ مما هي منزعجة. وكانت جائعة، لكنّ والدها لم يسمح لها بتناول شيءٍ آخرَ غير الماء ونقيع الأعشاب الطبية، بينما راح يضع لها الإبر لتسريع الولادة. إن المواءمة بين المخدرات والإبر الذهبية أعطت مفعولها، وعند حلول الليل، حين جاء سِبِرو دِل بالْيِه بزيارته اليومية المعتادة، وجد «محظوظ» في الباب متغيّراً، والبيت يهتزّ من أنين لين، وصخب قابلة صينية تتكلّم بصوت عالٍ وهي تجري حاملة خِرقاً وأباريقَ ماء. كان تاو شيين يتحمّل القابلة، لأنّها أكثر خبرة منه في هذا المجال، لكنّه لم يسمح لها بأن تعذِّب لين بالجلوس فوقها، أو بلكمها على بطنها، كما كانت تريد أن تفعل. بقي سِبِرو دِل بالْيِه في القاعةِ ملتصقاً بالجدار، محاولاً ألاّ يلفت الانتباه. كلّ أنّةٍ من لين كانت تحفر عميقاً في روحه؛ إنه يودُّ لو يهرب إلى أبعد ما يستطيع،

لكنّه لم يستطع أن يتحرّك من زاويته، أو يلفظ كلمةً واحدة. وهنا رأى تاو شيين يظهر، قاسياً بنظافة ملابسه المعتادة.

ـ هل أستطيع أن أنتظر هنا؟ ألا أُزعِج؟ بماذا أستطيع أن أساعد؟ ـ تمتم سِبِرو، وهو يجفِّف العرق الذي يسيل على عنقه.

ـ أنتَ لا تُزعج إطلاقاً أيّها الشاب، لكنَّك لا تستطيع أن تُساعِد لين، عليها أن تقوم بعملها وحدها. بالمقابل تستطيع أن تُساعِد إليثا، المضطربة قليلاً.

كانت إليثا سومّرز قد مرّت بضنى الولادة وتعرف، مثل كلِّ امرأة، أنّها عتبة الموت. تعرف الرحلة المضنية والغامضة التي ينفتح فيها الجسدُ كي يفسح الطريق أمام حياة أخرى؛ وتتذكّر اللحظة التي تبدأ فيها بالتدحرج دون كوابح في منحدر، ضاغطةً، دافعةً، خارج السيطرة، تتذكر الرعب، والعذاب، والدهشة الفريدة حين ينفصل الطفل ويظهر إلى النور. تاو شيين، بكلّ معرفة *الزهونغ ـ يي*، تأخّر أكثر منها في معرفة أنّ شيئاً سيئاً للغاية يجري في حالة لين. فالعلاج بالأدوية الصينية أثار تقلّصات قويّة جدّاً، لكنّ المخلوق جاء معيباً وعرضانياً عالقاً بعظام حوض أمّه. لقد كانت ولادة جافّة وصعبة، كما وضّح تاو شيين، لكنّ ابنته قويّةٌ، والمسألة تتعلّق كلّها بأن تُحافظ على هدوئها، فلا تتعب نفسها أكثر من اللازم. وأضاف بأنّه سباق مقاومة، وليس سرعة. وخلال وقفةٍ خرجت إليثا سومّرز المنهكة أكثر من ابنتها نفسها من الغرفة والتقت بِسِبِرو في أحد الممرات. أومأت إليه، فتبعها مرتبكاً إلى غرفة المذبح، حيث لم يدخل من قبل. على طاولة منخفضةٍ كان يوجد صليب بسيط، تمثال صغير لـ*كوان يين*، إلهة الرحمة الصينية، وفي الوسط صورة عاديّة بالحبر لامرأة ترتدي دثاراً أخضر وتضع وردتين على أذنيها. رأى شمعتين مشتعلتين وصحوناً صغيرة فيها ماء وأرز ونوريات زهر. ركعت إليثا أمام المذبح على وسادة من الحرير برتقالية اللون، وطلبت من المسيح وبوذا وروحِ لين، الزوجة الأولى، أن يهبّوا لمساعدة ابنتها في مخاضها. بقي سِبِرو خلفها بخطوة وهو يتمتم دون تفكير بصلواتٍ كاثوليكية تعلّمها في طفولته.

وهكذا بقيا برهة طويلة يوحدّ بينهما الخوفُ على لين وحبُّها، إلى أن نادى تاو شيين زوجَتَه لتساعدَهُ، لأنّه طرَدَ القابلةَ، واستعدّ ليدير الطفل ويُخرجَه بيده. بقي سِبِرو مع «محظوظ» يُدخِّنُ في البابِ، بينما راحت تشاياناتاون تستيقظ شيئاً فشيئاً.

جاءت ولادة المخلوقِ فجرَ يوم الثلاثاء. كانت الأم التي يُبلِّلها العرق وترتعد تُعارِكُ كي تلد، لكنّها مَا عادت تصرخُ، اكتفت باللهاث، متيقظة إلى توجيهات أبيها. أخيراً شدّت على أسنانها، وتشبَّثت بعوارض السرير المعدنية، ودفعت بعزم وحشيّ، فأطلّت ذؤابة من الشعر الأسود. أمسك تاو شيين الرأسَ وسحبه بعزم ونعومة إلى أن خرج كتفاه، ثم أدار الجسد الصغير، واستخلصه بسرعة وحركة واحدة، بينما راح يفكّ باليد الأخرى حبلَ السرّة البنفسجيّ من حول العنق. تلقّت إليثا سومّرز كتلةً صغيرة مدماة، طفلةً منمنمةً، مفلطحةَ الوجه، زرقاءَ الجلدِ. وبينما كان تاو شيين يقطع حبل السرّة وينهمك في القسم الثاني من الولادة، نظّفت الجدَّةُ حفيدتَها بإسفنجةٍ، وربتت على ظهرها إلى أن بدأت تتنفّس. حين سمعت صرخةَ من تُعلن الدخول إلى العالم، وتأكّدت من أنّها راحت تكسب اللون الطبيعي، وضعتها على بطن لين. اتكأت الأمُّ المنهكة على مرفقٍ كي تتلقاها بينما جسدها مايزال ينبض ووضعتها على صدرها، مقبِّلة ومرحِّبةً بها بخليطٍ من الإنكليزية والإسبانيّة والصينية والكلمات المبتَدَعَة. بعد ساعة نادت إليثا سِبِرو و«محظوظ» كي يتعرّفا على الصغيرة. وجداها نائمةً وديعة في مهدِ الفضّة المشغولة التي كانت لآل رودريغِث دِ سانتا كروث، مرتدية الحريرَ الأصفرَ وقبّعةً حمراءَ تُضفي عليها مظهرَ جنّي منمنم. كانت لين تغفو شاحِبةً وهادئة بين ملاحف نظيفة، وتاو شيين يجلس إلى جانبِها يراقِب نبضَها.

ـ ما الاسم الذي ستُسمونها به؟ ـ سأل سِبِرو دِل بالْيِه، متأثِراً.

ـ أنت ولين من يجب أن يُقرِّر ـ ردّت إليثا.

ـ أنا؟

ـ ألست الأبُ؟ ـ سأل تاو شيين غامزاً بسخرية.

ـ سنُسمّيها أورورا لأنّها ولدت في الفجر ـ تمتمت لين دون أن تفتح عينيها.

ـ اسمها بالصينية لاي ـ مينغ، أي الفجر ـ قال تاو شيين.

ـ مرحباً بك في الدنيا يا لاي ـ مينغ، أورورا دِل بالْيه ـ ابتسم سِبرو، مقبِّلاً الصغيرةَ على جبينها، واثقاً من أنّ ذلك اليوم هو أسعد أيّام حياته، وهذه المخلوقة المجعّدة التي ترتدي ملابِس دمية صينية، كانت ابنته كما لو أنّها تحمل دمه. أما «محظوظ» فأخذ ابنة أخته بين ذراعيه، وراح ينفخ في وجهها نفسه الذي يحمل رائحة تبغ وصلصة صويا.

ـ ماذا تفعل؟ ـ صاحت الجدّةُ، مُحاولة أن تنتزعها من بين يديه.

ـ أنفخُ عليها هواء كي أنقل إليها حظّي السعيد. ما الهديّة الأخرى القيّمة التي يمكنني أن أقدّمها لِـلاي ـ مينغ؟ ـ ضحكَ الخالُ.

ساعة العشاء حين وصل سِبرو دِل بالْيه إلى بيتِ نوب هيل، حاملاً خبر زواجه من لين سومّرز منذ أسبوع، وأنّ ابنته وُلِدَت في ذلك اليوم، جاءت بلبلة عمّته وزوجها كما لو أنّه وضع كلباً ميتاً على مائدة طعامهما.

ـ ثم إنّ الجميع عزوا الذنب إلى ماتيّاس! دائماً كنت واثقاً من أنّه لم يكن الأب، لكنّني لم أتخيّل قط أن تكون أنت ـ بصق فِليثيانو ما إن استعاد نَفْسَه من المباغتة قليلاً.

ـ لستُ الأبَ العضويّ، ولكنّني الأبُ الشرعي. واسم الطفلة أورورا دِل بالْيه ـ أوضَحَ سِبرو.

ـ هذه وقاحة لا تُغتَفَر! لقد خنت هذه الأسرة التي آوتك كابنٍ لها! ـ زمجر زوجُ عمّته.

ـ لم أخن أحداً. لقد تزوّجتُ حبّاً.

ـ لكن، ألم تكن هذه المرأة عاشقة لِماتيّاس؟

ـ هذه المرأة اسمها لين وهي زوجتي، وأطالبك بأن تُعاملها بالاحترام المتوجّب ـ قال سِبِرو بجفاء، ناهضاً على قدميه.

ـ أنت أبله يا سِبِرو، أبله تماماً! ـ شتمه فِليثيانو غاضباً، وهو يخرج بخطوات كبيرة من غرفة الطعام.

وليامز المتكتم الذي دخل في تلك اللحظة ليلقي نظرةَ تفقّدٍ على خدمة العَقَبَات، لم يستطع تفادي ابتسامة تواطؤٍ سريعة قبل أن ينسحب برزانة. أما باولينا فسمعت توضيحَ سِبِرو غير مصدّقة أنّه سيغادر خلال أيّام إلى الحرب في تشيلي، وأن لين ستبقى تعيش مع والديها في تشاياناتاون، وأنّه إذا ما جرت الأمور كما يشتهي سيعود في المستقبل كي يضطلع بدور الزوجِ والأب.

ـ اجلس يا ابن أخي، ولنتكلّم مثل الناس. ماتيّاس هو أبُ هذه الطفلة، أليس كذلك؟

ـ اسأليه هو يا عمّتي.

ـ فهمت. تزوّجت كي تُنقِذ ماء وجه ماتيّاس. ابني كلبّي وأنت رومانسيّ... تصوّر أنّك تُدمِّر حياتك من أجل حالة كيخوتية! ـ هتفت باولينا.

ـ تُخطئين يا عمّتي. أنا لم أُدمّر حياتي، بل على العكس، أعتقد أنَّ هذه هي فرصتي الوحيدة كي أكون سعيداً.

ـ مع امرأة تُحبُّ آخر؟ مع ابنة ليست ابنتك؟

ـ الزمن سيساعِد. إذا ما عدتُ من الحربِ، فستتعلّم لين على محبّتي، وستعتقد الطفلة أنّني أبوها.

ـ قد يعود ماتيّاس قبلك ـ علّقت.

ـ هذا لا يُبدّل في الأمر شيئاً.

ـ تكفي كلمة من ماتيّاس، حتى تتبعه لين سومّرز إلى آخر العالم.

ـ هذه مخاطرة لا بدّ منها ـ ردّ سِبِرو.

ـ لقد فقدت رشدك، يا ابن أخي. هؤلاء الناس ليسوا من وسطنا الاجتماعي ـ حسمت باولينا دِل بالْيِه الأمر.

ـ إنّها أكثر الأسر التي أعرفها حشمة يا عمّتي ـ أكّد لها سِبِرو.

ـ أرى أنّك لم تتعلّم معي شيئاً. فللانتصار في هذا العالم يجب استخلاص الحسابات قبل العمل. أنت مُحام مستقبله لامع، وتحمل كنية من أقدم الكنيات الكبيرة في تشيلي. هل تظنّ أنّ المجتمع سيتقبّل زوجتَك؟ وابنة عمّك نيبيا، ألا تنتظرك؟ ـ سألت باولينا.

ـ هذا انتهى ـ قال سِبِرو.

ـ حسن، لقد حشرت نفسك عميقاً يا سِبِرو، أعتقد أن الوقت تأخر على التوبة. هيا نحاول إصلاح الأمور قدر استطاعتنا. المالُ والوضع الاجتماعي يلعبان دوراً كبيراً هنا وفي تشيلي. سأساعِدُك قدرَ استطاعتي. فلسبب ما أنا جدّة هذه الطفلة، ماذا قلت اسمها؟

ـ أورورا، لكنّ جدّيها يسميانها لاي ـ مينغ.

ـ إنها تحمل كنية دِل بالْيِه، ومن واجبي أن أساعِدها، نظراً لأنّ ماتياس غسل يديه من هذه المسألة المؤسفة.

ـ لن يكون ذلك ضرورياً يا عمّتي. لقد حضّرت كلّ شيء كي تتلقّى لين الأموال التي سأرثها.

ـ النقود لا تفيض مهما كثرت. على الأقل أستطيع أن أرى حفيدتي، أليس كذلك؟

ـ سنسأل لين وأبويها ـ وعد سِبِرو.

كانا ما يزالان في غرفة الطعام حين ظهر وليامز ومعه رسالة مستعجلة تُعلِن أنّ لين قد تعرّضت لنزيف، وهناك خوف على حياتها، وعليه أن يُهرع إليها فوراً. خرج سِبِرو مثل البرق باتجاه تشايناتاون، وحين وصل إلى منزل آل شيين وجد الأسرة الصغيرةَ مجتمعة حول سرير لين ، ساكنين كما لو أنّهم في وضعية الرسم للوحة مأساوية. في اللحظة الأولى هزّته رعشة أمل مجنون حين رأى كلَّ شيء نظيفاً مرتّباً، دون أيّ أثر للولادة، للخرق المتسخة أو

لرائحة الدم، لكنّه رأى بعدها الحزن على وجوه تاو شيين وإليثا و«محظوظ». صار الهواء في الغرفة خفيفاً، استنشق سِبِرو بعمق، وهو يكاد يختنق، كما لو أنه في أعلى جبل. اقترب مرتعشاً من الفراش ورأى لين ممدّدةً ويديها على صدرها، مطبقة الأجفان، شفافة الملامح: تمثال جميل من المرمر رماديّ اللون. أخذ يدها، القاسية والباردة مثل الجليد، وانحنى فوقها، فلاحظ أنّ تنفّسها يكاد لا يُحسُّ، وهي مزرقّة الشفتين والأصابع، قبّلها على كفّها بحركة لا نهاية لها، وبلّلها بدموعه، يهزمه الحزن. تمكّنت من التمتمة باسم ماتيّاس، وتنهّدت على الفور مرّتين، ومضت بالخفّة التي عبرت بها طافيةً في هذا العالم. صمتٌ مطلق استقبلَ لغزَ الموت وانتظروا خلال زمن يصعب قياسه جامدين، بينما روح لين تُنهي صعودَها. شعر سِبِرو بصرخةٍ طويلة تنبثق من أعماق الأرض وتخترقه من قدميه حتى فمه، لكنّها لا تتمكّن من الخروج من بين شفتيه. الصرخة غزته من داخله، وشغلت كيانه كاملاً، وانفجرت داخل رأسه انفجاراً أخرس. بقي هناكَ، راكعاً بجانب سرير لين بلا صوتٍ، غير مصدّق أمام القدر الذي انتزع منه بغتة المرأة التي حلم بها لسنواتٍ، وأخذها تماماً في الوقت الذي اعتقد أنّه حصل عليها. بعد برهة أبديّة شعر بهم يلمسونه على كتفه، ووجد نفسه أمام عيني تاو شيين المتغيّرتين، «حسن، حسن»، بدا له أنّه يتمتم، ورأى إلى الخلف منه إليثا سومّرز و«محظوظ»؛ يجهشان متعانقين، فعلم أنّه دخيل على ألم تلك الأسرة. عندئذ تذكّر الطفلةَ. ذهب إلى مهدِ الفضّة مترنِّحاً مثل سكران، أخذ الصغيرةَ أورورا بين ذراعيه، حملها حتى السرير وقرَّبها من وجه لين، كي تقولَ وداعاً لأمّها. ثمّ جلسَ وهي في حضنه يهدهد لها دون عزاء.

حين علمت باولينا دِل بالْيِه أنّ لين سومّرز قد ماتت، غمرتها موجة من السعادة، واستطاعت أن تُطلِق صيحة انتصار، قبل أن يجعلها الشعور بالعار من ذلك الشعور الخسيس ترتعب. دائماً رغبت بأن يكون لها ابنة. فمنذ حبلها الأوّل حلمت بالطفلة التي تحمل

اسمها، باولينا، وتكون أفضل صديقة ورفيقة لها. ومع كلّ واحد من الذكور الذين أنجبتهم شعرت بالخيبة، لكن الآن وهي في مرحلة النضج من حياتها، تسقط هذه الهديّة في حضنها: حفيدة تستطيع أن تُربيها كابنة لها، وشخص تقدّم إليه كلّ الفرص التي يمكن للحبّ والمال أن يمنحاه له، كما كانت تُفكّرُ، أحد يرافِقها في شيخوختها. مع خروج لين سومّرز من الإطار، تستطيع أن تحصل على الصغيرة باسم ماتيّاس. كانت تحتفل بضربة الحظ المفاجئة بفنجان من الشوكولاتة وثلاث قطع حلوى بالكريما، حين ذكّرها وليامز بأنّ الصغيرة تظهر شرعاً كابنة لِسِبِرو دِل بالْيه، الشخص الوحيد الذي له الحقّ بأن يقرّرَ مستقبلَها. هذا أفضل، خلُصت هي، لأنّ ابن أخيها موجود على الأقل هناك، بينما إحضار ماتيّاس من أوروبا وإقناعه بالمطالبة بابنته ستكون مهمّة طويلة الأجل. لم تتوقع مطلقاً ردّ فعل سِبِرو حين شرحت له خططها.

ـ شرعيّاً أنت والد الطفلة، وبذلك تستطيع أن تأتي بها غداً بالذات إلى هذا البيت ـ قالت باولينا.

ـ لن أفعل هذا يا عمّتي. سَيُبقي أبوا لين على حفيدتهما معهما، بينما أذهب أنا إلى الحرب؛ يريدون أن يُربّوها، وأنا موافق على ذلك ـ ردّ ابن الأخِ بنبرةٍ حاسمة لم تسمعها منه من قبل.

ـ هل أنت مجنون؟ لا نستطيع أن نترك حفيدتي بين يدي إليثا سومّرز وهذا الصيني ـ هتفت باولينا.

ـ ولم لا؟ هما جدّاها.

ـ هل تريدها أن تتربّى في تشاياناتاون؟ نحن نستطيع أن نمنحها التربية، والفرص، والرفاهية، وكنية محترمة. ولا شيء من هذا يستطيعان هما أن يمنحاها.

ـ سيمنحانها الحبّ ـ ردّ سِبِرو.

ـ وأنا أيضاً! تذكّر أنّك مدين لي بالكثير يا ابن أخي. هذه هي فرصتُك كي تردّ لي جميلي، وتفعل شيئاً من أجل هذه الطفلة الصغيرة.

ـ آسف جدّاً يا عمّتي، لقد حُسم الأمر. أورورا ستبقى مع جدّيها لأمّها.

باولينا دِل بالْيِه وقعت في واحدة من إغماءاتها الكثيرة المفتعلة في حياتها. لم تكن تعتقد أنّ ابن أخيها الذي كانت تفترض أنّه حليفها غير المشروط وصار ابناً آخر لها، يمكنه أن يخونها بمثل تلك الطريقة الحقيرة. صرخت كثيراً، شتمت، فكّرت عبثاً، اختنقت، مما اضطر وليامز أن يستدعي طبيباً، كي يمنحها جرعة مهدِّئة متناسبة مع حجمها، وينومها برهة جيّدة. وحين استيقظت بعد ثلاثين ساعة، كان ابن أخيها قد صار على ظهر السفينة البخارية التي ستحمله إلى تشيلي. وقد استطاع زوجها ووليامز الوفي أن يُقنعاها بأنّ الحالة لا تستدعي اللجوء إلى العنف، كما كانت تُفكِّرُ، لأنّه مهما كانت العدالة فاسدة في سان فرانسيسكو؛ فليس هناك من ممسك قانوني لانتزاع الطفلة من جدّيها لأمّها، آخذين بعين الاعتبار أنّ الأب المزعوم قد حدّد ذلك كتابةً. واقترحوا عليها ألاّ تلجأ لاستخدام وسيلتها المطروقة بتقديم المال مقابل الطفلة، لأن ذلك يمكن أن ينقلب عليها، ويصيبها مثل حجر على الأسنان. الطريق الوحيدة الممكنة هي الدبلوماسية ريثما يعود سِبِرو دِل بالْيِه، وعندئذ يمكنهم أن يتوصّلوا إلى اتفاق معه، هكذا نصحاها، لكنّها لم تَشَأ أن تستمع للعقل، ومثلت بعد يومين في قاعة شاي إليثا سومّرز ومعها اقتراح، كانت واثقة أنّ الجدّة الأخرى لايمكن أن ترفضه. استقبلتها إليثا في ثياب الحداد على ابنتها، لكن كانت مُنارة بعزائها بحفيدتها، التي تنام بهدوء إلى جانبها. وحين رأت مهد الفضّة الذي كان لأولادها منصوباً هناك بجانب النافِذة انتفضت باولينا، لكنّها تذكّرت على الفور بأنّها هي التي سمحت لوليامز أن يُسلّمه إلى سِبِرو، فعضّت على شفتيها. فهي ليست هناك كي تتشاجر من أجل مهدٍ، مهما كانت قيمته، بل كي تناقش موضوع حفيدتها. «لا يكسب من يملك الحق، بل من يُحسن المساومة»، هكذا اعتادت أن تقول. وفي هذه الحال لم يبدُ لها جليّاً أنّ الحقّ كان إلى

جانبها وحسب، بل إنّه ما من أحدٍ يستطيع أن ينتصر عليها بالمساومة.

أخرجت إليثا الطفلة من المهد وأعطتها إليها. فأمسكت باولينا تلك الصرّة المنمنمة، الخفيفة إلى حدّ بدا لها أنّها مجرّد لفّة من الخرق، وظنّت أنّ قلبها انفجر بشعور جديد تماماً. «يا إلهي، ياإلهي»، ردّدت مذعورة أمام تلك الرقّة المجهولة التي طرّت ركبتيها، واخترقها نحيب في صدرها. جلست على كرسيّ كبير مع حفيدتها شبه الضائعة في حضنها الهائل، تُهدهِد لها، بينما إليثا سومّرز ترتّب الشاي والحلوى التي كانت تقدِّمها إليها أيّام كانت واحدة من أكثر زبائنها مواظبة في محل الحلويات. وفي تلك اللحظات استطاعت باولينا دِل بالْيه أن تستعيد أنفاسها من الانفعال، وتضع مدفعيتها في وضعية الهجوم. بدأت بتقديم التعازي على وفاة لين، ثم واصلت بقبول أنّ ابنها ماتيّاس كان دون شكّ أبا أورورا، إذ يكفي النظر إلى المخلوقة لمعرفة ذلك: إنّها مثل جميع آل رودريغِث دِ سانتا كروث و دِل بالْيه. وقالت إنها تأسف كثيراً لأن ماتيّاس في أوروبا لأسباب صحّية ولم يستطع بعد أن يُطالب بالطفلة. ثم طرحت رغبتها بالاحتفاظ بالحفيدة نظراً لأنّ إليثا تعمل كثيراً، ووقتها ضيقٌ، وإمكاناتها أقل، ولا شكّ أنَّ من المحال عليها أن تمنح أورورا مستوى الحياة ذاته الذي سيكون لها في بيتها في نوب هيل. قالت لها ذلك بنبرة من يصنع معروفاً، مخفية رغبتَها، التي تضغط على حنجرتها، ورعشةَ يديها. فردّت إليثا سومّرز بأنّها تشكرها على اقتراحها الكريم، لكنّها واثقة من أنّها تستطيعُ مع تاو شيين أن تأخذ *لاي ـ مينغ* على عاتقهما، تماماً كما طلبت لين قبل وفاتها. وأضافت أنّ باولينا ستلقى الترحاب في حياة الطفلة طبعاً .

ـ علينا ألاّ نخلق إرباكاً حول أبوّة *لاي ـ مينغ* ـ أضافت إليثا سومّرز ـ فكما أكّدتِ أنتِ وابنك قبل أشهر، لم يكن له أي علاقة مع لين. تتذكّرين أنّ ابنك قد أعلن بوضوح أنّ أبا الطفلة يمكن أن يكون أيّ واحدٍ من أصدقائه.

ـ هذه أشياء تقال في حماس الشقاق يا إليثا. وماتيّاس قال ذلك دون تفكير... ـ تلعثمت باولينا.

ـ مجرّد أن لين تزوّجت من سِبرو دِل بالْيِه هذا يبرهن على أنّ ابنك قال الحقيقة يا باولينا. ليس بين حفيدتي وبينك أيّة رابطة دم، لكنّني أكرِّر أنّ باستطاعتك أن تريها حين ترغبين. فكلّما ازداد عدد الناس الذين يحبونّها كان ذلك أفضل لها.

في نصف الساعة التالية تواجهت المرأتان مثل مصارعتين، كلّ واحدة بأسلوبها. فقد انتقلت باولينا من المجاملة إلى العدوانية، ومن الرجاء إلى وسيلة الرشوة اليائسة، وحين فشل كلّ ذلك انتقلت إلى التهديد، دون أن تتزحزح الجدّةُ الأخرى ولا حتى نصف سنتيمتر عن موقفها، باستثناء أنها قامت لتأخذ الطفلة بنعومة وتعيدها إلى المهد. لم تدرِ باولينا متى صعد الغضب إلى رأسها، وفقدت السيطرة على الحالة تماماً، وانتهت إلى الزعيق بأنّ إليثا سومّرز سترى من هم آل رودريغِث دِ سانتا كروث، وكم من السلطة لها في تلك المدينة، وكيف يستطيعون أن يحطّموا تجارة حلواها التافهة، وصِينيَّها أيضاً، وأنه ليس من مصلحة أحدٍ أن يتحوّل إلى عدوٍّ لِباولينا دِل بالْيِه، وأنّها عاجلاً أم آجلاً ستنتزع منها الصغيرة، وتستطيع أن تكون متأكّدة من هذا تماماً، لأنّه لم يولَد بعد من يقف في وجهها. وبضربة من يدها كنست فناجين الخزف الرقيقة، والحلوى التشيلية التي حطّت على الأرض في غيمة من السكر غير محسوسة، وخرجت تزمجر مثل ثور مصارعةٍ. وما أن صارت في العربة، والدم يطرق صدغيها، والقلب يرفس تحت طبقات شحمها المشدودة بالمِشدّ، حتى راحت تبكي كما لم تبكِ من قبل، منذ أن وضعت مرتاجاً لباب غرفتها وأصبحت وحيدة في السرير الأسطوري الهائل. تماماً كما خانتها في تلك اللحظة أفضل أدواتها: مهارتها في المساومة التي تشبه مهارة تاجر عربي، وجاءتها بنجاحات كثيرة في جوانب أخرى من الحياة. ولأنّها طمحت أكثر من اللازم فقد خسرت كلّ شيء.

القسم الثاني

1896 - 1880

هناك صورة لي وأنا في الثالثة أو الرابعة من عمري، الوحيدة التي تخطت خطوب القدر وقرار باولينا دِل بالْيِه بمحو أصولي. إنّها قطعة كرتون متآكلة في إطار رحلات، إطار قديم على شكل علبة من القطيفة والمعدن، التي كانت دارجة جدّاً في القرن التاسع عشر وما من أحدٍ يستخدمها الآن. يمكن أن تُشاهد في الصورة مخلوقة صغيرة جدّاً، مزوّقة على طريقة العرائس الصينية، في دثار طويل من الساتان المطرّز وتحته بنطلون من لون آخر، تنتعل حذاءاً رقيقاً مركباً على لبّاد أبيض محميّ بشريحة رقيقة من الخشب، شعرها داكن منفوش في كعكة عالية أكثر من اللازم بالنسبة لحجمها مسندة بمشبكين غليظين، ربّما من ذهب أو فضّة، يربط بينهما إكليل من الزهر. تُمسك الصغيرة بيدها مروحةً ويمكن أن تكون مبتسمة، لكنّ تقاسيمها لا تكاد تُميَّزُ، فالوجه مجرّد قمر ساطع، والعينان بقعتان سوداوان. ويُلمَحُ خلف الطفلة رأسُ تنين من ورق ونجوم ألعاب نارية متلألئة. وقد التُقِطَت الصورةُ خلال الاحتفال بالسنة الصينية الجديدة في سان فرانسيسكو. لست أتذكّر تلك اللحظة، ولا أتعرّف على طفلة هذه الصورة الوحيدة.

بينما أمّي لين سومّرز تظهر في عددٍ من الصور أنقذتُها من النسيان بالعناد والعلاقات الطيّبة. لقد ذهبتُ إلى سان فرانسيسكو منذ سنوات لأتعرّف على خالي «محظوظ» وتفرّغتُ للمرور على

مكتبات واستوديوهات مصوّرين قديمة باحثة عن تقاويم وبطاقات بريدية كانت تقف من أجل التقاطها لها؛ ما زلتُ أتلقى بعضها حين يعثر عليها خالي «محظوظ». كانت أمّي جميلة جدّاً، هذا كلّ ما أستطيع قوله عنها، لأنّني أيضاً لا أعرفها في هذه الصور الوجهية. لا أتذكّرها، طبعاً، لأنّها ماتت حين وُلِدتُ، لكنّ امرأة التقاويم غريبة، لا شيء عندي منها كي أتمكّن من أراها كأمٍّ لي، بل كمجرّد لَعِبٍ بالنور والظلّ على الورق. كما أنّها لا تبدو أختاً لخالي «محظوظ»، فهو صينيّ قصير الساقين، كبير الرأس، ذو مظهر عاديّ، لكنّه شخص طيّب جدّاً. إنني أشبه أبي أكثر، لي هيئته الإسبانية، وللأسف لم آخذ من عرق جدّي الرائع تاو شيين إلا القليل جدّاً، ولو لم يكن هذا الجدّ هو الذكرى الأنقى والأبقى من حياتي، والحب الأقدم الذي تحطّم عليه كلّ الرجال الذين عرفتهم، لأنّه ما من أحدٍ منهم يستطيع أن يساويه، ما كنتُ لأومن بأنّني أحمل دماً صينيّاً في عروقي. فتاو شيين يعيش معي دائماً. أستطيع أن أراه، ممشوقاً، رشيقاً، ثيابه دائماً تامّة الأناقة، رمادي الشعر، دائريّ النظارات، وفي عينيه اللوزيتين نظرة طيبة لا محيد عنها. في استحضاري له يبتسم دائماً، وأحياناً أسمعه يُغنّي لي بالصينية. يطوف بي، يرافقني، يقودني، تماماً كما قال لجدّتي إليثا أن تفعل بعد موته. توجد صورةٌ داغرتييب لهذين الجدّين حين كانا شابّين، قبل زواجهما: هي جالسة على كرسي لها ظهر عالٍ وهو واقف خلفها، وكلاهما يرتدي ثياباً على الطريقة الأمريكية في ذلك الوقت، ينظران إلى الكاميرا أمامهما بتعبير ضبابي مبهم. هذه الصورة، المنقّذَة أخيراً، موجودة على طاولة غرفة نومي، وهي آخر ما أراه قبل أن أطفئ المصباح كلّ ليلة، لكنني أتمنى لو كانت معي في طفولتي، حين كنتُ بأمسّ الحاجة لوجود هذين الجدّين.

مذ صرت أستطيع التذكّرَ عذّبني الكابوس ذاته. تُلازمني صور هذا الحلم المتواصلُ طوالَ ساعات، مضيّعةً عليّ يومي وروحي؛ هو دائماً المشهد ذاته: أسيرُ في شوارعِ مدينةٍ مقفرة، مجهولة وغريبة، أمضي ممسكة بيدِ شخصٍ ما لا أتمكّن أبداً من تبيُّنِ وجهه، فقط أرى

ساقيه ومقدمة نعليه اللامعين. وسرعان ما يحيط بنا أطفال في بيجامات سوداء يرقصون رقصةً متوحشة. وبقعة داكنة، ربّما كانت دماً، تنتشر على حجارةِ الأرض، بينما دائرة الأطفال تنغلق بلا رحمة، وهم في كلّ مرّة أكثر تهديداً، حول الشخص الذي يمسكني من يدي. يُحدِقون بنا، يدفعوننا، يشدّوننا، يفصلوننا، أبحثُ عن اليد الصديقة فأجدُ الفراغَ. أصرخُ بلا صوتٍ، أسقط بلا ضجيجٍ وعندئذٍ أستيقظ وقد سقط قلبي منّي. أقضي أحياناً عدَّةَ أيام صامتةً، تضنيني ذكرى الحلم، أحاوِل أن أنفذ من طبقات اللغز التّي تلفّه، عسى أن أكتشف بعض التفاصيل، غير المحسوسة حتى ذلك الوقت، فتمنحني مفتاح معناه. أعاني في هذه الأيّام من نوعٍ من الحمّى الباردة ينغلق فيها جسدي ويُحاصَرُ عقلي في أرض شديدة البرودة . في هذه الحالة من الشلل كنتُ خلال الأسابيع الأولى في بيت باولينا دِل بالْيِه. لقد كنتُ في الخامسة من عمري حين حملوني إلى قصر نوب هيل ولم يُكلّف أحد نفسه عناء أن يشرح لي لماذا انقلبت حياتي فجأة انقلاباً مأساويّاً، أين هما جدّاي إليثا وتاو، من هي تلك السيّدة الضخمة المغطاة بالمجوهرات التي تراقِبني من فوق عرشها بعينين مليئتين بالدموع. ركضتُ كي أحشر نفسي تحت طاولة، وبقيت هناك مثل كلبٍ ضُرِبَ بالعصي، حسب ما حكوا لي. في تلك المرحلة كان وليامز هو رئيس خدم آل رودريغِث دِ سانتا كروث ـ في الحقيقية أتعذَّبُ كثيراً بتذكّره ـ وهو من خطر له في اليوم التالي حل المسألة بأن يضع لي الطعامَ في صينيّة مربوطة بحبل رفيع؛ وراحوا يشدّون الحبل قليلاً وأنا رحتُ أتجرجر خلف الصينية حين لم أعد أستطيع تحمّل الجوع أكثر، إلى أن تمكّنوا من سحبي من مخبئي؛ ولكنّني في كلّ مرّةٍ كنتُ أستيقظُ فيها على الكابوس أعودُ وأختبئ تحت الطاولة. دامَ هذا عاماً، إلى أن جئنا إلى تشيلي وانقشعت عنّي هذه العادة الغريبة خلال ذهول السفر واستقرارنا في سانتياغو.

كابوسيَ بالأبيض والأسود، صامت، وحتمي، له خاصّية أبدية. أفترضُ أنّني أصبحت أملك من المعلومات ما يكفي لمعرفة مفاتيح معناه، ولكنّ هذا لا يعني أنّه ما عاد يعذّبني. أنا مختلفة بسبب

أحلامي، مثل أولئك الناس الذين بسبب مرض أو تشوّه ولاديّ عليهم أن يقوموا بجهدٍ متواصل كي يعيشوا حياةً عاديّة. تظهر عليهم علامات مرئيّة، علامتي لا تُرى لكنّها موجودة، أستطيع أن أقارنها بنوبات الصرع التي تهجم فجأة وتخلّف أثراً من الارتباك. أنامُ في الليل خائفةً، لا أدري ماذا سيجري في نومي ولا كيف سأستيقظ. جرّبت عدّة وسائل ضدّ شياطينيَ الليلية، بدءاً من ليكور البرتقال مع قطرات قليلة من الأفيون وحتى غيبوبة التنويم المغناطيسي وأشكال أخرى من السحر الأسود، لكن ما من شيء يضمن لي حلماً وديعاً، باستثناء الرفقة الطيّبة. فالوسيلة الوحيدة المضمونة حتى الآن هي أن أنام مضمومةً. يجب أن أتزوّج، كما ينصحني جميع الناس، لكنّني فعلت ذلك مرّة وكانت مصيبةً، ولا أستطيع أن أغوي القدر من جديد. في الثلاثين من عمري وأنا دون زوج، وأنا أقل من قبيحة بقليل، تنظر إليَّ صديقاتي بإشفاق، وإن كان بعضهنّ يُغبطنني على استقلاليتي. لستُ وحدي، عندي حبّي السريّ، بلا قيودٍ ولا شروط، وهذا سبب للفضيحة في أيّ مكان، وخاصّة هنا حيث قُدِّر لي أن أعيش. لست عازبة ولا أرملة ولا مُطلّقة، أعيشُ في برزخ «المنفصلات»، حيث ستنتهي سيّئات الحظ اللواتي يُفضّلن السخرية العامّة على العيش مع رجل لا يُحببنه. فأيّة طريقة أخرى يمكن العيش بها في تشيلي، حيث الزواج أبديّ وحتميّ؟ في بعض الصباحات الاستثنائية، حين يكون جسد حبيبي وجسدي رطبين من العرق، وطراوة الأحلام المشتركة ما تزال تقبع في تلك الحالة من رقّة شبه الوعي المطلقة، سعيدين وواثقين مثل طفلين نائمين، نقع في إغواء التكلّم عن زواجنا، عن ذهابنا إلى مكانٍ آخر، إلى الولايات المتحدة مثلاً، حيث يوجد فضاء كثير ولا أحد يعرفنا، كي نعيش معاً مثل أيّ زوجين عاديين، لكنّنا نستيقظ بينما الشمس تُطلّ من النافذة فلا نعود لنذكره، لأنّ كلينا يعرف أنّنا لا نستطيع العيش في مكانٍ آخر، إنما فقط في تشيلي الكوارثِ الجيولوجيةِ والصغائرِ الإنسانية، لكنّها أيضا تشيلي البراكينِ الشديدة والقمم المثلجة، والبحيرات المغرقة في القدم المزروعة بالزمرّد، والأنهار المزبدة والغابات الفوّاحة، البلد الضيّق مثل شريط، وطن الناس الفقراء الذين

ما يزالون أبرياء على الرغم من كلّ التماديات وتنوّعاتها. **لا هو** يستطيع الذهاب، ولا أنا أتعبُ من تصويره. أودّ أن يكون **عندي** أولاد، هذا صحيح، لكنّني قبلت أخيراً أنّني لن أصبح أمّاً أبداً؛ **لست** عاقراً، بل خصيبة في جوانب أخرى. نيبيا دِل بالْيِه تقول إنّ الكائن البشري لا يُعرَّف بقدرته على الإنجاب، وهو ما يبدو سخرية لأنّها تصدر عنها، فقد أنجبت اثني عشر صبيّاً. لكن ليست المسألة هنا للكلام عن الأولاد الذين لن يكونوا لي أو عن حبيبي، بل عن الأحداث التي تُحدّد من أكون. أُدرِك أنني في كتابة هذه المذكرات عليّ أن أخون آخرين، وهذا شيء حتمي. «تذكّري أن الثياب الوسخة تُغسل في البيت»، هذا ما يُردّده عليّ سِبِرو دِل بالْيِه الذي تربّى مثلنا جميعاً تحت هذا الشعار. بالمقابل تنصحني نيبيا: «اكتبي بنزاهة ولا تهتمّي بمشاعر الآخرين، فهم سيكرهونك في جميع الأحوال ولتقولي ما تقولين». لنتابِعْ إذن.

أمام استحالة القضاء على كوابيسي، أحاول على الأقل أن أستخلص منها فائدة ما. لقد تبيّنتُ أنّني بعد ليلةٍ مضنية أبقى مهلوسةً ومتوقدةً، حالة مثالية للإبداع. أفضل صوري التقطها في مثل تلك الأيّام، حين تكون رغبتي الوحيدة أن أحشر نفسي تحت الطاولة، تماماً كما كنتُ أفعلُ في الأيام الأولى في بيت جدّتي باولينا. حلم الأطفال ذوي البيجامات السوداء قادني إلى التصوير، أنا واثقة من ذلك. كان أوّل ما خطر ببالي حين أهداني سِبِرو دِل بالْيِه كاميرا، هو أنّني لو استطعت تصوير هذه الشياطين، لهزمتهم. وفي الثالثة عشرة من عمري حاولت ذلك مرّاتٍ كثيرة. ابتدعتُ أنظمة معقّدة من الدواليب الصغيرة والحبال لأشغِّلَ كاميرا ثابتة بينما أنا نائمة، إلى أن بدا واضحاً أنّ هذه المخلوقات الضارّة منيعة على هجوم التكنولوجيا. فحين يُراقب شيءٌ أو جسدٌ ما ذو مظهر شائع باهتمام حقيقيّ يتحوّل إلى شيءٍ مقدّس. الكاميرا تستطيع أن تكشف عن أسرارٍ لا تلتقطها العين المجرّدة أو العقل، كلُّ شيء يختفي إلاّ الشيء المرصود في البؤرة. التصوير هو تمرين على المراقَبَة، والنتيجة دائماً ضربةُ حظّ؛ بين آلاف وآلاف المسودات التي تملأ

الأدراج عندي في الأستوديو قليل جدّاً ما هو استثنائي منها. خالي «محظوظ» شيين سيشعر بخيبة صغيرة لو علم كم كان ضعيفاً تأثير نَفَسه، نَفَس الحظ السعيد في عملي. الكاميرا جهاز بسيط، يستطيع أقل الناس كفاءة استخدامه، والتحدي يكمن في إبداع التركيب بين الحقيقة والجمال الذي يُسمّى الفنّ. هذا البحثُ روحيٌّ فوق كلّ شيء. أبحث عن الحقيقة والجمال في شفافيةِ ورقةٍ في الخريف، في الشكل التام لحلزون على الشاطئ، في انحناءة ظهر أنثوي، في نسيج جذعِ شجرةٍ قديم، لكن أيضاً في أشكالٍ أخرى فرورة من الواقع. أحياناً تظهر أثناء العمل على صورة في غرفتي المظلمة روحُ الشخص، انفعال حادثٍ أو الجوهر الحيوي لشيء ما، وعندئذٍ ينفجر العرفان في صدري وأطلق النحيبَ، لا أستطيع تفاديه. ونحو هذا الكشف تُصَوِّبُ مهنتي.

ملك سِبِرو دِل بالْيه عدّة أسابيع من الإبحار كي يبكي لين سومّرز ويُفكّر فيما ستصير إليه بقيّةُ حياته. كان يشعر بنفسه مسؤولاً عن الطفلة أورورا، وقد حرَّر قبل أن يُبحِر وثيقة يعودُ بموجبها الإرثُ القليل الذي كان سيتلقاه من والده ومدّخراته مباشرةً إليها في حال وفاته. تتلقّى خلال ذلك الفوائدَ كلّ شهر. كان يعلم أنّ والديّ لين سيعتنون بها أفضل من أيّ شخص آخر، ويَفترِضُ أنّه مهما بلغَ جبروت عمّته باولينا فإنّها لن تحاوِل أن تنتزعها منهما بالقوّة، لأنّ زوجها لن يسمح أن تتحوّل القضيّةُ إلى فضيحة علنية.

خلُص سِبِرو الجالس في مُقدّمة السفينة، ضائعَ النظرة في البحر اللانهائي، إلى أنّه ما من شيء سيواسيه عن فقدان لين. لم يكن يرغب بالعيش دونها. أن يموتَ في المعركة ذلك أفضل ما يقدّمه له المستقبلُ: كلّ ما يطلبه هو أن يموت قريباً وبسرعةٍ. لقد شغل حبُّه للين وقراره بمساعدتها وقتَه واهتمامَه خلال أشهر، لذلك أرجأ العودةَ يوماً بعد يوم، بينما جميع التشيليين من عمره سجّلوا أنفسهم جماعياً للقتال. على متن السفينة كان يذهب عددٌ من الشباب للغاية ذاتها التي يذهب هو لأجلها: الانضمام إلى الصفوف ـ ارتداء الزي

العسكري كان مسألة شرف ـ وكان يجتمع معهم ليُحلّلوا أخبارَ الحرب المنقولة برقيّاً. انتهى سِبرو خلال السنوات الأربع التي قضاها في كاليفورنيا إلى أن اجتثّ من بلده، وجاءت استجابته لنداء الحرب كشكلٍ من أشكال الاستسلام لألمه، دون أن يشعر بأيّ حماس حربيّ. ومع ذلك، وكلما توغّلت السفينة باتجاه الجنوب راح يُصاب بعدوى حماس الآخرين. عاد ليفكّر بخدمة تشيلي، كما رغب في مرحلة المدرسة، حين كان يُناقِش في شؤون السياسة في المقاهي مع طلاّب آخرين. وافترض أنّ رفاقه القدماء لا بدّ يُقاتلون منذ شهور، بينما هو يدور حول سان فرانسيسكو منذ ساعة كي يزور لين سومّرز ويلعب *الماه ـ جونغ*. كيف يستطيع أن يُبرِّر مثل هذا الجبن أمام أصدقائه وأقربائه؟ كانت صورة نيبيا تنقضُّ عليه خلال هذه التخيّلات. لن تتفهّم ابنة عمّه تأخّره في العودة للدفاع عن الوطن، فهو واثق من أنّها لو كانت رجلاً لكانت أوّل من غادر إلى الجبهة. لحسن الحظّ أنّه لا مجال معها للتوضيحات، فقد كان يأملُ أن يموتَ مخرّماً بالرصاص قبل أن يعودَ ليراها، وكان يحتاج من الشجاعة لمواجهة نيبيا، بعد أن أساء التصرّف معها، ما يفوق حاجته منها لقتال أشدّ الأعداء ضراوةً. كانت السفينة تتقدّم ببطءٍ مثيرٍ للأعصاب، وبهذه الطريقة سوف تصل إلى تشيلي بعد أن تنتهي الحربُ. كان واثقاً من أنّ النصرَ سيكون حليف أتباعه، على الرغم من تفوّق العدوّ العددي وعدم كفاءة القيادة العسكرية التشيلية المتكبّرة؛ فالقائد العام للجيش وأميرال الأسطول عجوزان لم يتمكّنا من الاتفاق على أدنى استراتيجيّة، ولكنّ التشيليين كانوا أكثر انضباطاً عسكرياً من البيرويين والبوليفيين. «كان من الضروري أن تموتَ لين كي أقرِّرَ العودةَ إلى تشيلي لأقوم بواجبي الوطني، أنا قملة». راح يدمدم في داخله، شاعراً بالعار.

كان ميناء بالبارايسو يتلألأ في نور كانون الأوّل المشع عندما رست الباخرةُ في الخليج. حين دخلوا مياه البيرو وتشيلي الإقليمية لمحوا بعض بواخر أسطولي البلدين تقوم بمناورات، لكنَّ الحرب لم تنجلِ لهم قبل أن يرسو في بالبارايسو. كان مظهر الميناء مُختلِفاً

عمّا يتذكّره سِبرو. فالمدينة قد تعسكرت، وهناك قوّات مجمعة تنتظر نقلها، والعلم التشيلي يرفرف على المباني؛ وتلاحظ حركة كبيرة بين القوارب وزوارق القَطْرِ حول عددٍ من سفن الأسطول، بينما تندر سفن الركّاب. كان الشابُ قد أعلن لأمّه عن تاريخ وصوله، لكنّه لم يكن يأمل أن يراها في الميناء، لأنّها تعيشُ منذ سنتين في سانتياغو مع أولادها الصغار، والسفر من العاصمة بالنتيجة مزعجٌ جدّاً. للسبب ذاته لم يُزعج نفسه بالنظرِ في الميناء بحثاً عن أناسٍ يعرفهم، كما كان يفعل معظم المسافرين. أخذ حقيبته، وأعطى بحّاراً بعض النقودِ كي يأخذ على عاتقه أمر صناديقه، وهبط على المعبرِ مستنشقاً ملء رئتيه الهواء المالح للمدينة التي وُلِدَ فيها. حين وطئ الأرض راح يترنّح مثل سكران، فقد اعتاد خلال أسابيعِ الإبحارِ على ترنّحِ الأمواجِ، والآن يستصعبُ السير على اليابسة. استدعى حمّالاً بالصفير كي يُساعده في حمل أمتعته، واستعدّ للبحث عن عربة تقوده إلى بيتِ جدّته إميليا، حيث فكّر أن يمكث ليلتين ريثما يتمكّن من الالتحاق بالجيش. في تلك اللحظة شعر بأن هناك من يلمس ذراعَهُ. التفت مندهشاً فوجد نفسه وجهاً لوجهٍ أمام آخر من كان يرغب برؤيته في هذا العالم: ابنة عمّه نيبيا. احتاج لثانيتين كي يتعرّف عليها ويفيق من دهشته. لقد تحوّلت الفتاةُ التي خلّفها وراءه قبل أربع سنواتٍ إلى امرأة مجهولة، قصيرة دائماً، لكنّها أكثر نحولاً وأحسن تكويناً. الشيء الوحيد الذي بقي دون أن يمسّ هو تعبير وجهها الذكيّ والمركّز. كانت ترتدي فستاناً صيفيّاً من التفتا الأزرق وقبّعة قشّ لها أنشوطة قطنية بيضاء كبيرة معقودة تحت ذقنها، تُؤَطّر وجهها البيضويَّ ذا التقاسيم الناعمة، حيث تلمع عيناها السوداوان القلقتان واللعوبتان. كانت وحدها. لم يتمكّن سِبرو من السلام عليها، وبقي ينظرُ إليها فاغرَ الفم، إلى أن عادت إليه نباهته وتمكّن من سؤالها، مرتبكاً، عمّا إذا تلقّت رسالتَه الأخيرة، وكان يشير إلى تلك التي أعلن فيها زواجه من لين سومرز. وبما أنّه لم يكتب إليها منذ ذلك الوقت افترض أنّها لم تكن تعرف شيئاً عن موت لين أو ولادة أورورا لم يكن باستطاعة ابنة عمّه، أن تتكهّن بأنّه صار أرملَ وأباً دون أن يُصبح زوجاً قط.

ـ سنتكلّم عن هذا فيما بعد، لكن دعني الآن أرحبّ بك. فهناك عربة تنتظرنا ـ قاطعته.

ما إن وُضِعت الصناديق في العربة حتى أمرت نيبيا الحوذيَّ بأن يقودهم متمهلاً عبر كورنيش البحر، فهذا يفسح لهما المجال كي يتكلّما قبل الوصول إلى البيت، حيث تنتظره بقيّة الأسرة.

ـ تصرّفتُ معك دون ضمير يا نيبيا. الشيء الوحيد الذي أستطيعُ أن أقوله لصالحي هو إنّني لم أشَأْ قط أن أجعلك تُعانين ـ همس سِبِرو دون أن يجرؤ على النظر إليها.

ـ أعترف أنّني كنت حانقة عليك يا سِبِرو، وكان عليَّ أن أعضّ على لساني كيلا ألعنكَ، لكنّ حنقي ذهب. أعتقد أنّك عانيتَ أكثر منّي. حقيقةً يحزنني جدّاً ما حدث لزوجتك.

ـ وكيف عرفت بما حدث؟

ـ تلقيت برقية بالخبر، وقّعها شخص يُدعى وليامز.

ردّة فعل سِبِرو دِل بالْيه الأولى كانت الغضب، كيف يجرؤ رئيس الخدم على حشر نفسه بهذه الطريقة في حياته الخاصّة، لكنّه لم يستطع بعد ذلك أن يتفادى نزعة الامتنان له لأنّ تلك البرقية وفّرت عليه توضيحات مؤلمة.

ـ لا أتوقّع أن تغفري لي، بل أن تنسيني فقط يا نيبيا. أنتِ أكثر من أيّ شخصٍ آخر تستحقين أن تكوني سعيدةً...

ـ من قال لك إنّني أرغب أن أكون سعيدةً يا سِبِرو؟ إنّها آخر صفة يمكنني أن أستخدمها لتعريف المستقبل الذي أطمح إليه. أريد حياة مهمّة، مغامِرة، مختلفةً، حماسية، في النهاية أيّ شيء قبل السعادة.

ـ آه يا ابنة العم! شيءٌ رائع أن يتبينّ المرءُ قلّةَ ما تغيّرتِ! على كلّ حالٍ بعد يومين سأكون راحلاً مع الجيش نحو البيرو، وبصراحة آمل أنْ أموتَ وأنا انتعل جزمتي العسكرية، لأنّه لم يعد لحياتي معنى.

ـ وابنتكَ؟

ـ أرى أنّ وليامز وضعك في كلّ التفاصيل. ألم يقُل لكِ أيضاً إنّني لستُ أبَ هذه الطفلة؟ ـ سأل سِبِرو.

ـ من يكون؟

ـ لا يهمّ. قانونيّاً هي ابنتي. إنّها بين أيدي جدَّيْها ولن ينقصها المال فقد تركتها محميّة تماماً.

ـ وما اسمها؟

ـ أورورا.

ـ أورورا دِل بالْيِه... اسم جميل. حاوِلْ أن تعودَ من الحرب كاملاً يا سِبِرو، لأنّ هذه الطفلة ستصبح حين نتزوّج ابنتنا الأولى. ـ قالت نيبيا محمرّة خجلاً.

ـ ماذا قلتِ؟

ـ انتظرتُك طوال حياتي، وأستطيع تماماً أن أستمرّ بانتظارك. لست مستعجلة، هناك أشياء كثيرة عليَّ أن أفعلها قبل أن أتزوّج. أنا أعمل.

ـ تعملين! ولماذا؟ ـ هتف سِبِرو مستنكراً، إذ ما من امرأة في أسرته أو أيّة أسرة أخرى يعرفها عملت.

ـ كي أتعلّم. خالي خوسيه فرانسيسكو تعاقد معي كي أنظّم له مكتبته، وقد أذن لي بقراءة كلّ ما أريدُه. هل تتذكّره؟

ـ معرفتي به قليلة جدّاً. أليس هو من تزوّج من وارثة كبيرة وعنده قصر في بينيا دِل مار؟

ـ هو نفسه، إنّه قريب أمّي. لا أعرف رجلاً أكثر معرفة وطيبةً منه، ثمّ إنّه فتى وسيم، وإن لم يكن مثلك. ـ ضحكت هي.

ـ لا تسخري يا نيبيا!

ـ هل كانت زوجتُك جميلةً؟ ـ سألت الفتاة.

ـ جميلة جدّاً.

ـ يجب أن تعيش الحداد يا سِبِرو. ربّما أفادتك الحربُ من أجل

هذا. يقولون إنّ النساء الجميلات جدّاً لا يُنسين أبداً، آمل أن تتعلّم على العيش دونها، وإن لم تنسها. سأُصلّي كي تعودَ وتعشق، وحبّذا لو أكون أنا المعشوقة... ـ تمتمت نيبيا وقد أمسكت بيده.

عندئذ شعر سِبِرو دِل بالْيِه بألم رهيب في صدره، مثل سهم يخترق أضلاعه، وبانتحابٍ يُفلت من بين شفتيه تبعه إجهاش جامح يهزّه كاملاً، بينما راح يردّد غاصّاً اسم لين، لين، ألف مرّة لين. شدّته نيبيا إلى صدرها، وأحاطته بذراعيها الرقيقين مرّبتة ربتةَ مواساة على ظهره، كأنّه طفل.

بدأت حربُ الباسيفيك في البحر واستمرّت على البر، بالقتال جسداً لجسد بالحراب والخناجر المعقوفة في أكثر صحارى العالم حرارةً وقسوة، في المقاطعات التي تُشكّل اليوم شمال تشيلي، وكانت قبل الحرب تنتمي إلى بيرو وبوليفيا. كانت الجيوش البيروية والبوليفية ضعيفة الاستعداد للمعركة، فهي قليلة العدد، سيّئة التسليح ونظام الإمداد والتموين عندها يخونها دائماً، حتى إن بعض المعارك والمناوشات قرّرها نفادُ ماء الشرب، أو غوص عجلات العربات المحملة بصناديق الرصاص في الرمل. أما تشيلي فكانت بلداً توسّعياً، ذات اقتصاد متين، تملكُ أفضل أسطولٍ بحري في أمريكا الجنوبية ولديها جيش يضمّ أكثر من سبعين ألف رجل؛ مشهورة بأنّها متحضرة في قارّة زعماؤها المحليون أفظاظ، فسادها منظّم وثوراتها دامية؛ وكانت صرامة المزاج التشيلي ورسوخ مؤسساته محطَّ حسدِ الأمم المجاورة، ومدارسُها وجامعاتها تجتذب المدرسين والطلاّب الأجانب. وكان تأثير المهاجِرين الإنكليز والألمان والإسبان قد تمكّن من فرض بعض الاعتدال في جبلة الخلاسيِّ المتهوّر. وكان الجيشُ يتلقّى تدريبات بروسية ولا يعرف السلم، فخلال السنوات السابقة على حرب الباسيفيك حافظ على السلاح في يده يُقاتل في جنوب البلاد الهنودَ في منطقة لافرونتِرا، ، لأنّ ذراع التمدن قد وصلت إلى هناك، فقط حيث تبدأ وراءها أراضي السكان الأصليين العصيّة، التي لم يجرؤ

على المغامرة فيها حتى ذلك الوقت إلاّ بعض المبشرين اليسوعيين. فالمحاربون الأروكانيون العظماء الذين مازالوا يُقاتلون دون هوادة منذ أيّام الاحتلال، لا ينثنون أمام الرصاص ولا أمام أسوأ الفظائع، لكنّهم كانوا يسقطون الواحدُ تلو الآخر من الإفراط بالخمرة. كان الجنود يتدرَّبون بالقتال ضدّهم. وسرعان ما تعلّم البوليفيون والبيرويون الخوف من التشيليين، الأعداء الدمويين القادرين على أن يقضوا على الجرحى والأسرى ذبحاً بالسكين ورمياً الرصاص . أيقظَ التشيليون عند مرورهم من البغض والخوف ما حرّك كراهيةً دوليةً عنيفةً وسلسلةً لا نهاية لها من المطالب والخصومات الدبلوماسية ضدّهم، مهيّجين عند أعدائهم العزم على القتال حتى الموت، لأنّ الاستسلام لم يكن يُفيدهم. كانت القوّات البيروية والبوليفية مؤلّفة من حفنة من الضبّاط، وفرق من الجنود العاديين سيّئي التجهيز، وأفواج من السكان الأصليين المجنَّدين بالقوّة، يكادون لايعرفون لماذا يُقاتِلون، ويهربون عند أوّل فرصة تلوح لهم. بينما الصفوف التشيلية غالبيتها من المدنيين المتحمسين للقتال كالعسكر تماماً، يُقاتلون بحماس وطني ولا يستسلمون. وكثيراً ما كانت ظروفهم جهنّمية؛ فخلال مسيرتهم في الصحراء كانوا يجرجرون وراءهم غمامة من الغبار المالح، يكاد يقتلهم العطش، والرمال تصل إلى وسط أفخاذهم، وشمس لا تعرف الرحمة تتفجّر فوق رؤوسهم، وعلى كاهلهم ثقل أكياسهم ومؤنهم، ممسكين ببنادقهم، قانطين. كان الجدري، والتيفوس وحمّى الثلث تحصد العِشْرَ؛ وكانت المستشفيات العسكرية تعجُّ بالمرضى أكثر من جرحى المعارك. حين انضمّ سِبرو دِل بالْيه إلى الجيش، كان أبناء بلده يحتلون أنتوفاغاستا ـ المقاطعة البحرية الوحيدة في بوليفيا ـ ومقاطعات تاراباكا وأريكا وتاكانا البيروية. وفي أواسط العام 1880 توفّي وزيرُ الحرب والبحرية بجلطة دماغية، في أوج حملة الصحراء فوضع الحكومة في إرباك تام. أخيراً عيّن الرئيس مكانه مدنيّاً، دون خوسيه فرانسيسكو برغارا، خال نيبيا، الرحالة الذي لا يكلّ والقارئ النهم، الذي قُدِّر له أن يقبض على السيف ويديرَ الحرب وهو في السادسة والأربعين من عمره. وهو من أوائل من

لاحظ أنّه بينما تتقدّم تشيلي لاحتلال الشمال، كانت الأرجنتين تنتزع منها باتاغونيا في الجنوب بصمت، لكن ما من أحد أولاه انتباهاً، لأنّهم كانوا يعتبرون أن تلك المنطقة كالقمر في عدم فائدتها. كان برغارا لامعاً، دمث الخلق، حادّ الذاكرة، يهتم بكل شيء بدءاً من النباتات وحتى الشِّعر، كان عصيّاً على الفساد، ليس عنده أيّ طموح سياسيّ. وضع الاستراتيجية الحربية بالدقة الهادئة ذاتها التي يُدير بها أموره التجارية. وعلى الرغم من عدم ثقة أصحاب اللباس العسكري به، وأمام دهشة العالم كلّه، قاد القوات التشيلية مباشرة إلى ليما. وتماماً كما قالت نيبيا: «الحربُ مسألة هي من الجدّية بحيث لا تُسلّم للعسكر» خرجت العبارة من حضن الأسرة وتحوّلت إلى واحدة من تلك الأقوال المأثورة التي تمضي لتشكّل جزءاً من الحكايات التاريخية للبلد.

في نهاية العام كان التشيليون يستعدّون للانقضاضِ النهائي على ليما. بينما مضى أحد عشر شهراً على سِبِرو وهو يُقاتِل غارقاً في الوسخ والدم وأفظع أشكال الوحشية. تحوّلت فيها ذكرى لين سومّرز إذ ذاك إلى شظايا، وما عاد يحلم بها، بل بالأجساد الممزّقة للرجالِ الذين شاطرهم وجبة طعام البارحة. لحظات القتال تكاد تكون راحة في سأم الاستنفار والانتظار. وحين يتمكّن من الجلوس لتدخين سيجارة، يستغلّ الفرصةَ ليكتب بعض الأسطر لنيبيا بنبرة الرفاقية ذاتها التي استخدمها معها دائماً. لم يكن يتحدّث عن الحبّ، لكنّه شيئاً فشيئاً راح يُدركُ أنّها ستكون المرأة الوحيدة في حياته، وأن لين سومّرز لم تكن إلا خيالاً متطاولاً. كانت نيبيا تكتب له بانتظام، وإن لم تكن جميع رسائلها تصل إلى جهتها، لتحكي له عن الأسرة، وعن الحياةِ في المدينة، وعن لقاءاتها الغريبة مع خالها خوسيه فرانسيسكو والكتب التي ينصحها بها. أيضاً كانت تحكي له عن التحوّل الروحي الذي يهزّها، وكيف راحت تبتعد عن بعضِ الطقوس الكاثوليكية التي تبدو لها عيّنات وثنية، كي تبحث عن جذور مسيحية تكون أكثر فلسفية مما هي دوغمائية. كان يشغلها أنْ يفقد سِبِرو، الغارق في عالم فظّ ووحشيّ، احتكاكه بروحه ويتحوّل إلى

مجهول. وفكرة اضطراره للقتل راحت تصبح غير محتملة. كانت تُحاول ألاّ تُفكّر بهذا، لكنّ حكايات الجنود المخترقين بالسكاكين والأجساد المفصولة الرؤوس، النساء المُغتَصبات والأطفال المخترقين بالحراب، من المحال أن تُنسى. ترى هل يُشاركُ سِبِرو في هذه الفظاعات؟ هل يستطيع إنسانٌ يشهد على مثل هذه الأفعال أن يتكامل مع السلام، ويتحوّل إلى زوجٍ ورب أسرة؟ هل تستطيع أن تُحبّه هي رغم كلّ شيء؟ كان سِبِرو دِل بالْيِه يتساءل الأسئلةَ ذاتها بينما فرقته تستعد للهجوم، على بعد كيلومتراتٍ قليلة من عاصمة البيرو. في نهاية كانون الأوّل كان المقاتل التشيلي جاهزاً للعمل في وادٍ جنوب ليما. كانوا قد استعدوا على مهل، وعندهم جيش كبير وبغال وخيول ومؤن وطعام وماء وعدّة زوارق شراعية لنقل القوّات، إضافة إلى أربع مستشفيات متنقلة من ستمئة سرير، وباخرتين محوّلتين إلى مستشفيين تحت علم الصليب الأحمر. أحد القادة وصل سيراً على الأقدام مع لواء لم يُمس، بعد أن اجتاز مستنقعاتٍ وجبالاً، ومَثُلَ كأميرٍ مغولي مع موكب من ألف وخمسمئة صيني مع نسائهم وأطفالهم وحيواناتهم. وحين رآهم سِبِرو دِل بالْيِه، ظنّ أنّه ضحية هلوسة غادرت فيها كلّ تشاياناتاون سان فرانسيسكو كي يضيعوا في ذات الحرب التي يضيع هو فيها. كان القائد الغريب قد جمع في طريقه الصينيين، المهاجرين الذين يعملون في ظروف العبودية، والواقعين بين نارين، دون أن تكون لهم ولاءات خاصّة لأيّ من الفريقين، قرّروا الانضمام إلى القوات التشيلية. وبينما المسيحيون يصغون إلى القداس قبل الدخول في المعركة، كان الآسيويون يُنظّمون احتفالهم الخاص بهم، وبعدها رشّ الرهبان العسكريون الجميعَ بالماء المقدس. «يبدو هذا سيركاً»، كتب سِبِرو في ذلك اليوم إلى نيبيا، دون أن يدري أنّها ستكون آخر رسالة. كان الوزير بِرغارا بنفسه يُشجِّعُ الجنودَ، ويشرف على نقل آلاف وآلاف الرجال والحيوانات والمدافع والمؤن، واقفاً على قدميه منذ السادسة صباحاً، تحت شمس حارقة، حتى دخول الليل.

كان البيرويون قد نظّموا صفّين دفاعيين على بعد كيلومتراتٍ قليلة عن المدينة، في أماكن يصعب على المهاجمين الوصول إليها. وتنضم إلى الهضاب المنحدرة والرملية، التحصينات والمتاريس والبطاريات والخنادق المحمية بأكياس الرمل للرماة. كما زرعوا ألغاماً مموّهة في الرمل، تنفجر حين تحتك بالمفجِّر. كان خطّا الدفاع متصلين ببعضهما، وبمدينة ليما بواسطة القطار لضمان نقل القوّات والجرحى والمؤن. وسيكون النصرُ ـ إذا حدث ـ على حساب الكثير من الأرواح، تماماً كما كان يعرف سِبِرو دِل بالْيِه ورفاقه قبل أن يبدأ الهجومُ أواسطَ كانون الثاني من العام 1881.

كانت القوّات في ذلك المساء من كانون الثاني مستعدة للزحف على عاصمة البيرو. أحرقوا بعد أن أكلوا وفكّوا المعسكر، الهياكلَ الخشبية التي قامت مقام الغرف، وانقسموا إلى ثلاثِ مجموعاتٍ بهدف الهجوم على الدفاعات المعادية بغتة، يحميهم الضباب الكثيف. كانوا يمضون بصمتٍ، كلّ واحد مع معدّاته الثقيلة على ظهره والبنادق جاهزة، مستعدين للهجوم «إلى الأمام وعلى الطريقة التشيلية» كما كان الجنرالات قد قرّروا، مُدركين أنّ أقوى سلاح بين أيديهم هو رهبة وضراوة الجنود المشبعين بالعنف. رأى سِبِرو كيف كانت تدور دنانُ الأغواردييِنت والبارود، الخليط الذي يُشعل الأمعاء ، لكنّه يمنح شجاعة فائقة. كان قد جرّبه مرّةً ، بقي بعدها يومين منهكاً من التقيّؤ وألم الرأس، وهكذا كان يُفضِّل المعركة ببرود. مسيرة الصمت، وسواد السهب بدَوَا له لا متناهيين، على الرغم من لحظات التوقّف القصيرة. توقّف حشدُ الجنود الهائل، بعد منتصف الليل، ليستريح ساعةً. فكّروا أن يقعوا على منتجع قريب من ليما قبل أن يُشعشع النهارُ، لكنّ الأوامر المتناقضة وارتباك القادة أفسد الخطّة. ما كانوا يعرفونه عن حالة الصفوف المتقدِّمة كان قليلاً، حيث يبدو ظاهرياً أن المعركة بدأت، هذا ما أجبر القواتِ المستنفدَة على المتابعة دون أن تأخذ نَفَساً. وفي محاكاة للآخرين تخلّص سِبِرو من كيس الظهر، والبطانية وبقية عتاده. أعدّ سلاحه مع

الحربة وراح يركض إلى الأمام دون هداية، يصرخُ ملءَ رئتيه مثل وحش ضار، ما عاد الأمر يتعلّق بأخذ العدو على حين غرّة، بل بدبّ الذعر فيه. كان البيرويون بانتظارهم، وما كادوا يصبحون على مرمى بنادقهم حتى أمطروهم بوابلٍ من الرصاص. انضمّ الدخانُ والغبارُ إلى الضبابِ، وغطّى الأفقَ بستار كتيم، بينما امتلأ الهواءُ بالرعب مع صوت النفير الذي يدعو إلى التعبئة، وزعيق وصيحات المعركة، وعواء الجرحى، وصهيل الخيول، وزمجرة المدفعية. كانت الأرض ملغومة، ومع ذلك راح التشيليون يتقدّمون وعلى شفاههم الصيحة الوحشية: «اذبحوهم!». شاهد سِبِرو دِل بالْيِه اثنين من رفاقه يتطايران شظايا، داسا فوق مُفجِّر لغم على بعد أمتارٍ قليلة. ولم يستطِع أن يفكّر بأنّ الانفجار التالي يمكن أن يكون من نصيبه، لم يكن هناك وقت للتفكير بشيء لأنّ الجنود الأوائل كانوا ينقضّون على الخنادق المعادية، ويسقطون فيها والخناجر المعقوفة بين أسنانهم والحراب مركّبة في البنادق، يقتلون ويُقتلون بين دفقات الدم. تراجع من بقي حيّاً من البيرويين الباقون وبدأ المهاجِمون يتسلّقون التلال، محطّمين الدفاعات المتدرّجة في السفوح. وجد سِبِرو نفسه دون أن يدري ماالذي يفعله والسيف في يده يمزّق رجلاً، ثمّ يُطلق النارَ عن كَثَب في نقرة آخر كان يهربُ. الحنق والرعبُ تمكّنا منه تماماً، وتحوّل مثل البقية إلى بهيمة. كان لباسه ممزّقاً ومغطّى بالدم، وقطعة من أحشاء آخر علقت بأحدِ كمّيه، وما عاد صوته يخرجُ من كثرة ما صرخ ولعن، لقد فقدَ الخوفَ والهويّةَ، صار مجرّد آلة قتلٍ، يُوزّع الضربات دون أن يرى أين تقع، بهدف وحيدٍ هو الوصول إلى قمّة التل.

في السابعة صباحاً، وبعد ساعتين من المعركة، كانت الراية التشيلية الأولى ترفرف على إحدى القمم، وبينما سِبِرو راكعاً على ركبتيه فوق الهضبة، رأى حشداً من الجنودِ البيرويين يتراجعون متفرّقين ليجتمعوا في فناء مزرعة، حيث استقبلوا منظّمين دفعة رماية من الفرسان التشيليين. وخلال دقائق قليلة صار ذلك جحيماً. سِبِرو دِل بالْيِه الذي كان يقترب راكضاً، رأى لمعان السيوف في

الهواء، وسمع صوت الرصاص وصراخ الألم. حين وصل إلى المزرعة كان الأعداء يجرون من جديد تتعقَّبُهم القوّات التشيلية. وهنا وصله صوت قائدٍ يأمره أن يجمعَ رجالَ فصيلته للهجوم على القرية. الوقفة القصيرةُ، التي نظّموا فيها الصفوف، سمحت له بأن يأخذ نفساً؛ ترك نفسه يسقط وجبينه على الأرض، لاهثاً ، مرتعداً، ويداه تمسكان بسلاحه. لقد قدّر أن التقدّم جنونٌ، لأنّ فصيلته لا تستطيع أن تواجه وحدَها القوّات المعادية الكثيرة المتحصّنة في البيوت والأبنية، يجب أن يُقاتلوا من باب إلى باب، لكنّ مهمّته لم تكن التفكير، بل إطاعة أوامر قائده، وتحويل القرية البيروية إلى أنقاضٍ ورمادٍ وموت. بعد دقائق كان يمضي خبباً على رأس رفاقه، بينما الطلقات تمرّ وهي تئزّ من حولهم. دخلوا على شكل رتلين، رتل من كلّ جانب من الشارع الرئيسيّ. الغالبية العظمى من السكّان هربوا على صوت «جاء التشيليّون!» لكنّ الذين بقوا كانوا عازمين على القتال بكلّ ما يتوافر بين أيديهم، بدءاً من سكاكين المطبخ حتى قدور الزيت المغلي الذي كانوا يسكبونه من الشرفات. كانت فصيلة سِبِرو قد تلقت أوامر بالذهاب من بيتٍ إلى بيتٍ حتى إخلاء القرية، ولم يكن عملاً سهلاً، لأنّ القرية كانت مليئة بالجنود البيرويين المتمترسين على السطوح والأشجار والنوافذ وعتبات الأبواب. كانت حنجرة سِبِرو جافّة وعيناه ملتهبتين، يكاد لايرى عن بعد مترٍ؛ والهواء المشحون بالدخان والغبار صار محالاً على الاستنشاق، وقد وصل الارتباك حدّ أنّه ما من أحد كان يعرف ماذا يفعل، فقط كانوا يقلّدون من يمضي أمامهم. فجأة أحسّ بوابلٍ من الرصاص حوله، فأدرك أنّه لا يستطيع أن يواصل تقدّمه، عليه أن يبحث عن حماية. وبضربة من أخمص بندقيته فتح أقرب باب واقتحم المسكنَ شاهراً سيفه. وقد أعماه الانتقال من الشمس الحارقة في الخارج إلى الظلّ في الداخل. احتاج عدّة دقائق كي يعبّئ بندقيته، لكنّه لم يملكها: صرخة تمزّق القلب شلّته من المباغتة، ولمح هيئة كانت قابعةً في زاوية، ثمّ انتصبت أمامه شاهرة فأساً. استطاع أن يحمي

رأسه بذراعيه ويتراجع بجسده إلى الخلف. سقط الفأس مثل البرق على قدمه اليسرى، فسمّره في الأرض. لم يدرِ سِبِرو دِل بالْيِه ما الذي حدث، وقام بردّ فعله بغريزةٍ خالصة، وبكلّ ثقل جسمه دفع البندقيّة بالحربة المركّبة فيها، وغرزها في بطن مُهاجِمِهِ، ثم رفعها بجهد جبّار. دفقة من دم أصابته في وجهه. وعندئذ انتبه إلى أنّ العدوَّ فتاة. كان قد شقّها من أعلاها إلى أسفلها، وهي راكعة على ركبتيها تمسك أمعاءها التي راحت تفرغ محتواها على الأرض الخشبية؛ تقاطعت عيونهما بنظرة لا نهاية لها، مصعوقين، يتساءلان بصمتِ تلك اللحظة الأبديّ من كانا، لماذا يتواجهان بهذه الطريقة، لماذا ينزفان، لماذا يجب أن يموتا؟ أراد سِبِرو أن يسندها، لكنّه لم يستطع أن يتحرّك، وشعر لأوّل مرّةٍ بألم القدم الرهيب يرتفع مثل لسانٍ من نارٍ عبر الساق إلى صدره. في تلك اللحظة اقتحم جنديّ تشيليّ آخرُ البيتَ، وبنظرة قدّر الوضع فأطلق النار بغتة، دون تردّد، على المرأة التي كانت على كلّ حال ميتةً، ثم أخذ الفأس وبشدّة مريعة حرّر سِبِرو. «هيّا، أيّها الملازم، يجب أن نخرج من هنا، ستبدأ المدفعية بالرمي!»، قال له محذراً، لكنّ سِبِرو كان ينزف بغزارة، يغمى عليه، ويعود فيسترجع وعيه للحظات ثم يعود ليغرق في الظلمة. وضع الجندي مطرته على فمه وأجبره على الشرب جرعة طويلة من المشروب الروحيّ، ثم ارتجلَ مرقأةً بمنديل ربطه تحت الركبة، حمل الجريح على ظهره وأخرجه جرّاً. وفي الخارج ساعدته أيدٍ أخرى، وبعد أربعين دقيقةً، وبينما المدفعية التشيلية تكنسُ القرية، مخلّفة الأنقاضَ وحديداً ملتوياً مكانَ المنتجع الوديع، كان سِبِرو ينتظر في فناء المستشفى إلى جانب مئات الجثث الممزّقة وآلاف الجرحى المرميين في برك الدم والمحاصرين بالذباب، ينتظر أن يأتي الموتُ أو تُنقِذه معجزة. كان يرتعد من الألم والخوف، وبين الحين والآخر يمضي غارقاً في غيبوبة رحيمة، وحين يستعيد وعيه يرى السماءَ تسودّ. تلا حرّ اليوم التالي الحارق، البردُ الرطب من ضباب الصحراء الذي لفّ الليلَ بدثاره الكثيف. في

لحظات الوعي كان يتذكّر الصلوات التي تعلّمها في طفولته ويتوسّل الله موتاً سريعاً، بينما صورة نيبيا تظهرُ له مثل ملاك، ويخيل إليه أنّه يراها منحنية فوقه، تسنده، تمسح جبهته بمنديل مُبلَّل، تقول له كلمات حبٍّ. كان يردّد اسم نيبيا طالباً بلا صوت كأساً من الماء.

انتهت معركة احتلال ليما في السادسة مساءً. في الأيام التالية حين استطاعوا أن يحصوا عدد القتلى والجرحى، قدّروا أن عشرين بالمئة من مقاتلي كلا الجيشين قضوا نحبهم في تلك الساعات. وأكثر منهم بكثير أولئك الذين ماتوا فيما بعد بسبب التهاب جراحهم. ارتجلوا المستشفيات الميدانية في المدارس وفي الخيام المنتشرة في الضواحي. كانت الريح تحمل رائحة الجثث حتى كيلومترات، وكان الأطباء والممرضون المنهَكون يعتنون بمن يصلُ قدرَ استطاعتهم، لكن كان هناك أكثر من ألفين وخمسمئة جريح في صفّ التشيليين، ويُقدّر عددُ الباقين أحياء من القوّات البيروية بسبعة آلاف. كان الجرحى يُكدَّسون في الممرات، في الفناءات ، ملقيين على الأرض إلى أن يأتي دورهم. كانوا يعتنون بالأخطر أوّلاً، وسِبرو دِل بالْيِه لم يكن يُحتَضَر بعد، على الرغم من فقدانه الهائل لقوّته ودمه وأمله، ولهذا كان حَمَلَة النقالات يؤجّلونه مرّةً وأخرى ليفسحوا المجالَ لآخرين. الجنديّ نفسه الذي حمله على كتفه لينقله إلى المستشفى شقّ حذاءه بالسكين ونزع عنه قميصه المخضل وارتجل منه غطاءً للقدم الممزّقة، لأنّه لم يكن يوجد في متناول يده ضماد ولا دواء ولا فينول للتعقيم ولا أفيون ولا كلوروفورم، كلّ شيء كان قد نفدَ أو ضاع في فوضى المعركة. «أفلت المرقأة من حين لآخر كي لا تصاب ساقك بالغنغرينا أيّها الملازم» نصحه الجنديّ. وتمنى له قبل أن يُودّعه حظّاً سعيداً وأهداه أغلى ممتلكاته: علبة تبغه، ومطرته مع بقية الأغواردييِنتِ. لم يدرِ سِبرو دِل بالْيِه كم بقي في ذلك الفناء، ربّما يوماً، وربّما يومين. وحين أخذوه أخيراً كي يحملوه إلى الطبيب، كان قد فقد وعيَه ومصاباً بالجفاف، لكن ألمه كان مريعاً حين حرّكوه، بحيث أطلق عواءً. «تَحَمَّلْ، أيّها المُلازِمُ، خُذْ

بالاعتبار أنّه ما زال أمامك ما هو أسوأ»، قال له أحد حَمَلَةِ النقالات. وجد نفسه في قاعة كبيرة، أرضها مُغطاة بالرمل حيث يقوم مستخدمان بتفرغ دلوين جديدين من الرمل لامتصاص الدم ويحملان في الدلوين ذاتهما الأعضاء المبتورةَ لحرقها في الخارج في صلاء كبير، يملأ الوادي برائحة اللحم الشائط. كانوا يجرون العمليات للجنود سيّئي الحظ على أربع طاولات من الخشب المُغطّى بألواح معدنية ، على الأرض كانت هناك سطول فيها ماء ضارب للصفرة، يغسلون فيها الإسفنج، لقطع نزيف أماكن البتر، وأكوام الخرق الممزّقة إلى شرائط لتُستَخدَم كضماداتٍ، وكلّ شيء وسخ ومعفر بالرمل والنشارة. على طاولة جانبية نشروا أدوات تعذيب رهيبة ـ كمّاشات، مقصات، مناشير، إبر ـ ملطخة بالدم الجاف. كان صُراخُ الذين تُجرى لهم العمليات يملأ الجوَّ، ورائحة التفسّخ والإقياء والبراز لا تُحتَمل. حدث أن كان الطبيبُ مهاجراً من البلقان يوحي بقسوةٍ وثقةٍ وسرعةِ الجرّاحِ الخبير. له لحية لم تُحلق منذ يومين وعينان حمراوان من التعب، ويرتدي مريولاً من الجلد المغطّى بالدم الطريّ. نزع الضماد المرتَجَلَ عن قدم سِبِرو، أفلت المرقأة، وكفته نظرة كي يرى أن الالتهاب قد بدأ ليُقرِّرَ البتر. لا شكّ أنّه بَتَرَ في تلك الأيام أعضاءَ كثيرةً، لأنّه لم يرف له جفنٌ حين اتخذ القرار.

ـ هل معك شيء من المشروب الروحي أيّها الجندي؟ ـ سأل بلكنةٍ أجنبية واضحة.

ـ ماء... ـ هتف سِبِرو دِل بالْيِه وقد جفّ لسانه.

ـ فيما بعد تشرب ماء. الآن أنت بحاجة لشيء يفقدك الوعي قليلاً فنحن ماعدنا نملك قطرة ليكور واحدة. ـ قال الطبيب.

أشار سِبِرو إلى المطرة. وأجبره الطبيبُ على أن يشرب ثلاث جرعات كبيرة، موضّحاً له أنّه لا يوجد عندهم مُخدِّر، واستخدم الباقي لبلّ بعض الخرق وتنظيف أدواته، ثم أشار إلى جنديين خادمين وقفا على جانبي الطاولة لتثبيت المريض. هذه هي ساعتي

الحقيقيّة، تمكّن سِبِرو من القول، وحاول أن يتصوّر نيبيا كي لا يموت وفي قلبه صورة الفتاة التي انتزع أحشاءَها بحربته. وضع ممرض مرقأةً جديدة وثبّتَ الساقَ عند الفخذ بقوّة. أخذ الجرّاحُ مبضعاً وغرزه تحت الركبة بعشرين سنتيمتر وبحركة دائرية ماهرة قطع اللحم حتى عظمي القصبة والشظية. جأر سِبِرو من الألم وفقد وعيه على الفور، لكنّ الجنديين الخادمين لم يفلتاه، بل ثبّتاه بعزم أكبر وأبقيا عليه مسمّراً على الطاولة، بينما راح الطبيب يرمي إلىُ الخلف بالجلدِ والعضلات، كاشفاً عن العظام؛ وأخذ على الفور منشاراً وبثلاث حركات دقيقة قطعها. أخرج الممرض، من الجدعةِ، الأوعيةَ المقطوعة وراح الطبيب يصل بينها بمهارة عجيبة، ثم أفلت المرقأة قليلاً بينما راح يُغطّي العظمَ المقطوع باللحم والجلدِ ويخيطه. ضمّدوه بسرعة وحملوه مترجرجاً إلى زاوية من القاعة، ليفسحوا المجال لجريح آخر وصل عاوياً إلى طاولة الجرّاح. العملية بكاملها استغرقتْ أقلّ من ستّ دقائق.

في الأيّام التالية على هذه المعركة دخلت القوّات التشيلية إلى ليما. دخلوها، حسب التقارير الرسمية التي نشرتها الصحافة في تشيلي، بانتظام؛ وحسب ما بقي في ذاكرة أهالي ليما، حدثت مجزرة، انضافت إلى مصائب الجنود البيرويين المهزومين والحانقين، لأنّهم شعروا بأنّ قادتهم خانوهم. قسم من السكّان المدنيين هربوا، والأسر الميسورة بحثت عن أمنها في سفن المرفأ والقنصليات، والشاطئ الذي تحميه البحرية الأجنبية، حيث أقامت الهيئة الدبلوماسية خيمها لإيواء اللاجئين تحت أعلام دول محايدة. تذكّر الذين بقوا للدفاع عن مواقعهم بقيّةَ حياتهم المشاهدَ الجهنّمية للجنود السكارى وعنفَهم المجنون؛ فقد نهبوا وأحرقوا البيوت، اغتصبوا، وضربوا وقتلوا من وقف في وجههم، بمن في ذلك النساء والأطفال والشيوخ. أخيراً، تخلّى جزء من الفصائل البيروية عن سلاحه واستسلم، ولكنّ جنوداً كثيرين تفرّقوا متبعثرين في الجبال. وبعد يومين خرج الجنرال البيروي أندرِس كاثِرِس من المدينة

المحتلة بساق محطّمة، تُساعده زوجته وزوج من الضباط الأوفياء، كي يضيع في مجاهِل الجبال. لقد أقسم أنّه سيبقى يُقاتِلُ ما دام فيه نفس.

في ميناء كالياو، أمر القباطنة البيرويون أطقمَ السفن بمغادرتها، وأشعلوا البارود مُغرقين كاملَ الأسطول. أيقظت الانفجارات سِبِرو دِل بالْيِه فوجد نفسه في زاوية على الرمل الوسخ في قاعة العمليات، إلى جانب رجالٍ آخرين مثله، خرجوا توّاً من عذابِ البتر . أحد ما وضع فوقه بطانية ومطرة فيها ماء إلى جانبه، مدّ يده، لكنّها كانت ترتجف إلى حدّ أنّه لم يستطع أن يرفع غطاءها، فبقي يضغطها على صدره ويئنّ إلى أن اقتربَت شابّةٌ حانيّة، ففتحتها له وساعدته على رفعها إلى شفتيه الجافّتين. شرب كلّ ما فيها دفعة واحدة، ثم وبتوجيه من الشابة التي قاتلت إلى جانب الرجال خلال أشهر، وتعرف عن العناية بالجرحى مثل الأطباء وضع في فمه قبضةَ تبغٍ ومضغه بشراهة لتخفيف تشنّجات صدمة العملية. « القتل يُكلّف قليلاً، أما البقاء على قيد الحياة فهو الذي يُكلّف يابُني. إذا أهملت نفسكَ حملك الموت بغفلةٍ منك»، حذّرته المرأة. «أنا خائف» حاول سِبِرو أن يقول لها، وربّما لم تسمع همهمته، لكنّها حَدَسَت بذعره، لأنها نزعت ميداليةً فضّيةً من عنقها ووضعتها بين يديه. «كانت العذراء في عونك» تمتمت بذلك ثم انحنت وقبّلته قبلة قصيرةً على شفتيه قبل أن تذهبَ. بقي سِبِرو مع ملمس تلك الشفتين ومع الميدالية يشدّ عليها في راحته. كان يرتعش، وأسنانه تصطكّ، ويشتعل من الحمّى؛ ينام أو يُغمى عليه، وحين يستعيد وعيه يُجنّنُه الألَمُ. عادت الشابة نفسها ذات الجدائل السود بعد ساعاتٍ، وسلّمته بعضَ الخرق المبلّلة كي يُنظّف عرقَهُ والدمَ الجافَّ، وصحناً من الصفيح فيه عصيدة ذرة، وقطعة خبزٍ قاسٍ وفنجان كبير من قهوة الهندباء، ذلك السائل الفاتر والداكن الذي لَم يحاول حتى لمسه، لأنّ الوهنَ والغثيانَ منعاه من ذلك. خبّأ رأسه تحت البطانية مستسلماً للعذاب والقنوط، يئنّ ويبكي مثل طفل إلى أن نام من جديد. «فقدتَ دماً كثيراً يا بُني، وإذا لم تأكل ستموت»، أيقظه قسّ كان يمرّ من

هناك يوزّع عزاءه على الجرحى، ومسحةَ رحمته على المُحتَضرين. عندئذ تذكّر سِبِرو دِل بالْيِه أنّه ذهب إلى الحرب كي يموت. ذلك كان هدفه حين فقد لين سومّرز، لكنّه الآن والموت هناك، ينحني فوقه مثل عقاب، ينتظر فرصته كي ينشب فيه مخالبه للمرة الأخيرة، هزّته غريزة الحياة. كانت الرغبةُ بالحياة أعظمَ من العذاب الحارق الذي كان يخترقه من ساقه حتى آخر خلية في جسده، وأقوى من الضيق، الضياع، والرعب. أدرك أنّه بعيداً عن الاستلقاء للموت، يرغبُ بلهفةٍ أن يبقَى في العالم، أن يعيشَ في أية حالةٍ وظرفٍ، وبأيةِ طريقةٍ، أعرجَ، مهزوماً، ولا شيء يهم شريطة أن يستمرَّ في هذا العالم. كان مثل أيّ جنديّ يعرف أنّ واحداً فقط من كلّ عشرة مبتورين يتمكّن من تخطّي فقدان الدم والغنغرينا، ولم يكن هناك من وسيلة لتفادي هذا، فكلّ شيء يتعلّق بالحظ. قرّر أن يكون واحداً من هؤلاء الباقين أحياء. فكّر أنّ ابنة عمّه الرائعة نيبيا تستحقّ رجلاً كاملاً وليس مبتوراً، وهو لا يريد أن تراه وقد صارَ خرقةً، لا يستطيع تحمُّلَ شفقتها. ومع ذلك ما إن أغمض عينيه حتى عادت لتظهرَ الفتاةُ إلى جانبه، رأى نيبيا، غير ملوّثة بالحرب أو بقباحة العالم، منحنيةً فوقه بوجْهِها الذكي، عينيها السوداوين، وابتسامتها الجريئة، عندئذ ذابَ كبرياؤه كالملح في الماء. لم يكن لديه أدنى شك في أنّها سُتحبّه وهو بنصف ساقٍ كما أحبّته من قبل. فأخذ الملعقةَ بأصابعه المتشنِّجة، وحاول أن يتحكّم بالرجفة، وأجبر نفسه على فتح فمه، وابتلع جرعة من عصيدة الذرة المقرفة، التي صارت باردة وعلاها الذباب.

دخلت الفرقُ العسكريةُ التشيلية إلى ليما منتصرةً في كانون الثاني 1881 ، وحاولت من هناك أن تفرض سلامَ الهزيمةِ القسريَّ على البيرو. وحين هدأت فوضى الأسابيع الأولى الوحشية، ترك المنتصرون المتكبّرون فرقةً من عشرة آلاف رجل كي يُراقبوا البلاد المحتَلَّة، بينما شرع البقيّة بالرحيل إلى الجنوب ليقطفوا غارَ انتصارِهم المستَحَق، متجاهلين بشكل مطلق آلافَ الجنود

المهزومين الذين تمكّنوا من الهروب إلى الجبال وهم يُفكّرون بمتابعة القتال من هناك. لقد كان النصر ساحقاً، إلى حدّ أنّ القادةَ لم يستطيعوا أن يتصوّروا أن البيرويين سوف يستمرون بمضايقتهم خلال ثلاثة أعوام طويلة. وقد كان روحُ تلك المقاومةِ الشرسة هو الجنرال الأسطوري كاثِرِس، الذي نجا من الموتِ بأعجوبةٍ، وانطلق إلى الجبال بجرحٍ مرعبٍ، ليزرع بذرة الشجاعة العنيدة في جيشٍ ممزق، مؤلف من جنود أشباح ومجنّدين من الهنود الحمر، خاض بهم حرب عصابات دامية، وكمائن ومناوشات. كان جنود كاثِرِس الذين صار لباسهم العسكري أسمالاً، وكانوا في معظم الأحيان حفاة، هزيلين ويائسين، يقاتلون بالسكاكين، والرماح، والهراوات والحجارة وبعض البنادق التي صارت قديمة، لكنّهم يتميّزون بأنّهم يعرفون الأرض. اختاروا ميدانَ المعركةِ جيّداً لمواجهة عدوٍّ مُدرَّبٍ ومُسَلّح، وإن لم يكن دائماً بتموين كاف، لأنّ الوصول إلى تلك الجبالِ الوعرة من عمل النسور. كانوا يختبئون في القمم المثلجة، وفي الكهوفِ والمنخفضاتِ وأعالي الجبال، حيث الجوّ رقيق جدّاً والعزلة هائلة، ووحدهم رجال الجبال من يستطيعون البقاء أحياءً. أما آذانُ القوات التشيلية فكانت تنفجر بالدم، ويسقطون مغشياً عليهم لنقص الأوكسجين ويتجمّدون في مضائقَ جبال الأنديز الثلجية. وبينما هم يكادون لايستطيعون أن يصعدوها لأنّ قلوبهم لا تكفيهم لكلّ ذلك الجهد، كان هنودُ السهلِ العالي يتسلّقونها، مثل اللاما، بحمولةٍ على ظهورهم تعادل وزنهم، دون أيّ غذاءٍ آخرَ غير لحمِ النسورِ المرّ وكرةٍ خضراء من ورق الكوكا التي يُقلّبونها في أفواهِهم. لقد كانت ثلاثة أعوام من حرب لا هوادة فيها ولا أسرى، وقتلاها بالآلاف. وقد كسبت القواتُ البيروية معركةَ مواجهةٍ واحدةٍ في قريةٍ ليس لها قيمة استراتيجية، كان يحرسها سبعة وسبعون جندياً تشيلياً، وعددٌ من مرضى التيفوس. كان يملك كلّ واحدٍ من المُدافعين مئة رصاصة، ومع ذلك قاتلوا طوال الليل بشجاعة ضدّ مئات الجنود والهنود، حتى الفجر المقفر حين لم يبق إلاّ ثلاثة رماةٍ، رجاهم الضباطُ البيرويون أن يستسلموا لأنّه بدا لهم أنّ من العار عليهم قتلهم. لم يستسلموا، وتابعوا قتالهم وماتوا والحراب في أيديهم

صارخين باسم الوطن. كان معهم ثلاث نساء، جرّهنّ خليطُ السكان الأصليين إلى وسط الساحة داميات واغتصبوهنّ ومزّقوهنّ. واحدة منهنّ كانت قد ولدت ليلاً في الكنيسة، بينما زوجها يُقاتل في الخارج، فمزّقوا الوليد الجديد أيضاً. قطّعوا الجثث، بقروا البطون وأفرّغوا الأحشاء. وقد أكل الهنود، كما كانوا يحكون في سانتياغو، أحشاءهم مشويّة على العصي. لم تكن تلك البهيمية الاستثناء ، فالوحشيّة كانت متساوية بين الجانبين في حرب العصابات تلك. وقد تمَّ الاستسلامُ النهائي وتوقيعُ معاهدة السلام في تشرين الأوّل من العام 1883، بعد الانتصار على قوّات كاثِرِس في آخرِ معركةٍ، وهي مذبحة تمّت بالسكاكين والحراب وخلّفت أكثر من ألف قتيل بقوا ممدّدين في الميدان. انتزعت تشيلي من البيرو ثلاث مقاطعات. وفقدت بوليفيا مخرجها الوحيد على البحر، وأُجبِرت على توقيع هدنة غير محدّدة ستمتدّ عشرين عاماً، حتى توقيع معاهدة للسلام.

نُقِلَ سِبِرو دِل بالْيِه إلى جانب آلاف الجرحى الآخرين بالسفينة إلى تشيلي. وبينما كان الكثيرون يموتون، في المستشفيات العسكرية المرتجلة، بالغنغرينا أو بعدوى التيفوس والزُحار، استطاع هو أن يستعيدَ قواه بفضل نيبيا، التي لم تكد تعلم بما جرى له حتى اتصلت بخالها الوزير بِرغارا، ولم تتركه في سلام حتى راح يبحث عن سِبِرو، وأنقذه من المستشفى، كان فيه رقماً بين آلاف المرضى الموجودين في أسوأ الظروف، وأرسله في أوّلِ واسطة نقل متوافرة إلى بالبارايسو. كما أنّه أصدر استثناءً خاصّاً لقريبته كي تدخل حظار الميناء العسكري، وعينّ ملازِماً لمساعدتها. حين أنزلوا سِبِرو دِل بالْيِه لم تعرفه، لقد فَقَدَ عشرين كيلو غراماً من وزنه وكان وسخاً، يبدو أشبه بجثّةٍ صفراء مشعرة، بذقن لم تحلق منذ عدّة أسابيع، وعيني مجنونٍ مذعورتين وهاذيتين. تغلّبت نيبيا على الرعب بإرادة الأمازونية ذاتها التي حافظت عليها في كلّ جوانب الحياة الأخرى وحيّته بفرح: «مرحباً، يا ابنَ العم، يسعدني أن أراك!». وكان انتعاشه لرؤيتها كبيراً، إلى حدّ أنّه غطّى وجهَهُ بيديه كيلا تراه يبكي. كان الملازم قد أعد وسيلة النقلَ، و قادَ الجريحَ

ونيبيا، عملاً بالأوامر المتلقاة، إلى قصر الوزير في بينيا دِل مار، حيث أَعَدّت له زوجةُ هذا غرفةً خاصة. «يقولُ زوجي إنّك ستبقى هنا حتى تستطيع أن تسير يا بُني»، أعلنت له. استخدم طبيب أسرة بِرغارا جميع إمكانات العلم لشفائه، لكنه بعد شهر وحين لم يلتئم الجرح، وبقي سِبِرو يتخبّط في هيجان الحمّى، أدركت نيبيا أنّ روحه مريضة من أهوال الحرب، وأنّ العلاجَ الوحيدَ لكلّ تبكيت الضمير عنده هو الحبّ، وعندئذٍ قرَّرت أن تلجأ إلى إجراءاتٍ متطرّفة.

ـ سأطلب إذناً من والديّ كي أتزوّج منك ـ أعلنت له.

ـ أنا أموت يا نيبيا ـ تنهّدَ.

ـ دائماً عندك ذريعة ما يا سِبِرو! لم يكن الاحتضار قط عائقاً أمام الزواج.

ـ هل تريدين أن تكوني أرملة دون أن تكوني زوجة؟ لا أريدُ أن يحدث لك ما حدث لي مع لين.

ـ لن أصبح أرملةً لأنّك لن تموت. هل تستطيع أن تطلب منّي بتواضع أن أتزوّج منك يا ابن العم؟ أن تقول لي مثلاً إنّني امرأةُ حياتك، ملاكك، إلهامك أو شيء من هذا القبيل؟ اخترعْ شيئاً يا رجل! قل لي إنّك لا تستطيع أن تعيشَ دوني، هذا على الأقل صحيح، أليس كذلك؟ أعترف أنّني لا أستظرف أن أكون وحدي الرومانسية في هذه العلاقة.

ـ أنتِ مجنونة يا نيبيا. فأنا لست حتى رجلاً كاملاً، أنا عاجز تعيس.

ـ وهل ينقصك شيء أكثر من قطعة الساق هذه؟ ـ سألت مذعورة.

ـ وهل يبدو لك هذا قليلاً؟

ـ إذا كان ما تبقى منك في مكانه، بدا لي أنّ ما فقدته قليل يا سِبِرو ـ ضحكت.

ـ إذن تزوّجي منّي من فضلك ـ تمتم بارتياح عميق وإجهاشٍ غصّ به ، ضعيفٍ أكثر مما يسمح له بمعانقها.

ـ لا تبكِ يا ابن العم، قبِّلْني؛ فأنت لا تحتاج لهذا إلى ساقك ـ ردّت منحنية فوق السرير بالحركة ذاتها التي رآها فيها في هذياناته مرّات كثيرة.

بعد ثلاثة أيّام تزوّجا في احتفال قصير في إحدى قاعاتِ سكنِ الوزير الجميلة، وبحضور الأسرتين. كانت حفلة الزفاف خاصة، بسبب الظروف، إلا أن الحفلة اقتصرت على الأقارب وحدهم، وضمت أربعة وتسعين شخصاً. حضر سِبِرو شاحباً وهزيلاً، وقد قصّ شعره على طريقة بايرون، حليق الخدين، يرتدي ثياباً احتفالية، وقميصاً بقبّة مصفّحة، وأزرار ذهبية وربطة عنق حريرية، على كرسيّ بعجلات. لم يكن هناك وقت لتفصيل فستان عروس ولا جهاز عرس يليقان بنيبيا، لكنّ أخواتها وبنات أعمامها ملأن لها صندوقين من ثياب البيت التي كنّ قد أعددنها خلال أعوام لجهازهنّ الخاصّ. ارتدت فستاناً من الساتان الأبيض، وتاجاً من اللؤلؤ والماس، أعارته لها زوجة خالها. وهي تبدو في صورة العرس مشرقةً واقفةً بجانب كرسيّ زوجها. وقد أقيم في تلك الليلة حفلُ عشاءٍ للأسرة لم يحضره سِبِرو دِل بالْيه، لأنّ انفعالاته العاطفية في ذلك النهار أنهكته. فبعد انسحاب المدعوين قادت زوجة الخال نيبيا إلى غرفة أعدّتها لها. «يؤسفني أن تكون أوّل ليلة زواج لك هكذا...»، تمتمت محمرّة خجلاً، «لا تهتمّي يا خالة، سأواسي نفسي بصلاة السبجة»، ردّت الشابّة. انتظرت حتى نام أهل البيت، وتأكّدت من أنّه لم يبق من حيّ غير ريح البحر المالحة بين أشجار الحديقة، عندئذ نهضت نيبيا بقميص نومها، وجابت ممرات ذلك القصر الغريب الطويلة، ودخلت غرفة سِبِرو. كانت الراهبة المتعاقَد معها للسهر على حلم المريضِ ترقدُ مباعدة ما بين ساقيها على كرسيّ كبير وتنام بعمق، لكنّ سِبِرو كان مستيقظاً، بانتظارها. حملت إصبعاً إلى شفتيها كي تشير إليه بالصمت، وأطفأت مصابيح الغاز ودخلت في سريره.

كانت نيبيا قد تربّت بين الراهبات، وتنحدر من أسرة تقليدية، حيث لم تكن تُذكَرُ وظائفُ الجسد أبداً، وخاصّة المتعلّق منها مع الإنجاب، لكنّها أصبحت في العشرين من عمرها، وتملك قلباً متحمساً وذاكرة جيدة. كانت تتذكّر جيّداً الألعابَ السرّية التي لعبتها مع ابن عمّها في الزوايا المعتمة، شكلَ جسد سِبِرو، ولهفةَ اللذة التي لا ترتوي أبداً، وسِحْرَ الخطيئة. لقد كان الخجل والخطيئة يلجمانهما في ذلك الوقت، فيخرجان من الزوايا الممنوعة مرتعشين، منهكين ومتوقدي الجلد. وخلال السنوات التي قضياها بعيدين عن بعضهما، ملكت الوقت لمراجعة كلّ لحظة مشتركة لها مع ابن عمّها وتحويلِ فضولِ الطفولة إلى حبٍّ عميق. كما أنّها استفادت تماماً من مكتبة زوج خالتها خوسيه فرانسيسكو بِرغارا، رجل الفكر الليبرالي والحديث، الذي لم يكن يقبل أيّ حدٍّ لقلقه الفكري، وخاصّة موضوع أي تساهلٍ مع الرقابة الدينية. وبينما كانت نيبيا ترتّب كتبَ العلوم والفنون والحرب، اكتشفت مصادفة طريقةً لفتح رفٍّ سرّي حيث وجدت نفسها أمام مجموعة لا يُستهان بها من روايات لائحة الكنيسة السوداء والنصوص الأيروسية، بل ومجموعة لطيفة من الرسوم اليابانية والصينية تظهر أزواجاً أرجلهم إلى الأعلى، في وضعيات مستحيلة تشريحيّاً، لكنّها قادرة على إثارة أكثر الناس زهداً، فكيف بشخص واسع الخيال مثلها. ومع ذلك فأكثر النصوص تعليمية كانت روايات بورنوغرافية تكتبها سيّدة تُدعى *السيّدة المجهولة*، مترجمة بشكل سيء من الإنكليزية إلى الإسبانية، حملتها الشابة واحدة فواحدة خفية في حقيبتها، وقرأتها بعنايةٍ وأعادتها في مكانها بحذرٍ، وهذا الحذر غير ضروريّ، لأنّ خالها كان مشغولاً بحملةِ الحرب، وما من أحد آخر في القصر يدخل إلى المكتبة غيره. سبرت جسدها مهتدية بتلك الكتب، وتعلّمت مبادئ أقدم الفنون الإنسانية، وحضّرت نفسها لليوم الذي تستطيع أن تُطبّق فيه النظرية على الواقع. كانت تعرف ، طبعاً، أنّها ترتكب خطيئة رهيبة ـ فاللذة هي دائماً خطيئة ـ لكنّها امتنعت عن مناقشة الموضوع مع معرِّفها، لأنّه بدا لها أنّ المتعة التي تمنحها لنفسها، وستُمنحها في المستقبل، تستحق خطر الجحيم. كانت تُصلّي كيلا

يُباغتها الموتُ وتتمكّن، قبل أن تلفظ آخر أنفاسها، من الاعتراف بساعات المتعة التي كانت تقدّمها إليها تلك الكتبُ. لم يخطر لها قط أنّ تلك التسلية المنفردة ستفيدها في إعادة الحياة لرجلٍ كانت تُحبّه أو أنّها ستُمارسها على بعد ثلاثة أمتار من راهبة نائمة. بدءاً من أوّل ليلة مع سِبِرو، تدبَّرت نيبيا أمرَها لتأخذَ فنجاناً من الشوكولاتة الساخنة وبعضَ البسكويت للمتدينة حين كانت تذهب لتودِّع زوجها، قبل أن تمضي إلى غرفتها. وكانت الشوكولاتة تحتوي على جرعة من حشيشة القطّ القادرة على أن تنوّم جملاً. لم يخطر لسِبِرو قط أنّ ابنة عمّه الطاهرة قادرة على كلّ تلك المآثرِ وبكلّ تلك الروعة. فجرح ساقه الذي طالما سبّب له آلاماً حارقة واخزةً وحمى ووهناً جعله يلعب الدورَ السلبي، لكن ما كان ينقصه في القوّة كانت تضعه هي في المبادرة والمعرفة. لم يخطر لسِبِرو أنَّ تلك البهلوانيات ممكنة. كان واثقاً من أنّها لم تكن أوضاعاً مسيحية، لكنّ هذا لم يمنعه من التمتع بها إلى أقصى حد. ولو لم يكن يعرف نيبيا منذ طفولتها، لفكّر أنّ ابنة عمّه قد تدرّبت في سراي تركي، لكن إذا كانت قد شغلته الطريقة التي تعلّمت بها تلك الغادةُ كلَّ تلك التنويعات من حيل المومسة، إلاّ أنّه ملك الذكاء كيلا يسألها عنها. تبعها بوداعة في رحلة الأحاسيس إلى الحد الذي سمح له به الجسد، مُسلِّماً في طريقه آخرَ رمق في روحه. كانا يبحثان تحت الملاحف عن الطرق الموصوفة في الكتب الخلاعية في مكتبة وزير الحرب المحترم، وعن طرق أخرى راحت تنبعث وتتسارع بالرغبةِ والحبّ، ولكنّهما مُحدودين بالجدعة الملفوفة والراهبةِ التي تشخر على الكرسيّ. كان الفجر يبُاغتهما يختلجان في عقدة تشابك الأذرع ووحدة الفمين اللذين يتنفسّان بإيقاعٍ واحدٍ، وما إن يُلْمَحَ أوّلُ سطوعٍ للنهار في النافذة، حتى تنسلّ مثل شَبح عائدةً إلى غرفتها. ألعاب الماضي تحولت إلى ماراثونات للملذّات الحسّية، يتداعبان بشهيّةٍ، يقبّلان ويلعقان بعضهما، ويلجان في كلّ مكان، وكلّ ذلك في الظلمة وفي أشد حالات الصمت إطباقاً، يبتلعان تنهداتهما، ويعضّان الوسائد كي يُخمِدا الشبقَ السعيد الذي يرتقي بهما إلى المجد مرّةً وأخرى خلال تلك الليالي القصيرة أكثر من اللازم. كانت الساعةُ تطيرُ: لا تكادُ نيبيا تظهرُ مثلَ روحٍ في

الغرفة لتندسّ في فراش سِبِرو حتى يطلع الصباح. لم يكن يغمض لهما جفنٌ. ولم يكن باستطاعتهما أن يُضيّعا لحظةً واحدة من تلك اللقاءات المبارَكة. وفي اليومِ التالي ينام هو مثل وليد جديد، حتى الظهيرة، بينما تستيقظ هيَ باكراً تعلوها علامات المسرنمة المشوّشة، وتقوم بأعمالها الروتينية العادية. في المساءات يرتاح سِبِرو في كرسيّ العجلات في الشرفة، ينظر إلى الشمس مقابل البحر، بينما زوجته تنام وهي تطرّز سماطات صغيرةٍ بجانبها. كانا أمام الآخرين يتصرّفان كأخوين، لا يكاد يلمس أو ينظر أحدهما إلى الآخر، بينما الجوّ من حولهما مشحون باللهفة. وكانا يقضيان النهارَ يعدّان الساعات، ينتظران بتوق وهذيانٍ أن تصل ساعة العودة للعناق في السرير. ما كانا يقومان به ليلاً يرعب الطبيبَ، والأسرتين، والمجتمعَ بكامله، فكيف بالراهبة. خلال ذلك كان الأقارب والأصدقاء يتحدّثان عن غيرية نيبيا، الشابة النقية الكاثوليكية الخالصة المحكومة بحبّ أفلاطونيّ، وعن صلابة سِبِرو الأخلاقية، الذي فقد ساقه ودمّر حياتَه دفاعاً عن الوطن. بينما الجارات ينشرن الأقاويل بأنّ ما فقده في ميدان المعركة لم تكن ساقه وحسب، بل وخواصّ الرجولة أيضا. «مسكينان»، كنّ يهمسن بين التنهدات دون أن تخطر لهنّ كم كان ذلك الزوجان الخليعان يتمتّعان. بعد أسبوع من تخدير الراهبة بالشوكولاتة، وممارسة الحب مثل المصريين، كان جرح البتر قد اندمل، والحمّى اختفت. وقبل مضي شهرين كان سِبِرو دِل بالْيه يسير بعكازين، وبدأ الحديث عن ساقٍ خشبية. بينما نيبيا تراقب تضخم بطنها وتتقيّأ مختبئة في أيّ واحد من حمامات قصر عمّها الثلاثة والعشرين. وحين لم يعد هناك بدّ من القبول بحمل نيبيا أمام الأسرة، بلغت المفاجأة العامة حدَّ القول إنّ ذلك الحمل معجزة إلهية! أكثر من صدمتها الحالة كانت الراهبةُ، ومع ذلك كان سِبِرو ونيبيا يشكّان دائماً بأنّها على الرغم من جرعات حشيشة القط العالية فإنّ المرأة القديسة ملكت فرصة لتتعلّم كثيراً؛ كانت تتظاهر بالنوم كيلا تحرم نفسها من متعة التجسّس عليهما. والوحيد الذي استطاع أن يتصوّر كيف فعلا ذلك واحتفل ببراعة الزوجين مقهقهاً من كل قلبه، هو الوزير بِرغارا.

حين استطاع سِبِرو أن يخطو الخطوات الأولى على ساقه الصناعية، وصار من غير الممكن التستر على بطن نيبيا، ساعدهما على الاستقرار في بيت آخر وقدّم عملاً لسِبِرو دِل بالْيِه. «البلدُ والحزب الليبرالي بحاجة إلى رجال لهم إقْدامك»، قال له ذلك، وإن كانت الشجاعة، في الحقيقة، هي نيبيا.

لم أعرف جدّي فِليثيانو رودريغِث دِ سانتا كروث، فقد مات قبل أشهر من ذهابي للعيش في بيته. أُصيب بسكتة قلبية بينما كان يجلس على رأس وليمة أقامها في بيته في نوب هيل، متشردقاً بحلوى الغزال ونبيذ فرنسي أحمر. رفعوه عن الأرض بين عدَّة رجال ومدّدوه على الأريكة محتضراً، برأسه الجميل الذي لأميرٍ عربيّ في حضن باولينا دِل بالْيِه، التي كانت تردّد كي تُشجّعه: «لا تمُتْ يا فِليثيانو، اعلم أنه ما من أحد يدعو الأرامل إلى الحفلات... تنفَّسْ يا رجل! أعدُك إذا ما تنفست أن أنزع مرتاج باب غرفتي.» يحكون أنّ فِليثيانو تمكّن من الابتسام قبل أن ينفجر قلبه بالدم. هناك عدّة صور لذلك التشيليّ القويّ والمرح، ومن السهل تخيّله حيّاً، لأنّه ما من صورة وقف فيها للرسّام أو المصوّر، إلا ويوحي فيها جميعاً بأنّه بوغِت بحركة تلقائية. كان يضحك بأسنان سمكة قرش، ويومئ بيديه حين يتكلّم، ويتحرّك بثقةِ وعتوِّ قرصان. انهارت باولينا دِل بالْيِه بعد موته؛ وبلغ بها الاكتئاب حدّاً لم تستطع معه حضور الجنازة ولا أيٍّ من حفلات التكريم المتعدّدة التي أقامتها المدينةُ على شرفه. وبما أنّ أولادها الثلاثة كانوا غائبين فقد وقع على عاتق رئيس الخدم وليامز ومحاميي الأسرةِ القيام بترتيبات الجنازة. وصل الابنان الأصغران بعد أسابيع، أما ماتيّاس فكان في ألمانيا، وبذريعة وضعه الصحيّ لم يحضر لمواساة أمّه. لأوّل مرّة في حياتها فقدت باولينا غنجَها، وشهيَّتَها واهتمامَها بدفاتر المحاسبة، ورفضت الخروج وصارت تقضي أيّامها في السرير. لم تسمح لأحدٍ بأن يراها في تلك الحالة، والوحيدون الذين علموا ببكائها هم خادماتها ووليامز، الذي كان يتظاهر بعدم

الانتباه، مقتصراً على المراقبة من مسافة دقيقة كي يُساعدها إذا ما طلبت ذلك. توقّفت ذات مساء بالمصادفة أمام المرآة الذهبية الكبيرة التي شغلت نصفَ جدارٍ في حمّامها، ورأت ما آل إليه حالُها: شمطاء بدينة، رثّة الثياب، لها رأس سلحفاة تعلوه خصلة شعر رماديّة متلبّدة. فصرخت مذعورة. ما من رجلٍ في العالم ـ خاصّة فِليثيانو ـ يستحقّ كلّ هذا الإهمال للذات، هكذا ختمت. كانت قد لامست القاع، فقد حانت الساعة لترفس الأرضَ بقدمها وتطفو مرّة أخرى إلى السطح. قرعت الجرس كي تنادي خادماتها وأمرتهنّ أن يُساعِدنها على الاغتسال، وأن يأتينها بحلاقها. ومنذ ذلك اليوم تخطّت حزنها بإرادة من حديدٍ، دون أيّة مساعدة غير جبال الحلوى وحمامات الحوض الطويلة. كان الليلُ يُباغِتُها بفمها الملآن وهي غائصة في حوضها، لكنّها لم تعد تبكي. وفي عيد الميلاد خرجت من سجنها بعدّة كيلوغرامات زيادةً وببنية تامّة، عندئذٍ تبيّنتْ مندهشةً أن العالمَ في غيابها استمرّ بالدوران ولم يفتقدها أحد، وهو ما شكّل دافعاً إضافياً كي تنهض نهائيّاً. لن تسمح بأن يتجاهلوها، كما قرّرت، فقد أتمّت للتو الستين من عمرها وتُفكّر أن تعيش ثلاثين أخرى، وإن كان ذلك كي تعذّب أبناء جلدتها وحسب. سترتدي الحداد لعدّة أشهر، فقد كان هذا أقلّ ما يمكن أن تفعله احتراماً لِفِليثيانو، لكنّه لم يكن يُحبّ أن يراها متحوِّلة إلى واحدة من تلك الأرامل اليونانيات اللواتي يقبرن أنفسهنّ في الخرق السوداء بقيّة حياتهنّ. واستعدّت لتفصيلِ خزانةِ ثيابٍ جديدةٍ، نيليّةِ اللون للعام التالي، وللقيام برحلة ترفيهية إلى أوروبا. دائماً أرادت أن تذهب إلى مصر، لكنّ فِلَيثيانو كان يرى أنّها بلد رملٍ ومومياءات، وكلّ ما هو هام فيها حدث قبل ثلاثة آلاف عام. الآن وقد صارت وحدها تستطيعُ أن تُحقّق هذا الحلمَ. ومع ذلك، سرعان ما انتبهت إلى مدى تبدّل حياتها، وقلّة تقديرِ مجتمع سان فرانسيسكو لها؛ فكلّ ثروتها لم تكفِ كي يغفر له أصلها الهيسباني ونبرتها التي لطاهية. وبالفعل ما عادت تدعى، كما كانت قد قالت مازحةً، وما عادت أولى من تتلقىّ دعواتٍ إلى الحفلات، ولم يعودوا يطلبون منها أن تَدشّن مستشفىً أو نصباً، وما عاد اسمها يُذكر في الصفحات الاجتماعية، ونادراً ما صاروا يُحيّيونها في

الأوبرا. أصبحت منبوذة. ثمّ إنّه صار من الصعب جدّاً عليها أن تزيد تجارتها، لأنّه بعد وفاة فِليثيانو لم يعد هناك من يمثّلها في الأوساط المالية. قامت بحساب دقيق لأملاكها، ولاحظت أنّ أولادها الثلاثة يبذّرون الأموالَ بأسرع مما تستطيع كسبه، وعليها ديون في كلّ مكان، وقبل أن يتوفّى فِليثيانو كان قد قام ببعض الاستثمارات المشؤومة دون أن يستشيرها. لم تكن ثريّة كما كانت تظنُّ، ومع ذلك فهي بعيدة عن الشعور بأنها مهزومة. استدعت وليامز وأمرته أن يتعاقد مع مهندس ديكور من أجل إعادة ترتيب القاعات، ورئيس طهاة لتنظيم سلسلة من الولائم تُقدِّمها بمناسبة العام الجديد، ووكيلِ سفر كي تتكلّم معه عن مصر، وخيّاط كي يُصمِّم لها ملابسها الجديدة. وبينما كانت تتعافى من خوفها من الترمّل بتلك الإجراءات الضرورية حضرت إلى بيتها طفلة ترتدي البوبلين الأبيض، وقلنسوة مطرّزة وحذاءً جلديّاً لامعاً، تمسكها من يدها امرأة ترتدي ثياب الحداد. تلك كانت إليثا سومّرز وحفيدتها أورورا، التي لم ترها باولينا دِل بالْيِه منذ خمس سنوات.

ـ ها أنا أُحضِر إليك الطفلة، كما كنت تريدين يا باولينا ـ قالت إليثا سومرز بحزن.

ـ يا إلهي، ما الذي جرى؟ ـ سألت باولينا دِل بالْيِه وقد أخذتها المفاجأة.

ـ مات زوجي.

ـ أرى أنّ كلينا أرملتان... ـ تمتمت باولينا.

أوضحت إليثا سومّرز أنّها لا تستطيع أن تعتني بحفيدتها، لأنّ عليها أن تحمل جثمان تاو شيين إلى الصين، كما كانت قد وعدته دائماً. نادت باولينا دِل بالْيِه وليامز وأمرته أن يُرافِق الصغيرةَ إلى الحديقة ليريها الطواويس، بينما هما تتكلّمان.

ـ متى تفكّرين بالعودةِ يا إليثا؟ ـ سألت باولينا.

ـ يمكن أن تكون رحلة طويلة جدّاً.

ـ لا أريدُ أن أتعلّق بالطفلة لأعيدها إليك بعد عدّة أشهر. قلبي سيتمزّق.

ـ أعدك ألاّ يحدث هذا يا باولينا. أنتِ تستطيعين أن تُقدّمي إلى حفيدتي حياةً أفضلَ بكثير من التي أستطيع أن أقدّمها إليها. أنا لا أنتمي إلى مكان. والعيش في تشاياناتاون دون تاوشيين لا معنى له، كما أنّني لا أتلاءم مع الأمريكيين، وليس عندي ما أفعله في تشيلي. أنا غريبة في كلّ مكان، لكنّني أرغب أن يكون لِـــ *لاي* ـ مينغ جذور، وأسرة وتربية حسنة. وعلى عاتق سِبِرو دِل بالْيِه، والدها الشرعي، يقع أمرها، لكنّه بعيد جدّاً ولديه أولاد آخرون. وبما أنّك أردت دائماً أن تكون الطفلة عندك، فقد فكّرتُ أنّ...

ـ حسناً فعلتِ يا إليثا! ـ قاطعتها باولينا.

استمعت باولينا دِل بالْيِه إلى المأساة التي نزلت بإليثا سومّرز، واستقصت عن كلّ التفاصيل حول أَوْرورا، بما في ذلك الدور الذي كان يلعبه سِبِرو دِل بالْيِه في مصيرها، وخلال ذلك تبخّر غضبُها وعجرفتُها دون أن تدري كيف، ووجدت نفسها تُعانِق تلك المرأة، التي كانت تعتبرها قبلَ لحظات قليلة أسوأ عدوّةٍ لها، متأثّرةً شاكرة كرمَهَا اللامعقول بمنحها حفيدتها، مقسمةً بأن تكون أفضلَ جدّة لها، بالتأكيد ليس أفضل منها أو من تاو شيين، لكنّها مستعدّة لأن تُكرِّس بقيّة حياتها لرعاية وإسعادِ أورورا. ستكون هذه هي المهمّة الأولى لها في هذا العالم.

ـ *لاي* ـ مينغ فتاة ذكيّة. سرعان ما ستسأل من يكون أبوها. كانت حتى فترة قصيرة تظنّ أنّ أباها، وجدّها، وأفضل صديق لها، وإلههها شخص واحد: تاو شيين ـ قالت إليثا.

ـ ماذا تريدينني أن أقول لها إذا ما سألتني؟ ـ أرادت باولينا أن تعرف.

ـ قولي لها الحقيقة، فهذه دائماً أسهل ما يمكن فهمه ـ نصحتها إليثا.

ـ وهل أقول لها إنّ ولدي ماتيّاس أبوها البيولوجي وابن أخي سِبِرو هو أبوها الشرعي؟

ـ ولم لا؟ وقولي لها إنّ أمَّها كانت تُدعى لين سومّرز، وإنها كانت شابّة طيّبة وجميلة ـ همست إليثا سومّرز بصوت مهشّم.

اتفقت الجدّتان هناك بالتحديد على أنّه، ومن أجل تجنيب الطفلة مزيد من البلبلة، من المناسب فصلها عن أسرة أمّها نهائيّاً، فلا تعود تتكلّم الصينية أو تقيم أيّ احتكاك بماضيها. واستنتجتا أنه في سن الخامسة ليس هناك استخدام للعقل أو تمييز للأحداث؛ ومع الزمن ستنسى *لاي* ـ مينغ أصولها وصدمة الأحداث الأخيرة. وتعهّدت إليثا سومرز ألا تحاول إقامة أيّ اتصال مع الطفلة، ووعدتها باولينا دِل بالْيِه أن تعبدها كما كانت ستفعل مع الابنة التي طالما رغبت بها ولم تملكها. ودّعت إحداهما الأخرى بعناق قصير وخرجت إليثا من بابٍ من أبواب الخدمة، كيلا تراها الحفيدة وهي تبتعد.

يحزنني أنّ هاتين السيّدتين الطيّبتين، جدّتيّ إليثا سومرز وباولينا دِل بالْيِه، قرّرتا مصيري دون أن تسمحا لي بأيّ مشاركة. فبالعزيمة الجبّارة ذاتها التي انسلّت بها جدّتي باولينا في الثامنة عشرة من عمرها من الدير برأسها الحليق كي تهرب مع خطيبها وبالتصميم الذي جمعت فيه ثروةً وهي في الثامنة والعشرين، حاملة ثلجاً من ثلوج ما قبل التاريخ في سفينة، أصرّت على أن تمحو أصولي. ولولا زلّة من القدرالذي بدّل خططها في اللحظة الأخيرة لكانت حقّقت ذلك. أتذكّر جيّداً انطباعي الأوّل عنها. أرى نفسي أدخل قصراً يعلو هضبةً، أعبر حدائقَ فيها مرايا من ماء وأشجار قصيرة مقلّمة، وأرى أدراج مرمر وأسداً برونزيّاً بالحجم الطبيعيّ على كلّ جانب، وباباً خشبيّاً مزدوجاً داكناً، وقاعة فسيحة مضاءة بنوافذ من الزجاج الملوّن في قبّة جليلة تتوّج السقفَ. لم يحدث أن كنتُ في مكان مثله قط، وكنتُ أشعر بالافتتان كما بالخوف. وفجأة وجدتُ نفسي أمام كرسيّ كبير مذهّب ومرصّع تتربّع فيه باولينا دِل بالْيِه، ملكةً على عرشها. وبما أنّني عدتُ ورأيتها مرّاتٍ كثيرة على الكرسيّ ذاته، فليس من الصعب عليّ أن أتصوّر مظهرها في ذلك اليوم الأوّل: عظيمةً، مزيّنة بفيض من المجوهرات وما يكفي من القماش لصنع ستائر، ومهيمنة متسلطة. وبحضورها يختفي بقيّة

العالم. كان صوتها جميلاً وأناقتُها طبيعية جدّاً، وأسنانها بيضاء متساوية، نتاج طقم خزف سنّيّ متقن. لا بدَّ أن شعرها كان في ذلك الوقت رماديّاً، لكنّها كانت تصبغه باللون الكستنائيّ الذي كان له في شبابها، وتزيده بسلسلة من الشعر المستعار الموزّع بمهارةٍ، وبطريقة تبدو فيها الكعكة كأنّها برج. لم أر من قبل مخلوقةً بمثل تلك الأبعاد، المتناسبة تماماً مع حجمِ وفخامة بيتها.

أخيراً، وأنا أعرف الآن ما حدث خلال الأيام السابقة على هذه اللحظة، أدركُ أنّه ليس من العدلِ أن أعزو ذعري لهذه الجدّة المريعة وحدها؛ فحين حملوني إلى بيتها كان الرعب جزءاً من متاعي، كالحقيبة الصغيرة والدمية الصينية التي حملتُها متشبّثة بها. بعد أن سرتُ في الحديقةِ، وجلستُ في قاعة طعام فارغة هائلة أمام كأس من المثلجات، حملني وليامز إلى قاعة اللوحات المائيّة، حيثُ ظننتُ أنّ جدّتي إليثا تنتظرني، لكنّني وجدتُ بدلاً عنها باولينا دِل بالْيه، التي اقتربت منّي بحذرٍ كما لو أنّها تريد أن تُمسك بقطّ نفور، وقالت لي إنّها تُحبّني كثيراً، وإنّني من الآن فصاعِداً سأعيش في ذلك البيت الكبير، وسيكون عندي لعب كثيرة، وكذلك حصان وعربة صغيرة.

ـ أنا جدّتُكِ ـ وضّحتْ.

ـ أين جدّتي الحقيقيّة؟ ـ يقولون إنّني سألتُ.

ـ أنا جدّتُكِ الحقيقيّة يا أَورورا. الجدّة الأخرى ذهبت في رحلة طويلة ـ وضّحت لي باولينا.

رحتُ أركض، اجتزت ردهة القبّة، وضعتُ في المكتبة، اصطدمت بقاعة الطعام ودخلت تحت الطاولة، حيثُ تقوقعتُ، وقد أخرستني البلبلة. كانت قطعة أثاث هائلة، سطحها من المرمر الأخضر وأرجلها المحفورة عليها صور نساء أعمدة، من المستحيل تحريكها. وسرعان ما جاءت باولينا دِل بالْيه ووليامز وزوج من الخدم العازمين على تملّقي، لكنّني كنت أنسلّ منهم مثل ابن عرس ما إن تكاد تتمكّن يدٌ من الاقتراب. «اتركيها يا سيّدتي، ستخرج لوحدها»، اقترح وليامز، لكن بما أنّه مضت عدّة ساعات، وأنا

مازلتُ متمترسة تحت الطاولة، جاءوني بصحن آخر من المثلجات، ووسادة وشرشفاً. «سنُخرِجُها حين تنام»، قالت باولينا دِل بالْيِه، لكنّني لم أنم، إنما بلتُ مقرفصةً وواعية تماماً للخطيئة التي ارتكبتُها، فقد كنت من الخوف بحيث لا أستطيع البحث عن الحمّام. بقيتُ تحت الطاولة حتى أثناء تناول باولينا لعشاءها؛ ومن خندقي كنتُ أرى ساقيها الغليظتين ونعلي الساتان الصغيرين اللذين تطفح فوقهما أسطوانات القدمين، وبنطلونات الخادمات السوداء اللواتي كنّ يمضين في خدمة المائدة. وقد انحنت هي مرّتين، وبصعوبة كبيرة جدّاً، كي تغمزني، فأجبتها بإطراق رأسي بين ركبتيَّ. كنت أموتُ جوعاً، وتعباً، ورغبةً بالذهاب إلى الحمّام، لكنّني كنتُ بكبرياءِ باولينا دِل بالْيِه نفسها، فلم أستسلِم بسهولة. بعد قليل زلَّق وليامز صينية المثلجات الثالثة، والبسكويت وقطعة كبيرة من حلوى الشوكولاتة. انتظرتُ ابتعاده، وحين شعرتُ بالأمان أردتُ أن آكلَ، لكنني كلّما مددت يدي أكثر ابتعدت الصينية التي راح وليامز يجرّها بخيط. حين استطعتُ أخيراً أن آخذ قطعة بسكويت كنتُ قد أصبحت خارج ملاذي، وتمكّنتُ من التهام الطعامِ الشهيّ بسلام، لأنّه لم يكن يوجد في قاعة الطعام أحدٌ؛ وما إن سمعتُ جلبةً، حتى عدتُ طائرةً إلى تحت الطاولة. الشيء ذاته تكرّر بعد ساعاتٍ، وعند بزوغ الصباح، إلى أن وصلت بلحاقي بالصينية إلى الباب، حيث كانت تنتظرني باولينا دِل بالْيِه ومعها جرو ضارب للصفرة، وضعته بين ذراعيَّ.

ـ خذي، إنّه لك يا أورورا. هذا الكلب يشعر أيضاً بالوحدة والخوف ـ قالت لي.

ـ اسمي *لاي* ـ *مينغ*.

ـ اسمك أورورا دِل بالْيِه ـ ردّت بحزم.

ـ أين الحمّام؟ ـ همستُ مصالبة ساقيّ.

هكذا بدأت علاقتي مع هذه الجدّة العملاقة التي أمدّني بها القدر. وضعتني في غرفة قريبة من غرفتها وسمحت لي أن أنام مع الجرو، الذي أسميته *كراميلو* لأنّه كان بهذا اللون. وفي منتصف الليل

استيقظت على كابوس الأطفال ذوي البيجامات السوداء، وذهبت مرّتين طائرةً إلى سرير باولينا دِل بالْيِه الأسطوري دون أن أفكّر بالأمر، تماماً كما كنتُ أحشر نفسي كلّ فجرٍ في غرفة جدّي، كي يُدلّلني. كنتُ معتادة على أن أستَقبَلَ في ذراعي تاو شيين القويين، وما من شيءٍ كان يُريحني مثل رائحته البحرية وسلسلة الكلمات الصينية الحلوة التي كان يقولها لي وهو نصف غافٍ. كنتُ أجهل أنّ الأطفال العاديين لا يتخطون عتبة غرفة الكبار، فكيف بالنوم في أسرَّتهم؛ لقد ترعرعتُ على احتكاك جسدي كبير مقبَّلة ومُهدْهَدَة بشكل دائم من جدّيَّ لأمّي، ولم أعرف طريقة أخرى للعزاء أو الراحة غير العناق. حين رأتني باولينا دِل بالْيِه صدتني مستنكرة، فرحت أئنّ ببطء مع الجرو المسكين. لا بدّ أنّ حالتنا كانت محزنة جدّاً، حتى أشارت إلينا بالاقتراب. قفزتُ إلى سريرها وغطيتُ رأسي بالملاحف. أعتقد أنّني نمتُ على الفور، في جميع الأحوال أصبحتُ متقوقعةً بجانبِ ثدييها الهائلين المعطرين بالغاردينيا، والجرو عند قدميّ. وأوّل ما فعلته حين استيقظتُ بين الدلافين وحوريات الماء الفلورنسية كان السؤال عن جدّيَّ، إليثا وتاو. بحثتُ عنهما في جميع أنحاء البيت والحدائق، وبعدها أقمتُ بجانب الباب أنتظرُ مجيئهما للبحث عنّي. الشيء ذاته تكرَّر بقيّةَ الأسبوع، على الرغم من الهدايا والمشاوير وتدليل باولينا لي. وفي يوم السبت هربت. لم أخرج قط إلى الشارع وحيدة، ولم أكن قادرة على تحديد موقعي، لكنّ الغريزة دلّتني على أنّ عليّ أن أهبط التلّ، وهكذا وصلتُ إلى مركز مدينة سان فرانسيسكو، حيث همتُ لساعاتٍ، مرعوبة إلى أن لمحتُ زوجاً من الصينيين ومعهم عربة محمّلة بالثياب للغسيل فتبعتهم عن بعد لأنّهما كانا يشبهان خالي «محظوظ». كانا متجهين إلى تشاياناتاون ـ هناك كانت جميع مصابغ المدينة ـ وما إن دخلت ذلك الحي المعروف جدّاً بالنسبة إليّ حتى شعرتُ بالأمان، رغم أنّني كنتُ أجهلُ أسماء الشوارع وعنوان جدّيّ. كنت من الخجل والخوف بحيث لا أستطيع طلب المساعدة من أحدٍ، فتابعتُ سيري دون اتجاه معيّن، مهتديةً برائحةِ الأطعمة، ووقع أصوات اللغة، ومظهرِ مئات الحوانيت الصغيرة التي طالما جبتها ممسكةً بيد جدّي تاو شيين.

غلبني التعب في لحظة ما، فارتحت في عتبة بناء فاخر وغفوت. استيقظت على هزٍّ وزمجرةٍ من امرأة عجوز بحاجبين رقيقين مطليين بالكربون وسط الجبين، يضفيان عليها شكلَ القناع. صرختُ مذعورة، لكن متأخّرة فلم أستطع أن أملص لأنّها أمسكت بي بكلتا يديها. حملتني وأنا أتخبّط برجليّ في الهواء إلى غرفة حقيرة منتنة وحبستني فيها. كانت رائحة الغرفة كريهة جدّاً وأعتقد أنّني مرضتُ من الخوف والجوع، لأنّني بدأت أتقيّأ. لم أكن أملك فكرة عن المكان الذي كنتُ فيه. وما كدتُ أخرج قليلاً من الغثيان حتى رحتُ أنادي جدّي بكلّ قواي، وعندئذ عادت المرأة وصفعتني صفعاتٍ قطعت أنفاسي؛ لم يضربني أحدٌ من قبل، وأعتقد أن الدهشة كانت أكبر من الألم. أمرتني بالكانتونية أن أغلق فمي وإلاّ فأنّها ستجلدني بعصا الخيزران، ثمّ عرّتني، وفحصتني كاملةً، خاصّةً فمي، وأذنيَّ وأعضائي التناسلية، وألبستني قميصاً نظيفاً وأخذت ثيابي الملطخة. بقيتُ مرّةً أخرى وحيدةً في الغرفة التي راحت تدخل في العتمة مع تناقص الضوء في فجوة التهوية الوحيدة.

أعتقد أنّ هذه المغامرة تركت أثرها فيّ، فقد مضى خمسةٌ وعشرون عاماً وما أزال أرتعد حين أتذكّر تلك الساعات اللامتناهية. لم تكن هناك بنات صغيرات تشاهَدْن في تشاياتاون في تلك المرحلة إطلاقاً، كانت الأسرُ ترعاهنّ بحذرٍ لأنّ من الممكنّ أن يختفين عند أية غفلةٍ في متاهات تجارة الجنس بالأطفال. كنتُ صغيرة جدّاً على ذلك، لكنّهم كثيراً ما كانوا يختطفون أو يشترون طفلاتٍ من عمري لتدريبهنّ منذ الطفولة على كلّ أنواع الفجور. عادت المرأة بعد ساعاتٍ حين أظلمت تماماً، يرافقها رجل أصغر منها. راقباني على ضوء المصباح وبدأا يتناقشان متحمّسين بلغتهما التي كنت أعرفها، لكنّني لم أفهم إلا القليل لأنّني منهكة وأكاد أموت من الخوف. وبدا لي أنّني سمعتُ اسم جدّي تاو شيين عدّة مرّاتٍ. ذهبا وعدتُ لأبقى وحدي، أرتعدُ من البرد والرعب، لا أدري كم من الزمن. وحين فُتح البابُ من جديد أعماني نورُ المصباح، وسمعتُ اسمي بالصينية، *لاي ـ مينغ*، فعرفت صوت خالي «محظوظ» الذي لا يمكن أن أخطئه. رفعتني ذراعاهُ ولم أعرف

بعدها شيئاً لأنّ الراحة صعقتني. لا أتذكّر الرحلة بالعربة، ولا اللحظة التي عدت لأجد نفسي فيها في قصر نوب هيل، أمام جدّتي باولينا. كما لا أتذكّر ما جرى في الأسابيع التالية، لأنّني أُصِبتُ بالحصبة واشتدّ عليّ المرض كثيراً؛ وكانت مرحلة مضطربة، كثيرة التبدّلات والتناقضات.

الآن وأنا أربط بين خيوطِ ماضيّ، أستطيع أن أؤكّد، دون أيّ مجالٍ للشك، أنّ ما أنقذني هو حُسن طالع خالي «محظوظ». فالمرأة التي اختطفتني من الشارع هرعت إلى أحد ممثلي *التونغات*. لأنّه ما من شيء يحدث في الشارع إلا بعلم وموافقة هذه العصابات. كانت الجالية الصينية كلّها تنتمي إلى *التونغات* المتعدّدة. أخويات مغلقة وغيورة تجمع أعضاءها مطالبة بالولاء والعمولة مقابل الحماية والتواصل من أجل العمل، والوعد بإعادة أجساد أعضائها إلى الصين، إذا ما ماتوا على الأرض الأمريكية. كان الرجل قد رآني ممسكة بيد جدّي مرّاتٍ كثيرةً، وبمصادفة مواتية كان ينتمي إلى تونغ تاو شيين ذاتها. فكان هو من استدعى خالي. أوّل ردّ فعل عند «محظوظ» كان أن حملني إلى بيته، كي تتولى رعايتي زوجتُهُ التي أوصى عليها حديثاً بواسطة كتالوج من الصين، لكنّه أدرك بعد ذلك أنّ عليه احترامَ تعليماتِ أبويه. غادرت جدّتي إليثا، بعد أن وضعتني بين يدي باولينا دِل بالْيِه، إلى هونغ كونغ مع جثمان زوجِها لتواريه التراب هناك. وكانت تؤكّدُ دائماً، هي وجدّي، أنّ الحيَّ الصينيّ في سان فرانسيسكو صغير جدّاً عليّ، وكانا يرغبان أن أصبح مواطنة من مواطني الولايات المتحدة. ومع أنّ «محظوظ» شيين لم يكن موافقاً على هذا المبدأ، إلاّ أنّه لم يكن يستطيع أن يعصي إرادةَ والديه، ولذلك دفع إلى مختطفَيَّ المبلغ المتفق عليه وحملني عائداً بي إلى بيت باولينا دِل بالْيِه. لن أراه ثانيةً إلاّ بعد عشرين عاماً، حين ذهبتُ لأبحث عنه كي أتحقّق من آخر تفاصيل قصّتي.

عاشت أسرة جدّيّ لأبويّ الفخورة بنفسها في سان فرانسيسكو ستّة وثلاثين عاماً دون أن تتركَ كبيرَ أثرٍ. ذهبتُ بحثاً عن آثارها.

فقصر نوب هيل صار اليومَ فندقاً، ولا أحد يتذكّر من هم أصحابه الأوائل. وبمراجعة صحف قديمة في المكتبة اكتشفت اسم الأسرة في صفحات المجتمع، كذلك قصّة تمثال الجمهورية واسم أمّي مذكوراً مرّات عديدة. هناك أيضاً خبرٌ مقتَضَبٌ عن وفاة جدّي تاو شيين، خبر وفاة فيه كثير من المديح كتبه شخص يُدعى جاكوب فريمونت، وإعلان عن تعازي المؤسّسة الطبّية تشكر فيها إسهامات *الزهونغ* ـ يي تاو شيين في الطب الغربي. كان هذا شيء غريب لأنّ السكّان الصينيين لم يكونوا آنذاك مرئيين، يولدون، يعيشون ويموتون على هامِش الحدث الأمريكي، لكنّ صيتَ تاو شيين تجاوز حدودَ تشاياناتاون وكاليفورنيا، وصار معروفاً حتى في إنكلترا، حيث ألقى عدداً من المحاضرات حول المعالجة بالوخز بالإبر. ولولا هذه الوثائق المطبوعة لاختفى كمعظمِ أبطال هذه القصّة، وحملته ريح الذاكرة السيّئة.

ذهابي السريع إلى تشاياناتاون بحثاً عن أجدادي لأمّي التقى مع أسباب أخرى دفعت باولينا دِل بالْيه إلى العودة إلى تشيلي. فقد أدركت أنّه ما من حفلات فاخرة أو تبذير قادرٍ على أن يُعيدَ إليها الحالة الاجتماعية التي كانت لها حين كان زوجها حيّاً. كانت تشيخُ وحيدةً، بعيدة عن أبنائها وأقربائها ولغتها وأرضها. ولم يكن المالُ المتبقّي معها ليكفي قطارَ الحياة المعتاد في بيتها بغرفه الخمس والأربعين، لكنّه كان ثروة عظيمة في تشيلي، حيث كلّ شيء يبدو أرخصَ بكثير. ثمّ إنّه قد هبطت عليها حفيدة غريبة، اعتبرت اجتثاثها كلّياً من ماضيها الصيني ضرورياً، إذا ما أردت أن تجعل منها آنسة تشيلية. لم تكن باولينا تتحمّل فكرة هروبي من جديد فتعاقدت مع مربية أطفال إنكليزية كي تراقبني ليلاً ونهاراً. ألغت خططها للذهاب إلى مصر وولائم العام الجديد، وعجّلت بصنع خزانةِ ثيابٍ جديدة، ثمّ راحت توزّع أموالها بين الولايات المتحدة وإنكلترا بشكلٍ منهجي، مرسلةً إلى تشيلي ما لا بدّ منه للإقامة، لأنّ الوضع السياسيَّ بدا لها غير مستقرٍّ. كتبتْ رسالة مطوّلة إلى ابن أخيها سِبرو دِل بالْيه كي تتصالح معه، وتحكي له ما جرى لتاو شيين

وقرار إليثا سومّرز بتكليفها بأمر الطفلة، موضّحة له بالتفصيل ميّزة تربيتها هي للطفلة. وقد تَفَهَّمَ سِبِرو دِل بالْيِه مبرراتها وقبل مقترحها، لأنّه أنجب طفلين وكانت زوجته تنتظر الثالث، لكنّه رفض أن يُسلّمها وصايتَها الشرعية، كما كانت تريد.

محامو باولينا ساعدوها في توضيح صورة وضعها المالي وفي بيع البيت، بينما تكفّل رئيسُ الخدمِ وليامز بالجوانب العملية المتعلّقة بتنظيم انتقال الأسرة إلى جنوب العالم وحزم ممتلكات مُعلّمته؛ لأنّها لم تشأ بيعَ أيّ شيء، كي لا تتقوّل ألسنةُ السوء بأنّها تفعل ذلك للحاجة. وبحسب ما تمّ الاتفاق عليه ستأخذ باولينا طرّاداً يحملنا معها، أنا والمربية الإنكليزية ومستخدمون آخرون موثوقون، بينما يُرسِل وليامز الأمتعة ليبقى بعدها حرّاً، بعد أن يتلقّى مكافأة قيّمة بالجنيهات الإسترلينية لقاءَ خدمته. وسيكون ذلك آخر عمل يقوم به في خدمة معلّمته. لكنّ رئيس الخدمِ طلبَ، قبل أسبوعٍ من مغادرتِها، إذناً ليُكَلِّمها على انفرادٍ.

ـ اعذريني يا سيّدتي، هل أستطيع أن أسألك لماذا خسرتُ تقديرَك؟

ـ عمَّ تتكلّم يا وليامز؟ أنت تعلم كم أقدِّرك! وكم أنا شاكرة لك خدماتك!

ـ ومع ذلك لا ترغبين بحملي معك إلى تشيلي...

ـ بالله عليك يا رجل! لم تخطر لي هذه الفكرة. ماذا سيفعل رئيسُ خدمٍ بريطانيّ في تشيلي؟ لا أحد عنده رئيس خدم هناك. وسيضحكون منك ومنّي. هل نظرتَ إلى الخريطة؟ هذا البلدُ بعيدُ جدّاً ولا أحد يتكلّم فيه الإنكليزية، وستكون حياتُك هناك غير مريحة كثيراً. ليس لي الحقّ بأن أطلبَ منك مثل هذه التضحية، يا وليامز.

ـ إذا سمحت لي سأقول لك يا سيّدتي إنّ ابتعادي عنك تضحية أكبر بكثير.

بقيت باولينا دِل بالْيِه تنظر إلى مستخدَمِها جاحظةَ العينين من الدهشة. ولأوّل مرّة تنتبه إلى أنّ وليامز كان شيئاً أكثر من رجلٍ آليّ

في سترة سوداء لها ذيل وقفّازات بيضاء. رأت رجلاً يُقارب الخمسين من عمره، عريض المنكبين، لطيفَ الوجه، وافرَ الشعر الأحمر، ولامع العينين؛ له يدا عامل شحنٍ خشنتانِ وأسنان صفراء من النيكوتين، رغم أنّها لم ترَهُ يُدخّن أو يبصق تبغاً قط. بقيا برهة لا نهاية لها صامتين، هي تراقبه وهو لا يحرِّك بصره أو يُبدي أيّ انزعاج.

ـ سيّدتي، لم يكن باستطاعتي إلاّ أن أُلاحِظ الصعوبات التي نتجت عن ترمّلك ـ قال وليامز أخيراً باللغة غير المباشرة التي استخدمها دائماً.

ـ هل تسخر مني؟ ـ ابتسمت باولينا.

ـ ليس هناك ما هو أبعد من هذا عن طباعي يا سيّدتي.

ـ هاهه ـ همهمت نظراً للوقفة الطويلة التي تبعت جواب رئيس خدمها.

ـ لا بدّ أنّك تتساءلين الآن لماذا كلّ هذا ـ تابع هو.

ـ لنقل إنّك استطعتَ أن تُثير فضولي، يا وليامز.

ـ يخطر ببالي لأنّني لا أستطيع السفر إلى تشيلي كرئيس خدم لك، أنّ ذهابي معك كزوجٍ لن تكون فكرة سيّئة تماماً.

اعتقدت باولينا أنّ الأرضَ انخسفت تحت قدميها وغاصت بها مع الكرسيّ وكلّ شيء إلى قاع الأرض. وأوّل ما فكّرت به هو أنّ الرجل قد أفلِتت بعضُ براغي دماغه، إذ ليس هناك تفسير آخر، لكنّها حين تأكّدت من عزّة نفسه وهدوئه، ابتلعت الشتائم التي وصلت إلى فمها.

ـ اسمحي لي أن أوضِّح لك وجهة نظري يا سيّدتي ـ أضاف وليامز ـ . لا ألتمس طبعاً أن أمارس وظائف الزوج العاطفية. كما لا أتطلّع إلى ثروتك، التي ستبقى بمنأى تام عنّي، ومن أجل ذلك تتخذين الإجراءات القانونية المناسبة. سيكون دوري إلى جانبك عملياً هو الدور ذاته: أن أساعدك في كلّ ما أستطيع بأكبر قدرٍ من التكتم.

وأعتقدُ أن امرأةً وحيدة في تشيلي، كما في بقيّة أنحاء العالم، تواجه مصاعب كثيرة. سيكون شرف لي أن أواجهها بدلاً عنك.

ـ وماذا تكسب من هذه التسوية الغريبة؟ ـ استقصت باولينا دون أن تستطيع إخفاء النبرة اللاذعة.

ـ من جهةٍ أولى، سأكسب الاحترامَ. ومن جهة ثانية، أعترفُ أن فكرةَ عدم العودة لرؤيتك قد عذّبتني منذ بدأت تتحدّثين عن خططِكِ للذهاب. لقد قضيت بجانبك نصف عمري، واعتدت عليك.

مكثت باولينا خرساء برهة أخرى أبديّة، بينما تُقلّب في رأسها اقتراح مستخدَمِها. تماماً كما طرح الأمر كانت عملية جيّدة، وفيها فائدة للاثنين: هو سيتمتّع بمستوى عال لن يحصل عليه بطريقة أخرى، وهي ستمضي شابكة ذراع رجل، إذا ما نُظِر إليه جيّداً، بدا من أرفعِ طراز. في الحقيقة يبدو وكأنّه من النبلاء الإنكليز. وأطلقت قهقهةً بمجرّد أن تصوّرت وجوه أقربائها في تشيلي وحسد أخواتِها لها.

ـ أنت أصغرعمراً منّي على الأقل بعشرة أعوام، وبثلاثين كيلوغراماً وزناً، ألا تخشى أن تصبح مسخرةً؟ ـ سألت وهي تهتزّ من الضحك.

ـ أنا لا. وأنت ألا تخشين من أن يروك مع رجل من مثل وضعي؟

ـ أنا لا أخشى شيئاً في هذه الحياة، ويسرّني أن أثير استنكار الغير. ما اسمك يا وليامز.

ـ فريدريك.

ـ فريدريك وليامز... اسم جيّد، إنّه من أكثر الأسماء أرستقراطية.

ـ يؤسفني أن أقول إنّه الشيء الأرستقراطي الوحيد الذي أملكه يا سيّدتي ـ وابتسم وليامز.

وهكذا كان أن انطلقنا بعد أسبوع، جدّتي باولينا دِل بالْيِه

وزوجها الذي دشّنته توّاً، وحلاّقها، والمربية، وخادمتان، وخادم وفرّاش وأنا، بالقطار إلى نيويورك مع حمولةِ الصناديق، ومن هناك عبرنا إلى أوروبا في باخرة بريطانية. وقد أخذنا معنا *كراميلو* كذلك، الذي كان قد بلغ في نموه المرحلة التي تنكح فيها الكلابُ كلّ ما تجده في طريقها، وهو في هذه الحالة معطف جدّتي الذي كان من جلد الثعلب وكفافه مغطّى بأذيال كاملة منها. *وكراميلو*، المرتبك أمام السلبية التي تلقّت بها هذه (الأذيالُ) اندفاعه الغرامي، مزّقها بأسنانه. باولينا دِل بالْيه، الغاضبة أوشكت أن ترمي به وبالمعطف عن ظهر السفينة، لكنّ أمام إغماءة الرعب التي أصابتني نجيا بجلدهما. شغلت جدّتي جناحاً من ثلاث غرفٍ، وشغل فريدريك وليامز جناحاً آخر بالحجم ذاته على الجانب الآخر من الممر. وكانت هي تتسلّى نهاراً بالأكل في كلّ ساعة، وتُبدّل فستاناً لكلّ نشاط، وتُعلّمني الحساب، كي آخذ على عاتقي دفاترَ حساباتها في المستقبل، وتحكي لي تاريخَ الأسرةِ، كي أعرف من أين جئتُ، دون أن توضّح قط هويّةَ والدي، كما لو أنّني بزغت في عشيرة دِل بالْيه تلقائياً، وإذا ما سألت عن أمّي أو أبي أجابتني بأنّهما ماتا وليس ذلك مهماً، لأنّ وجود جدّةٍ مثلها يكفي ويزيد. وكان فريدريك وليامز خلال ذلك يلعب البريدج ويقرأ الصحفَ الإنكليزية، مثل بقيّة السادة من الدرجة الأولى. كان قد ترك سوالف وشاربين كثيفين بطرفين مصمغين، مما منحه مظهراً مهيباً، ويُدخّن الغليون والسيجار الكوبي. وقد اعترف إلى جدّتي أنّه مُدخِّن مُتَمرِّس وأن أصعب ما واجهه في عمله كرئيس للخدم كان الامتناع عن التدخين أمام الناس، أخيراً صار باستطاعته الآن أن يتذوّق الدخان ويتخلّصَ من حبّات النعناع التي كان يشتريها بالجملة والتي ثقبت معدته. وفي الوقت الذي يتباهى فيه الرجال من أصحاب المواقع الجيّدة بالكرش وبالغببِ المضاعف تحت ذقونهم، كانت هيئة وليامز النحيل الرياضية والقريبة من النحول شيئاً غريباً في المجتمع الراقي، رغم أنّ آدابه أكثر إقناعاً بكثير من آداب جدّتي. وفي الليل، وقبل أن يهبطا معاً إلى قاعة الرقص، كانا يمرّان علينا ليودّعانا أنا والمربية في الغرفة التي كنتُ أتقاسمها معها. لقد كانا فرجةً، هي مسرّحة

الشعر ويزيّنها حلاّقُها، وترتدي ثياباً احتفالية، وتزدهي بمجوهراتها مثل وثن بدين وهو صار أميراً متزوّجاً رفيع الشأن. كنتُ أطلّ أحياناً على القاعة أتجسّس عليهما مندهشةً: كان فريدريك وليامز يُناور مع باولينا دِل بالْيِه في حلبة الرقص بثقةٍ من اعتاد على نقل الأحمال الثقيلة.

وصلنا إلى تشيلي بعد عام، حين استطاعت ثروة جدّتي المتعثّرة أن تنهض على قدميها بفضل المضاربة بالسكّر التي قامت بها خلال حرب الباسفيك. جاءت نظريتها صائبة: فالناس يأكلون الحلويات أكثر خلال الأوقات الصعبة. تصادف وصولنا مع تقديم سارة بِرنارد التي لا مثيل لها لدورها الشهير، *غادة الكاميليا*. لم تتمكّن الممثلة الشهيرة من تحريك مشاعر الجمهور، كما حدث في بقيّة العالم المتمدّن، لأنّ المجتمع التشيلي المرائي لم يتعاطف مع العاهرة المصابة بالسل، وبدا للجميع أنّه من الطبيعي أن تُضحّي من أجل الحبيب لتتجنب ما سيقولون، لم يجدوا مبرّراً لكلّ تلك المأساة ولا لكلّ تلك الكاميليا الذابلة. وذهبت الممثلة الشهيرة مقتنعةً بأنّها زارت بلد بلهاء خطيرين، وهو الرأي الذي شاطرتها إيّاهُ تماماً باولينا دِل بالْيِه. كانت جدّتي قد تنزّهت مع موكبها في عددٍ من المدن الأوروبية، لكنّها لم تحقّق حلمها بالذهاب إلى مصر، لأنّها افترضت أنّه لن يوجد هناك جمل قادر على تحمّل ثقلها، وسيكون عليها زيارة الأهرامات سيراً على قدميها تحت شمسٍ تتلظّى حمماً. في العام 1886 كنت في السادسة من عمري، وأتكلم مزيجاً من الصينية والإنكليزية والإسبانية، لكنّني أستطيع أن أجري العمليات الحسابية الأساسية الأربع، وأعرف كيف أحوّلُ الفرنكات الفرنسية إلى جنيهات إسترلينية، وهذه إلى ماركاتٍ ألمانية أو ليراتٍ إيطالية بمهارة عجيبة. لم أعد أبكي في كلّ لحظةٍ على جدّيَّ تاو وإليثا سومّرز، لكن بقيت تُعذّبُني الكوابيسُ الغامِضة ذاتها عادةً. كان في ذاكرتي فراغٌ أسود، شيءٌ دائم الحضور وخطير لا أتمكن من تحديد

ماهيته، شيء مجهول يُرعِبني، وخاصّة في الظلمةِ أو بين الحشود. لم أكن أستطيع تحمّلَ أن أرى نفسي محاطة بالناس، فأبدأ بالصراخ مثل ممسوسة، وتُضْطَرُّ جدّتي باولينا أن تلفّني في عناقِ دبٍّ كي أهدأ. وقد اعتدتُ أن ألوذَ إلى سريرها حين أستيقظ مذعورة، وهكذا كبر بيننا الودّ، الذي أعتقدُ واثقةً أنّه أنقذني من الجنونِ والرعبِ الذي كنتُ سأقع فيه لو حدث الأمر بطريقة أخرى. وأمام الحاجة لمواساتي تبدّلت باولينا دِل بالْيِه بطريقة غير محسوسة بالنسبة للجميع باستثناء فريدريك وليامز. فقد أصبحت أكثر تسامحاً وودّاً، بل وانخفض وزنها قليلاً، لأنّها كانت تركض خلفي مشغولة إلى حدّ أنّها نسيت حلوياتها. أعتقد أنّها كانت تعبدني. أقول ذلك دون تواضع مزيّف، لأنّها برهنت لي كثيراً عن ذلك، فقد ساعدتني على أن أترعرع بكلّ ما أمكن من حريّة في تلك الأيام، تُثير فضولي وتريني العالم. ولم تكن تسمح لي بالاستسلام للنزعة العاطفية والتشكّي، «يجب عدم النظر إلى الخلف» كان هذا أحد شعاراتها. كانت تُمازحني، مزاحاً بعضه ثقيل، حتى تعلّمت أن أردّ إليها الصاعَ صاعين، وهذا ما حدّد درجةَ العلاقة بيننا. وقد وجدتُ ذات مرّة ضبّاً مسحوقاً بعجلة عربة في صحن الدار، كان قد بقي في الشمس عدّة أيّام وأصبحَ شبه مستحاثة ثابتة في مظهر الزاحف المشقّق المحزن. أخذته واحتفظت به، ولا أدري لماذا، إلى أن وقعتُ على فكرة استخدامه في خطة مُحكمة. كنتُ جالسة أمام طاولتي أنجز واجباتِ الحساب المدرسية ودخلتْ جدّتي ساهيةً إلى الغرفة، وتظاهرتُ بنوبة سعال يصعب التحكّم بها، فاقتربتْ منّي لتربت على ظهري. انطويتُ من السعال ووجهي بين يديَّ و«بصقتُ»، أمام ذعر المرأة المسكينة الضبَّ الذي حطّ في حضني. بلغ رعبُ جدّتي حين رأتْ الحشرةَ التي لفَظَتْها رئتاي ظاهرياً حدَّ أنّها سقطت جالِسةً، لكنّها ضحكت بعد ذلك مثلي واحتفظت للذكرى بالحيوان المُقدّد بين صفحات أحد الكتب. يصعب علي أن أفهم لماذا كانت امرأة لها قوّتها تخشى أن تحكي لي حقيقةً ماضيَّ. يخطر ببالي أنّها على

الرغم من موقفها المتحدّي للتقاليد، لم تتجاوز قط أباطيلَ طبقتها. ولكي تحميني، أخفت بحذرٍ ربعَ دمي الصينيّ، وبيئةَ أمّي الاجتماعية المتواضعة، وكوني في الحقيقة ابنة زنا. هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنني أن آخذه على تلك الضخامة التي كانت جدّتي.

تعرّفتُ في أوروبا على ماتيّاس رودريغث دِ سانتا كروث دِل بالْيِه. لم تحترم باولينا الاتفاق الذي عقدته مع جدّتي إليثا سومّرز بأن تقول لي الحقيقة، فقد قدّمته لي كعمٍّ آخر من أعمام كثر يملكهم أيّ طفل تشيليّ بدل أن تُقدّمه كأب لي. ذلك أنّ كلّ قريبٍ أو صديقٍ للأسرة في عمر كافٍ كي يحمل هذا اللقب بكرامة يُدعى تلقائياً عمّاً أو عمّة، لذلك ناديت وليامز الطيّب دائماً بـ *العم* فريدريك. لقد علمت بأنّ ماتيّاس أبي بعد عدّة سنوات، حين عاد إلى تشيلي كي يموت، وقد قال لي ذلك هو نفسه. لم يترك الرجل عندي انطباعاً يستحقّ الذكر، كان نحيلاً، شاحباً، ووسيماً؛ يبدو شابّاً حين يكون جالساً، وأكبر بكثير حين يُحاول أن يتحرّك. يمشي بمساعدة عكّاز، ويرافقه دائماً خادمٌ يفتح له الأبوابَ، ويُلْبِسُهُ المعطفَ، يُشعل له السجائرَ، ويُناوله كأسَ الماء الموجود إلى جانبه على طاولة، لأنّ جهد مدّ اليد هو عمل متعب بالنسبة إليه. وقد وضّحت لي جدّتي أن هذا العم يُعاني من التهاب المفاصِل، الحالة المؤلمة جدّاً التي تجعله مثلَ البلور، سريعَ الكسر، كما قالت، ولذلك عليّ أن أقترب منه بحذر شديد. ستموت جدّتي بعد أعوام دون أن تدري أنّ ابنها لم يكن يُعاني من التهاب المفاصل، بل من الزّهري.

ذهول أسرة دِل بالْيِه حين وصول جدّتي إلى سانتياغو كان هائلاً. عبرنا الأرجنتينَ من بوينس آيرس برّاً حتى وصلنا إلى تشيلي، إنها رحلة سفاري حقيقية، آخذين بالاعتبار حجم الأمتعة الآتية من أوروبا إضافة إلى الحقائب الإحدى عشرة المليئة بالمشتريات التي قمنا بها في بوينس آيرس. سافرنا في عربة ركاب، والأحمال على قافلة من البغال يُرافقها حرّاس مسلحون بقيادة العم فريدريك، لأنّ هناك قطّاع طرق على طرفي الحدود، لكنّهم للأسف لم يُهاجمونا ووصلنا إلى تشيلي دون أيّ شيء مهم

يُروى عن عبورنا جبال الأنديز. في الطريق فقدنا المربية التي عشقت أرجنتينياً وفضّلت البقاء معه، كما فقدنا خادمةً هزمها التيفوس، لكنّ العم فريدريك كان يتدبّر أمره كي يتعاقد مع أحد من أجل المساعدة المنزلية في كلّ مرحلة من مراحل رحلتنا. قرّرت باولينا أن تقيم في سانتياغو، العاصمة،لأنّها بعد أن عاشت كلّ تلك السنوات في الولايات المتحدة رأت أنّ ميناء بالباريسو، حيث ولدت، سيكون صغيراً عليها. كما أنّها اعتادت أن تكون بعيدةً عن عشيرتها، وكانت تُرعبُها فكرة أنْ ترى أقرباءها كلّ يوم، العادة المخيفة بالنسبة لأيّةِ أسرةٍ تشيلية مترابطة. ومع ذلك لم تتحرّر منهم في سانتياغو، لأنّه كان لها عدّة أخواتٍ متزوّجاتٍ من « أكابر الناس» كما ينادون بعضهم بعضاً عادة في الطبقة العليا، معتبرين كما أعتقد، أنّ بقية العالم يدخلون في درجة «أسافل الناس». ولم نكد نصل حتى حضر ابن أخيها سِبِرو دِل بالْيه، الذي كان يعيش في العاصمة أيضاً، ليسلّم علينا مع زوجته. وأحتفظ من اللقاء الأوّل بهما بذكرى أكثر صفاء من ذكرى والدي في أوروبا، لأنّهم استقبلوني مبالغين بمظاهر الودّ إلى حدّ أنّهم أخافوني. أبرز ما في سِبِرو أنّه كان على الرغم من عرجه وعكّازه مثلَ أميرٍ من أمراء القصص المصوّرة ـ نادراً ما رأيتُ رجلاً أجمل منه ـ ونيبيا كانت تتباهى ببطنها الدائريّ. ففي تلك الأيام كان الإنجاب يُعتَبَرُ قلّة حشمة والنساء الحوامل عند البرجوازية كن ينزوين في بيوتهنّ، أمّا هي فلم تُحاول أن تُخفي وضعها، بل تعرضه غير مبالية بالإرباك الذي تُسبِّبه. كان الناس في الشارع يُحاولون ألّا ينظروا إليها، كأنّها مشوّهة أو تسير عاريةً. لم أر قط شيئاً مماثِلاً، وحين سألتُ عمّا تعاني منه تلك السيّدة، شرحت لي جدّتي أنّ المسكينة ابتلعت بطيخة. كانت نيبيا تبدو فأراً، على العكس من زوجها الأنيق، لكن يكفي المرء أن يتكلّم معها دقيقتين كي يقع أسيرَ سحرها وطاقتها الهائلة.

كانت سانتياغو مدينة جميلةً، تقع في وادٍ خصيب، تحيط بها الجبال الشاهقة البنفسجية صيفاً والمثلجة شتاء، مدينة هادئة،

ناعسة، تعبقُ بمزيج من روائح أزهار الحدائق وروث الخيل. لها مظهر متفرنس، بأشجارها القديمة، وساحاتها، ونوافيرها الإسلامية، وبوّاباتها، وممرّاتها، ونسائها الأنيقات، ومخازنها النادرة التي يبيعون فيها أنعم ما جيء به من أوروبا ومن الشرق، وشوارعها المشجرة ومتنزهاتها التي يستعرض فيها الأثرياءُ عرباتهم وخيولهم الرائعة. في الشوارع يمرّ باعة جوّالون ينادون معلنين عن بضائعهم المتواضعة يحملونها في سلال، وتجري مجموعاتٌ من الكلاب الشاردة، وفي السقوف تعشش الحمائم وعصافير الدوري. نواقيس الكنائس تُعلن عن الوقت ساعةً بساعة، باستثناء وقت القيلولة التي تخلو فيها الشوارع ويرتاحُ الناس. كانت مدينة إقطاعية مختلفة تماماً عن سان فرانسيسكو المتميزة بطابع المدينة الحدوديّة وجوّ الحاضرة وتنوع الأجناس والألوان، الذي لايمكن أن يُخطئه المرء. اشترت باولينا دِل بالْيِه بيتاً كبيراً في إخِرثيتو ليبِرتادور (الجيش المحرّر) أكثر الشوارع أرستقراطيّةً قريباً من ألامِدا دِ لا دِليثياس (متنزه الملذات) حيث كانت تمرّ في كلّ ربيع العربةُ النابليونية بجيادها المطهّمة، وحرس شرف رئيس الجمهورية في طريقها إلى العرض العسكري بمناسبة العيد الوطني في بارِكِ مارتِ (حديقة المريخ). لم يكن بالإمكان مقارنة بهاء البيت ببهاء قصر سان فرانسيسكو، ولكنّه كان بالنسبة إلى سانتياغو ذا بذخ يثير الغضب. ومع ذلك لم يكن نشر الرخاء وغياب اللباقة ما ترك مجتمع العاصمة الصغير فاغر الفم، بل الزوج ذو الحسب والنسب الذي «اشترته» باولينا دِل بالْيِه، كما كانوا يقولون، والتقوّلات التي كانت تدور حول السرير الفسيح الهائل المزيّن بمخلوقات البحر الأسطورية، حيث من يدري كم من الآثام يرتكب هذان الزوجان العجوزان. وكانوا يعزون لِوِليامز ألقابَ نبالة ونوايا سيّئة. ماالسبب الذي يدفع لورداً بريطانياً في غاية الرقّة والجمال ليتزوّج من امرأة معروفة بسوء مزاجها وأكبر منه سناً بكثير؟ لا يمكنه أن يكون إلا كونتاً مُفْلِساً، وصائدَ ثرواتٍ مستعدّاً أن يُجرّدها من أموالها كي

يهجرها بعد ذلك. الجميع كانوا يتمنون ذلك في أعماقهم كي يكسروا شوكة جدّتي المتكبّرة، ومع ذلك ما من أحدٍ أزعجَ زوجَها، وبقوا أمناء للتقاليد التشيلية المتعلّقة بحسنِ ضيافة الغرباء. كما أنّ فريدريك وليامز اكتسب احترام المسلمين والمسيحيين بآدابه الرائعة، وطريقته البروسية في مواجهة الحياة، وأفكاره الملكية، كان يعتقد أنّ كلَّ شرور المجتمع تعودُ إلى انعدام النظامِ والاحترام للمراتب. شعار من كان خادماً طوال تلك السنوات: «كلٌ في مكانه ومكانٌ لكلٍ واحد». وحين تحوّل إلى زوجٍ لجدّتي لعب دوره كأحد أفراد الأقلّية بالطريقة الطبيعية ذاتها التي لعب بها دوره كخادم، فهو لم يُحاول قط من قبل أن يختلط بمن هم أعلى منه، وبعد الزواج لم يحتك قط بمن هم أدنى منه، كان الفصل بين الطبقات يبدو له ضرورياً من أجل تفادي الفوضى والدهمائية. في تلك العائلة من البرابرة المندفعين التي هي حال آل دِل بالْيه، كان وليامز يُثير الخجل والإعجاب بلطفه المبالَغ به وصفوه الذي لا يُعكّر، نتاجِ سنوات رئاسة الخدم. كان يتكلّم أربع كلمات بالقشتالية، فكان يُخلَط بين صمته الإجباري والحكمة والكبرياء والغموض. الوحيد الذي كان يستطيع أن يكشف عن النبالة البريطانية المزعومة هو سِرو دِل بالْيه، لكنّه لم يفعل ذلك قط، لأنّه كان يُقدِّر الخادم القديم ويُعجب بتلك العمّة التي كانت تسخر من كلّ العالم متباهية بزوجها الأهيف.

انطلقت جدّتي باولينا في حملة إحسانٍ عامّة لإسكات الحسد والنميمة التي كانت تُثيرهما ثروتُها. وكانت تُتقن فعل ذلك، لأنّها عاشت السنوات الأولى من عمرها في هذا البلد الذي تُعتبر نجدة الفقراء فيه من واجب النساء الميسورات. وكنَّ كلّما ضحّين أكثر في سبيل الفقراء، بالمرور على المستشفيات والمآوي وملاجئ الأيتام والأديرة، زادتْ رِفعةُ التقدير العام لهنّ، ولذلك يذيعون أعمال إحسانهم في كلّ اتجاه. كان تجاهل هذا الواجب يجلب الكثير من النظرات الفظيعة والتوبيخ الكهنوتي، بحيث ما كانت باولينا دِل بالْيه نفسها لتفلت من الشعور بالذنب والخوف من الإدانة. درّبتني على أعمال الإحسان هذه، لكنّني أعترف بأنني كنت أتضايق من الذهاب

إلى حيٍّ بائس بعربتنا الفاخرة المحمّلة بالمؤن، ومعنا خادمان ليوزّعا الهدايا على كائناتٍ رثّة الثياب تشكرنا بكثير من مظاهر المذلة، ولكن الكراهية الحيّة تلمع في عيونهم.

لا بدّ أنّ جدّتي ربّتني في البيت، لأنّني هربتُ من كلّ مؤسسة من المؤسسات الدينية التي سجّلتني فيها. لقد أقنعتها أسرةُ دِل بالْيِه بأنّ المدرسة الداخلية هي الطريقة الوحيدة لتحويلي إلى مخلوقٍ طبيعيّ؛ وكانوا يؤكّدون أنّني بحاجة إلى رفقة أطفال آخرين كي أتخطّى خوفي المرضي، وإلى أيدي الراهبات القاسية كي تخضعني. «لقد أسأتِ كثيراً تربية هذه المخلوقة يا باولينا، فأنت تُحوّلينها إلى مسخ»، كانوا يقولون لها، وانتهت جدّتي إلى تصديق ما يبدو جليّاً. كنتُ أنامُ مع *كراميلو* في السرير، وآكل وأقرأ ما يحلو لي، لأقضي النهار بالتسلية بألعاب الخيال، دون كثيرِ انضباط، لأنّه لم يكن يوجد حولي من يكلّف نفسه عناء أن يفرضه عليَّ؛ وبكلماتٍ أخرى كنتُ أتمتّع بطفولة سعيدة كفايةً. لم أتحمّل المدارس الداخلية مع الراهبات ذوات الشوارب، وحشد تلميذاتها اللواتي كنّ يُذكّرنني بكابوس الأطفال ذوي البيجامات السوداء، كما لم أتحمّل صرامة القواعد، ورتابةَ الدوام، وبردَ تلك الأديرة الاستعمارية الطراز. لا أدري كم تكرّر الروتين ذاته: كانت باولينا دِل بالْيِه تلبسني الأبيض الناصع، وتتلو عليَّ التعليمات بنبرة متوعّدة، وتحملني بالإكراه عمليّاً وتتركني مع صناديقي بين يدي راهبة مستجدّة قويّة، ثم تهرب بعدها بالسرعة التي يسمح لها بها وزنها، يضايقها الندم. كانت مدارس لإناث ثريات، يسودُ فيها الخضوع والقباحة، والهدف الأخير منها هو منحنا بعض التعليمات كيلا نكون جاهلات تماماً، ذلك أنّ المسحةَ الثقافية كان لها قيمة في سوق الزواج، لكن ليس إلى حد أن نطرح أسئلة. كان الأمر يتعلّق بإخضاع الإرادة الشخصية لصالح الخير الجماعي، وتحويلنا إلى كاثوليكيات صالحات، وأمهات متفانيات، وزوجات مطيعات. وكان على الراهبات أن يبدأن

بالسيطرة على أجسادنا، مصدر البطلان والآثام؛ لم يكنّ يسمحن لنا بالضحك، أو الجري، أو اللعب في الهواء الطلق. وكنّا نستحمُّ مرّةً كلَّ شهر مغطيات بقمصان طويلة كيلا نظهر عوراتنا أمام عين الربّ، الموجود في كلّ مكان. كنّ ينطلقن من قاعدة أنّ الحرفَ يدخل مع الدم، ولذلك لم يكنّ يُوفِّرن صرامةً. يُدخلن فينا الخوفَ من الله، ومن الشيطان، ومن جميع البالغين، ومن المقرعة التي يضربننا بها على أصابعنا، ومن الحصى التي علينا أن نركع عليها للتوبة، ومن أفكارنا ورغباتنا ذاتها، ويجعلننا نخاف من الخوف. لم نتلقّ قط كلمة إطراء واحدة خشية أن يزرعن فينا التبجّح، لكن العقوبات كانت تفيض عنّا كي تلطّف أمزجتنا. بين تلك الجدران السميكة كانت رفيقاتي الموحّدات اللباس يحافظن على بقائهن بجدائلهنّ المشدودة جدّاً إلى حد أن جلدة رؤوسهن، وأيديهنّ المصابة بالشرث من البرد الأبديّ كانت تنزفُ أحياناً. كان تناقض هذا مع حياتهن في بيوتهنّ ، التي كانوا يدلّلونهنّ فيها كأميرات خلال الإجازات، كفيلاً بأن يذهب بعقل أكثرهنّ رجاحة. لم أستطع تحمّلها. وتوصلت ذات مرّة إلى التواطؤ مع جنائنيّ كي أقفز من فوق الحاجز وأهرب. لا أدري كيف وصلتُ وحدي إلى شارع إخِرثيتو ليبِرتادور، حيث استقبلني *كراميلو* وقد جُنّ فرحاً، حتى أنّ باولينا دِل بالْيِه كادت تُصاب بنوبة قلبية حين رأتني أظهر ممزّقةَ الثياب، متورِّمةَ العينين. قضيتُ عدّة أشهرٍ في البيت إلى أن أجبرَ الضغط الخارجيّ جدّتي على إعادة التجربة. وفي المرّة الثانية اختبأت بين بعض الأشجار في الفناء طوال الليل مصمّمة على الموت برداً وجوعاً. كنتُ أتصوّر وجوه الراهبات وأسرتي حين يكتشفون جثّتي، فأبكي حزناً على نفسي، على الطفلة المسكينة الشهيدة في مثل هذا السن المبكر. في اليوم التالي أعلمت المدرسةُ جدّتي باولينا دِل بالْيِه عن اختفائي، فوصلت مثل إعصار تطلب توضيحات. وبينما كانت تقودها، هي وفريدريك، راهبة مستجدّة متورّدة إلى مكتب الأم رئيسة الدير، انسللتُ من الدغل الذي كنت أختبئ فيه إلى العربة التي كانت تنتظر في الفناء، وصعدتُ

دون أن يراني الحوذي وتقوقعت تحت المقعد. اضطروا بالتعاون بين فريدريك وليامز والحوذي والأم رئيسة الدير أن يساعدوا جدّتي على الصعود إلى العربة، وكانت تصرخ قائلة إنّه إذا لم أظهر بسرعة سيرون من هي باولينا دِل بالْيِه! وحين خرجتُ من ملجئي قبل الوصول إلى البيت، نسيت دموعَ يأسها، وأمسكتني من رقبتي وضربتني ضربة دامت مسافة عدّة تجمّعات من الأبنية، إلى أن تمكن العم فريدريك من تهدئتها. لكنّ التأديب لم يكن نقطة قوّة السيّدة الطيبة، إذ ما إن علمت أنّني لم آكل منذ اليوم السابق وقضيتُ الليلَ في العراء حتى غطّتني بالقبلات وحملتني لآكل مثلجات. في المدرسة الثالثة التي أرادت أن تُسجّلني فيها رفضوني رفضاً كلّياً لأنّني أكّدتُ في المقابلة مع المديرة أنّني رأيتُ الشيطانَ وأن قوائمه خضراء اللون، وأنّني غير محتشمة. أخيراً انتهت جدّتي بالاستسلام. أقنعها سِبرو دِل بالْيِه بأنّه لا يوجد مبرر لتعذيبي، طالما أنّ باستطاعتي أن أتعلّم ما هو ضروري في البيت على يد معلمين خاصّين. لقد مرّت في طفولتي مربيات إنكليزيات وفرنسيات وألمانيات عديدات هلكن بالتتالي في مياه تشيلي الملوّثة وغضب باولينا دِل بالْيِه؛ وكانت أولئك النسوة سيّئات الحظ يعدن إلى بلدانهنّ الأصلية بإسهال مزمن وذكريات سيّئة. بقيت تربيتي مضطربة كفاية حتى وصلت إلى حياتي معلّمة تشيلية استثنائية، الآنسة ماتيلدِ بينِدا، التي علّمتني كلّ ما هو مهم وأعرفه تقريباً باستثناء الحسّ العام، لأنّها هي نفسها ما كانت تملكه. كانت متحمّسة ومثالية، تكتب الشعرَ الفلسفيَّ الذي لم تستطع نشره قط، وتعاني من جوع للمعرفة لا يشبع، وتبدي تشدداً أمام نقاط ضعف الآخرين وهي الخاصة التي يتميّز بها الأشخاص فائقو الذكاء. لا تتحمل الكسل، وكانت جملة «لا أستطيع» ممنوعة في حضورها. تعاقدت معها جدّتي لأنّها كانت تعلن أنّها لاأدرية، واشتراكية ومن أنصار مشاركة المرأة في الانتخابات، وهي ثلاثة أسباب كافية كيلا يُعيّنوها في أيّ من المعاهد التربوية. «لنرى ما إذا كان باستطاعتك أن تُعارضي الورع المحافِظ والبطريركي في

الأسرة». أشارت إليه باولينا دِل بالْيِه في أوَّل مقابلة يدعمها فريدريك وليامز وسِبِرو دِل بالْيِه، الوحيدان اللذان لمحا ذكاء الآنسة بيندِا، أما البقيّة فكانوا يؤكِّدون أنّ تلك المرأة ستُغذّي المسخ الذي كان يتكوّن في داخلي. والعمّات وصفنها على الفور بأنّها «معدومة وارتقت» وحذّرن جدّتي من هذه المرأة ابنة الطبقة الأدنى التي «حشرت نفسها في غير موقعها» كما قلن. بينما تعاطف وليامز معها، وهو أكثر من عرفتهم من الرجال طبقيّة. طوال ستة أيام في الأسبوع، دون أن تتخلّف قط، كانت المعلّمةُ تظهر في السابعة صباحاً في بيت جدّتي، حيث كنت أنتظرها بملابسي المنشاة ناصعة البياض، نظيفةَ الأظافر مجدولة الضفائر للتوّ. فنتناول إفطارنا معاً في غرفة طعام صغيرة يوميّاً، بينما نعلّق على أخبار الصحافة المهمّة، بعدها تعطيني ساعتين من الدروس العادية، ونذهب بقيّة اليوم إلى المتحف وإلى مكتبة *العصر الذهبي* لنشتري كتباً ونشرب شاياً مع المكتبي، دون بدرو تي، ونزور فنّانين، ونخرج لنتأمّل الطبيعةَ، ونقوم بتجارب كيميائية، ونقرأ قصصاً، ونكتبُ شعراً، ونعد أعمالاً مسرحية كلاسيكية بشخصيات مقصوصة من الورق المقوّى. وهي من اقترحت على جدّتي فكرة تشكيل نادٍ للسيدات لتوجيه الصدقات وإيجادِ رأسمالٍ له، بدلاً من إهداء الفقراء ملابس مستعملة أو طعاماً زائداً عن مطابخهم، وإدارته كما لو كان مصرفاً وتقديم القروض إلى النساء كي يبدأن عملاً ما: تربية الدجاج، ورشة للخياطة، مخابط لغسل ثياب الغير، حنتوراً للنقل، أخيراً ما هو ضروريّ للخروج من العوز المطلق الذي كنّ يعشن فيه مع أطفالهنّ. أمّا الرجال فلا، كما قالت الآنسة بيندا، لأنّهم يستخدمون القرض لشراء النبيذ، وفي جميع الأحوال كانت مشاريع الحكومة تتكفّل بنجدتهم، بينما لا أحد يهتمّ جدّياً بالنساء والأطفال. «الناس لايريدون صدقات، بل يريدون أن يكسبوا عيشهم بكرامة» وضّحت المعلّمة، وفهمت باولينا دِل بالْيِه ما تعنيه على الفور وانطلقت في هذا المشروع بالحماس الذي كانت تستقبل به أكثر مشاريعها

طموحاً للحصول على المال. «أجني بيدٍ ما أستطيع وأعطي باليد الأخرى وبذلك أصيب عصفورين بحجر واحد: أسعد وأكسب السماء»، كانت جدّتي الأصيلة تقول ذلك وهي تضحك مقهقهةً. مضت بالمبادرة بعيداً، ولم تشكّل نادي السيّدات الذي ترأسته بكفاءتها المعتادة وحسب ـ كانت السيّدات الأخريات يرتعبن منها ـ بل موّلت أيضاً مدارس ، عياداتٍ طبّية جوّالة، ووضعت نظاماً لجمع ما لا يُباع في حوانيت السوق والمخابز، وما يزال في حالة جيّدة، لتوزعه على ملاجئ الأيتام والمآوي.

حين كانت نيبيا تأتي لزيارتنا وهي دائما حامل ومعها عدد من الأولاد الصغار كلّ في حضن مربيته، كانت الآنسة ماتيلدِ بيندا تغادر اللوحَ. وبينما كانت المستخدمات يأخذن على كاهلهنّ سربَ الأطفال كنّا نحنُ نشربُ الشاي، وتخططان ـ نيبيا والآنسة بيندا ـ لمجتمع أكثر عدلاً ونبلاً. ورغم أنّه لم يكن الوقت يفيض عن نيبيا، ولا الإمكانات المادية، إلاّ أنّها كانت الأكثر شباباً ونشاطاً بين نساء نادي جدتي. كنّا نذهب أحياناً لزيارة معلّمتها القديمة؛ ماريّا إسكابّولاريو، التي كانت تُدير مأوى للراهبات العجائز، لأنّهم لم يعودوا يسمحون لها بممارسة ولهها التربوي، وكانت الأخويّة قد قرّرت أنّ أفكارها المتقدّمة لا يُنصَح بها للتلميذات، وأنّ ضررها سيكون أقلّ حين تعتني بالعجائز الخرفات من زرعِ بذرة التمرّد في عقول الأطفال. كانت السيّدة ماريّا إسكابّولاريو تملك صومعة صغيرة في بناء مُتداع، لكنّه ذو حديقة ساحرة، حيث كانت تستقبلنا فيها دائماً مشكورةً لأنّها تُحب الأحاديثَ الثقافية، وهي متعة صعبة التحقيق في ذلك المأوى. كنّا نحمل لها معنا كتباً تُوصينا عليها بنفسها ونشتريها من مكتبة *العصر الذهبي* المغبرّة. كما كنّا نهديها بسكويتاً أو قالب كاتو لتناولها مع الشاي الذي كانت تعدّه على موقد بارافين وتُقدّمه في فناجين مثلومة. وفي الشتاء كنّا نبقى في الصومعة، فتجلس الراهبة على الكرسي الوحيد المتوافر، بينما تجلسُ نيبيا والآنسة ماتيلدِ بيندا على السرير وأنا على الأرض، وإذا

سمح لنا الطقسُ نتنزّهُ في الحديقة الرائعة بين الأشجار المئوية، وشِباك الياسمين والورد والكاميليا وأنواع أخرى كثيرة من الأزهار المزروعة بفوضى رائعة، حيث كان اختلاط عطورها يدوّخني. لم أكن لأضيع كلمة واحدة من تلك الأحاديث، رغم أنّ ما أفهمه كان قليلاً جدّاً، إلا أنني لم أعد أسمع خطباً بمثل ذلك الحماس. كانتا تتهامسان بسريّة، وتنفجران في الضحك، وتتكلّمان عن كلّ شيء إلا الدين، احتراماً لأفكار الآنسة ماتيلدِ بيندا، التي كانت تصرّ على أنّ الله كان من اختراع البشر للتحكّم بالبشر الآخرين، وخاصّة النساء. كانت السيّدة ماريّا إسكابولاريو ونيبيا كاثوليكيتين، لكن ما من واحدة منهما تبدو متعصّبة، على العكس من معظم الناس الذين كانوا يحيطون بهما آنذاك. ففي الولايات المتحدة لم يكن يوجد من يذكر الدين، بينما هو في تشيلي موضوع المائدة. كانت جدّتي والعم فريدريك يحملانني إلى القداس من حين إلى آخر كي يرانا الآخرون، ولم يكن باستطاعة باولينا دِل بالْيِه، بكلّ ذكائها وثروتها، أن تسمح لنفسها بعدم الذهاب. فالأسرة والمجتمع ماكانا ليتسامحا بذلك.

ـ هل أنتِ كاثوليكية يا جدّتي؟ ـ كنتُ أسألها في كلّ مرّة كان عليّ أن أؤجِّلَ فيها مشواراً أو كتاباً كي أذهبَ للقداس.

ـ هل تظنّين أنّ من الممكن ألا أكون كذلك في تشيلي؟ ـ أجابت.

ـ الآنسة بيندا لا تذهب إلى القداس.

ـ تصوّري كم يسيء هذا للمسكينة. مع أنّها ذكية وتستطيع أن تصبح مديرة مدرسة إذا ذهبت إلى القداس...

وضدّ كلّ منطق، انسجم فريدريك وليامز جيّداً مع أسرة دِل بالْيِه الهائلة في تشيلي. لا بدّ أنّه كان يملك أحشاء من فولاذ، لأنّه الوحيد الذي لم يُدوّد كرشه بمياه الشرب، وكان يستطيع أن يأكل عدّة فطائر محشّوة دون أن تَشتعل معدته. وما من تشيليّ تعرّفنا عليه كان يتكلّم الإنكليزية إلا سِبِرو دِل بالْيِه وخوسيه فرانسيسكو بِرغارا، فاللغة الثانية بالنسبة إلى الناس المتعلمين كانت الفرنسية،

على الرغم من الجالية الإنكليزية الكبيرة في ميناء بالبارايسو، بحيث لم يكن أمام وليامز غير أن يتعلّم القشتالية. أعطته الآنسة بيبدا دروساً، وبعد أشهر قليلة تمكّن من أن يجعل الآخرين يفهمون عليه بجهدٍ وإسبانيةٍ مكسّرة لكنّها عملية، فصار يستطيع قراءة الصحف وممارسة حياته الاجتماعية في نادي الاتحاد، حيث اعتاد أن يلعب البريدج برفقة باتريك إيغن، الدبلوماسيّ الأمريكي الشمالي في المفوّضية. وقد تمكّنت جدّتي من جعلهم يقبلونه في النادي ملمّحة إلى أصله الأرستقراطيّ في البلاط البريطاني، الذي لم يُكلّف أحد نفسه مشقّة التأكّد من صحته، لأنّ ألقاب النبالة في تشيلي كانت قد أُلغيت منذ أيّام الاستقلال، ومن جهة أخرى كان يكفي النظر إلى الرجل لتصديق ذلك. تحديداً كان أعضاء النادي ينتمون إلى «أسر معروفة»، وكانوا «رجالاً صالحين» ـ ولم يكن باستطاعة النساء عبور العتبة ـ ولو أنّهم اكتشفوا هويّة فريدريك وليامز لنازلوه وبارزوه، نتيجة العار الذي لحق بهم من جرّاء أنّ من سخر منهم هو رئيسُ خدم قديم من كاليفورنيا صار أكثر أعضاء النادي رقّةً وأناقة وثقافة، وأفضل لاعب بريدج وأكثر ثروة منهم دون شك. كان وليامز حريصاً على الاطلاع يوميّاً على ـ المواضيع التجارية كي يُسدي النصائح لجدّتي، وعلى الأوضاع السياسية، موضوع الحديث الاجتماعي الإجباري. وكان يجهر بأنّه محافظ بحزم، مثل الجميع في أسرتي، ويتأسّف لأنّه لا يوجد في تشيلي ملكية مثل ملكية بريطانيا العظمى، لأنّه كان يرى أنّ الديمقراطية دهمائية وقليلة الجدوى. كان يتناقشُ في غداءات الآحاد الإجبارية في بيت جدّتي مع نيبيا وسِبِرو، الليبراليّين الوحيدين في عشيرتنا. وكانت أفكارهم تتعارض، ولكنّ الثلاثة يقدّرون بعضهم ويسخرون، كما أعتقد، بالسرّ من بقيّة أعضاء قبيلة دِل بالْيه البدائية. في المرّات النادرة التي وُجِدنا فيها في حضرة دون خوسيه فرانسيسكو بِرغارا، الذي كان باستطاعته أن يتكلّم معه بالإنكليزية حافظ فريدريك وليامز على مسافة الاحترام بينهما، فقد كان الوحيد الذي تمكّن بتفوّقه الفكريّ من أن يدبّ الرهبةَ في نفسه، وربّما الوحيد الذي سيكتشف على الفور حالته كخادم قديم. أفترض أنّ الكثيرين كانوا يتساءلون من

أكون ولماذا تتبنّاني باولينا، إلاّ أنه لم يتمّ التطرق إلى هذا الموضوع أمامي؛ ففي غداءات الآحاد كان يجتمع قرابة العشرين من أبناء العمومة والخؤولة من مختلف الأعمار، وما من أحد سألني قط عن والديَّ، كان يكفيهم أنّني أحمل الكنية ذاتها كي يقبلوا بي.

لاقت جدّتي صعوبة بالتكيّف في تشيلي أكثر من زوجها، رغم أنّ كنيتَها وثروتها كانتا تفتحان لها جميعَ الأبواب. كانت تختنق من صغائر ونفاق ذلك الجوّ، وتشتاق لحرّية أيّام زمان، وليس عبثاً أنّها عاشت أكثر من ثلاثين سنة في كاليفورنيا، لكن ما إن فتحت أبواب بيتها الكبير حتى راحت تترأس الحياة الاجتماعية في سانتياغو، لأنّها فعلت ذلك بكثير من الرقي والمهارة، هي العارفة كيف يكرهون في تشيلي الأغنياءَ خاصّةً حين يكونون متعجرفين. فهي لم تستخدم خدماً من ذوي اللباسِ الموحّدِ الذين كانت تستخدمهم في سان فرانسيسكو، بل خادمات محتشمات يرتدين الملابس السوداءَ والمآزرَ البيضاء، ولا شيء في البيت من الحفلات الموسيقية الصاخبة والفرعونية، بل حفلات محتشمة وذات صبغة عائلية، كيلا يتهموها بـ «العاميّة» المتصنّعة أو محدثة النعمة، وهو أسوأ نعت ممكن. كان عندها عرباتها الفاخرة طبعاً، وجيادها التي تُحسَد عليها، ومقصورتها الخاصّة في المسرح البلدي، مع قاعة صغيرة وبوفيه، تُقدّم فيه المثلجات والشمبانيا لمدعوّيها. وكانت باولينا دِل بالْيه على الرغم من عمرها وبدانتها تفرضُ الموضةَ، لأنّها وصلت لَلتو من أوروبا، ويُفترَض أنّها مطّلعة على آخر الأساليب والصيحات الحديثة. وفي ذلك المجتمع الصارم والوديع أصبحت منارة التأثيرات الأجنبية، كانت السيّدة الوحيدة في دائرتها التي تتكلّم الإنكليزية، وتتلقى المجلات والكتب من نيويورك وباريس، وتوصي على أقمشة وأحذية وقبعات من لندن مباشرةً، وتُدخّن في الأماكن العامة السجائر المصرية التي يُدخّنها ابنُها ماتيَاس. كما كانت تشتري أعمالاً فنّية، وتقدّم على طاولتها صحوناً لم تُرَ من قبل، لأنّ حتى أكثر الأسر رفعةً كانوا ما يزالون

يأكلون مثل قادة مرحلةِ الاستعمارِ الأجلاف: الحساء، والطبيخ والمشويات، والفاصولياء وحلويات المرحلة الاستعمارية الثقيلة. المرّة الأولى التي قدّمت فيها جدّتي *الفوي غراس* وتشكيلة من الأجبان المستوردة من فرنسا، لم يستطع تناولها إلاّ الفرسان الذين زاروا أوروبا. وحين شمّوا رائحة جبن *الكِممبر* و *البور ـ سالو* أصيبت سيّدة بالإقياء، واضطرت أن تخرجَ مثل السهم إلى الحمّام. صار بيت جدّتي مركز تجمّع الفنانين والأدباء الشباب من كلا الجنسين، الذين يلتقون ليعرّفوا بعضهم بعضاً على أعمالهم، ضمن إطار الكلاسيكية المعتاد، وإذا لم يكن المُهتمّ أبيض البشرة ويحمل كنية معروفة، احتاج إلى كثير من الذكاء كي يُقبَل، وفي هذا الجانب لم تكن باولينا تختلف عن بقيّة المجتمع الراقي التشيلي. لقد كانت مسامرات المثقّفين في سانتياغو تحصل في المقاهي والنوادي، ولا يحضرها إلا الرجال، انطلاقاً من القول إنَّه أفضل للنساء أن يُحَرِّكن الحساء من أنْ يكتبن الشعر. وجاءت مبادرة جدّتي بضمّ فنّانات إلى صالونها لتُشَكِّل جدّةً تنطوي على شيء من الفسق.

تبدّلت حياتي في بيت إخِرثيتو ليبِرتادور. ولأوّل مرّة منذ وفاة جدّي تاو شيين انتابني إحساسٌ بالاستقرار، بالعيشِ في مكانٍ ثابت، لا يتبدّل، في نوعٍ من الحصن جذوره ثابتة في أرض راسخة. فصرت أرتاد البناء بالكامل، لم أترك فجوة فيه لم أسبرها ولا زاوية لم أحتلها، بما في ذلك السقف الذي كنتُ أقضي الساعات في تأمل الحمائم فيه، وغرف الخدمة ، رغم أنّه كان ممنوعاً عليّ أن أضع قدمي فيها. كان العقار الهائل يُطلُّ على شارعين وله مدخلان، مدخل رئيسيّ من شارع إخِرثيتو ليبِرتادور، ومدخل الخدم من الشارع الخلفي، كان فيه عشرات القاعات والغرف والحدائق والشرفات والمخابئ والعلّيات والأدراج؛ فيه القاعة الحمراء والزرقاء والذهبية، التي كانت تستخدم في المناسبات الكبرى، ورواق بلوري رائع تدور فيه حياة الأسرة بين أصص من الخزف الصينيّ، والسرخس وأقفاص الكناري. وفي قاعة الطعام كان هناك لوحة بومبية تلف القاعة شاغلة الجدران الأربعة وعدّة خزائن تضم

مجموعة من الخزف والفضّة، وثريّا كريستالية، ونافذة كبيرة تطل على نافورة عربية تتدفّق ماءً إلى أبد الآبدين.

وما إن رفضت جدّتي إرسالي إلى المدرسة وصارت دروسي مع الآنسة بينِدا روتينيّة؛ حتى صرت في غاية السعادة. وفي كلّ مرة أسأل سؤالاً تدلّني تلك المعلّمة الرائعة على طريق للعثور على الإجابة. لقد علّمتني ترتيبَ الأفكار، والبحثَ، والقراءةَ، والإصغاءَ، والبحثَ عن بدائل، وحلّ مسائل قديمة بحلول جديدة، والنقاش بمنطق. علّمتني خصوصاً ألاّ أقبل الإيمان الأعمى، وعلى الشكّ والسؤال حتى عمّا يبدو حقيقة لا تقبل الدحض، مثل تفوّق الرجل على المرأة أو تفوّق عرق أو طبقة اجتماعية على أخرى، هذه الأفكار الجديدة في بلد بطريركي لا يُذكَر فيه الهنود أبداً، ويكفي أن يهبط المرء درجة واحدة في السلم الاجتماعي كي يختفي من الذاكرة الجمعية. كانت أوّل امرأة مثقّفة عبرت حياتي. لم يكن باستطاعة نيبيا بكلّ ذكائها وتربيتها أن تنافِس معلّمتي، فقد تميّزت بحدسها ونبل روحها العظيمة، فسبقت عصرها بنصف قرن، لكنّها لم تظهر نفسها قط بالمثقفة، ولا حتى في مسامرات جدّتي حيث كانت تبرع بخطبها الحماسية المنادية بحق المرأة في التصويت وشكوكها اللاهوتية. ولم يكن من الممكن اعتبار هيئة الآنسة بينِدا تشيلية، فهي ذلك المزيج من الإسبان والهنود الذي ينتج نساءً قصيرات، عريضات الورك، وسوداوات العيون والشعر، عاليات الوجنات، وثقيلات المشية، كأنّهنّ مسمّرات في الأرض. وكان عقلها خارقاً بالنسبة لزمانها وظرفها، فهي من أسرة فقيرة من الجنوب، كان أبوها يعملُ مستخدماً في السكّة الحديدية، وهي الوحيدة من بين أخوتها الثمانية التي استطاعت أن تُنهي دراستها. كانت تلميذة وصديقة لدون بِدرو تيْ، صاحب مكتبة *العصر الذهبيّ*، وهو كتلاني شكس الأخلاق ، لكنّه رقيق القلب، يرشدها في قراءاتها ويعيرها أو يهديها كتباً، لأنّه لم يكن باستطاعتها شراؤها. كان تي يُعاكسُها في أيّ تبادل للآراء، مهما كان تافهاً. لقد سمعته يؤكّدُ مثلاً أن الأمريكيين الجنوبيين مكاكات (نوع من القرود في أمريكا) يميلون إلى